

يوسف السباعي

■ من العالم المجهول

■ خبايا الصدور



من العالم المجهول عنما الصدور

يوسف السباعي

الناشر
مكتبة مصر
مكتبة جامعة القاهرة
شارع كامل صديق - النجيلة
٥٩٠٨٩٦٠١٥

الاهداء

الى اهل العالم المجهول
الى العفاريت والجن والاشباح والأرواح

اهدى كتابى هذا ، بلا سابق لقاء ولا قديم معرفة ، عله يكون فاتحة
صداقة بينى وبينهم ... لينكرونى كما انكرهم ، ويؤكدون لى وجودهم ...
فيرسلون الى - على سبيل الهدية - ماردا من عفاريتهم فى « قمقم » أو فى
« خاتم » يتصاعد شبحه مع الدخان الى عنان السماء ويهز صوته أرجاء
الأرض ويصيح بى « شبيك لييك ... عبك بين يدك »

فاذا استعصت عليهم الهدية .. أو استكثروها على .. فلا اقل من أن
يرسلوا الى « جنية » من جنياتهم حلوة الذات لطيفة المعشر ، تؤنس - اذا ما
أرقت - وحشتى ، وتقصر ليلى ، وتهبى متعة مأمونة مضمونة لا متاعب
ورائها ولا عواطف ، ولا زوابع .

هذا هو مطلبى المتواضع ... فاذا ابستموا على ، فاما أنكم بخلاء
تذكرون للجميل .. أو أنكم - كما قلت دائما - لا وجود لكم الا فى أوهام
المخابيل ... وان عالمكم المجهول ... عالم غير كائن .

يوسف السباعى

مقدمة

أنا لا أؤمن بالأشباح والجن والعفاريت ... وما كنت قط خبيراً بعلم الأرواح ، وما حاولت أن أبحث فيها قليلاً ولا كثيراً .. وما صادفت من الحياة إلا ناحيتها الظاهرة الملموسة التي تستنفذ كل وقتي فتشغلني عن التفكير فيما عداها مما خفى واستتر .

ليس من السخرية بعد كل هذا أن أضع عن العالم المجهول كتاباً .. وأنا أجهل الناس به وأضعفهم إيماناً بما فيه .

انى أتوق لمخاطبة روح ... أو مصادفة جن ... أو مطاردة شبح ... حتى يتبدد من نفسى ذلك الشك الذى يحيط بكل ما وراء المادة من عالم مجهول ... وحتى استجلي ، ولو مرة واحدة ، تلك الأشياء الخفية المبهمة المجهولة الغامضة .

كل ما أعرفه عن العالم المجهول لا يعدو السماع ، فأنا أسمع عن أرواح تهيم ، وأشباح تطوف ، وعفاريت تحوم وجنيات تعشق ... وكلها ظهرت لأناس آخرين ... أما أنا فلا ... حتى لكأن بينى وبينهم تقافر مستحکم ، وبغضاء مقيمة ، فهى تأبى لقائى والظهور لى .

اثنان وثلاثون عاماً .. لم أصادف فيها شيئاً عجبياً .. غير ملموس ولا محسوس .. ولا هبط على وحى انبأنى بنبوة ، أو أطلعنى على سر .. ولا حلمت حلماً يعنى شيئاً أكثر من ترديد لما أحسه فى الحياة ، وأتشوق إليه . المرة الوحيدة التى حاولت أن أجِد لأحلامي معنى .. وأتخذها قاعدة استنتاج منها ما يوشك أن يحدث .. خذلتنى خذلانا شديداً .. فقد حلمت ذات مرة قبيل الامتحان أنى رسبت ، فلما ظهرت النتيجة وجدت نفسى ناجحاً ... وفى السنة التالية تكرر الأمر .. فادركت أن أحلام المفقود عندى لا بد أن يعقبها نجاح .. وفى العام الثالث حلمت أنى رسبت ، فرحت أغدو فرحاً مغتبطاً .. وكنت

أمقى ثمرات النجاح .. فلما ظهرت النتيجة وجدت نفسى راسبا - بلا
ملحق - ... ألم أقل لكم بينى وبين أهل العالم المجهول صلة مقطوعة ؟

لنى لأسائل نفسى فى بعض الأحيان .. لحقا ستحشد الأرواح من عهد
آدم حتى القيامة ؟ . وهل يحتمل العالم الآخر كل هذه الأرواح من بشر ،
وكلاب ، وقطط ... ونحل ونمل .. وأسود وجراثيم ؟ اليس كلها كائنات حية
ذات أرواح لا تقى !

وإذا كانت الأرواح تتبادل الأجساد . فكيف ينوى أن يقتسمها
أصحابها .. ومن منهم أحق بها فى العالم المجهول ؟

ولم لا تكون نهاية الانسان بسيطة .. كنهاية كل شىء ؟ .. الفناء
والعدم .

وتتواتر على الأسئلة الشيطانية وأنا صامت حائر لا أعرف لها
جوابا ..

ومع كل هذا التخيبط فى التفكير والجهل بالحقيقة ، يملكنى احساس بأن
هناك أشياء خفية .. أشياء لا شك فى وجودها .. ولكن أنهاننا البشرية أعجز
من أن تدرك كنهها ، وأعصى من أن تحيط بحقيقة كيانها .

صلة للانسان .. ما جفل فى الحياة بشىء جهله بنفسه .. فهو ما زال
يتخبط فى ادراك كنهه .. لا يكاد يعلم عن نفسه الا أنه شعاع يخبر ، وبارقة
بضمحل .. يشرف على عالم الفناء المجهول .. فلا يكاد يعرف من أسرار
والغزء ، الا كما يعرف ذلك الجالس على شاطئء المحيط يدلى فيه بأطراف
أصابعه .

ليجبنى محطم الذرة . من أين أتى ؟ .. وإلى أين يذهب ؟ .

فلا أظنه بمجيب بأكثر من قول الخيام :

كم بذرنا حكمة الفكر البصير

وسقيناها جبا العقل الغزير

ما جفينا غير بهتان وزور

ما علمنا غير أنا في الملا

شعل البرق خبث بعد التماع

يوسف السباعي



حديث على القبر

وظللت اتعثر وراءه واخوض في
أحوال المقابر ، والريح تصفر من
حوالي في فحيح كريح كأنه همس
الجن أو حديث الشياطين . والظلمة
سائدة الا من ذلك الشعاع المتحرك
الذي يسلطه الرجل من بطاريته .

جلست وصديقي الطبيب النفساني ذات ليلة نقطع الوقت بالحديث
والتدخين .. ونفث الرجل من فمه حفنة من الدخان تصاعدت الى الجو في
حلقات متلاشية .. وأخذ يتم حديثه قائلا :

« وهكذا ترى ياسيدي أنه ليس هناك أشد تعقيدا من النفس البشرية ، فلقد
علمتني دراستي وتجاربي اننا مهما وصلنا في علمنا وبحوثنا ، فلن نعلم عنها
الا القليل . فهي غالبا ما تستتر وراء حجب زائفة لا تكشف عن حقيقتها .. فلا
يكاد الانسان يبصر من سواه الا قشورا تحجب للباب ، أو زبدا يستر أغوار
النفس العميقة .

أجل ياسيدي .. ما جهل الآمى كالآمى .. فنحن لا نكاد نعلم عن
بعضنا شيئا الا ما نراه من الظاهر الخداع .. أما الباطن المعقد المظلم
المكتوى .. فما أشد جهلنا به .. حتى لأقرب الناس الينا .. ولو استطعنا

الوصول الى اختراع نبصر به دخائل النفوس ونطلع به على خبايا الاقداء ،
لراعى الفرق بين ما تضرع وما تظهر .. وهالنا التناقض بين ما تتكشف عنه
الأعماق وما تبديه لنا المظاهر .

وصمت صاحبي برهة .. جذب خلالها نفسا طويلا من سيجارته . وأخذ
يتأمل فى الدخان المتصاعد كأنه يبصر فيه مناظر متجسدة .

وفكرت فيما قال ، فلم أجد به شيئا غريبا .. وخاصة بالنسبة لطبيب
مثله اطلع على كثير من دخائل النفوس المريضة .. وتكشف له الكثير من
أسرارها وخفاياها .. وقلت له معلقا على قوله :

- هذا كلام صحيح بالنسبة لمرضاك .. ولكنى أرى فيه شيئا من
المبالغة والتعميم .. فالإنسان لايعلم بعض الخلاء ممن تشدهم الحياة اليه
برباط من الثقة والصدق .. وتضمه أياهم أواصر المودة والاخلاص ،
فتتكشف نفس كل منهم للآخر ، وتفتتح صدورهم عن كل ما تبطن .. فتصبح
النفوس ، وكذلك ، صحفا سهلة مقروءة بلا تعقيد ولا تمويه .

وضحك الرجل ضحكة ساخرة وهز رأسه قائلا :

- لا .. لا .. ياسيدى .. ان النفوس لا تتكشف أبدا . أنها قد تظهر بعض
ما بها .. ولكن لا تظهر كل ما بها .. لا بد لها من شيء يبقى فى الأعماق ،
ويرمب فى القرار .. لا يبصره أحد .. لا صديق .. ولا غير صديق .

وصمت برهة وعاد يحملق ثلثية فى الدخان المتصاعد ، وشرذ به ذهنه
كأنما يستجمع تكريات غابرة ثم عاد يقول :

- أجل .. ما أشد جهلنا حتى بأقرب الناس إلينا .. سأقص عليك قصة
صديق .. قصة صديق لا مريض .. فقد كان كل ما بيننا صداقة خالصة ..
وما فكرت فى يوم ما أن ينفسه مرضا حتى أتولى علاجه .. بل كنت أجده
خير الناس .. وأسلمهم عقلا ونفسا وجسدا .

عرفته معرفة جيدة .. فقد كان يقطن بجوارنا فى نهاية مصر الجديدة ..
ورغم الفارق الظاهر بيننا فى العمر ، فقد توثقت عرى الصداقة بسرعة .

كان طبيبا متقاعدا قد بلغ المستين من العمر ، وكان يقضى جل وقته :
اما فى حديقة الدار الضيقة جالسا على مقعد خيزراني يتمتع بشمس الشتاء ..
أو جالسا وراء النافذة البحرية يتمتع بنسمات الصيف .

وكان يعيش فى الدار وحيدا .. لا يؤنس وحشته سوى خادم عجوز
تهبىء له الطعام وترعى امره وأمر الدار .

ولقد أحببت الرجل من أول لقاء .. فلقد كان من ذلك النوع من الناس
الذى يبدو لنا كالبلور الشفاف .. لا تشوب نفسه شائبة ولا يعتم بريقها ضباب
من مكر أو سوء ، أو بغض أو رياء .

كان رجلا ، لطيف المعشر ، حلو الحديث طيب القلب ، نقي
السريرة .. حسن الظن بالناس الى حد قد يسميه البعض بلها .. وإن كنت أنا
لأرى فيه الا سموا فى الخلق وعلاوا فى التفكير .

وتبادلنا الزيارات .. يوما بعد يوم .. وتعودنا أن نقضى سهراتنا سويا
اما فى دارى أو فى داره .. نقطع الوقت بلعبة الشطرنج ، أو تبادل الأحاديث
والأقاصيص .. أو فى سماع ما يستحق السماع من الاذاعة . ولم تكن تكلف
أنفسنا مشقة الرسميات .. اذ كان تجاور الدور يهيبه لنا أن نتزاور بملايس
البيت وقد وضع كل منا «روبا» على كتفيه .. وجلس فى منزل صاحبه كأنه
فى منزله .

و أثبتت لى الأيام حسن ظنى بالرجل .. بل لقد وجدته خيرا مما ظننت ،
فقد كان مفرطا فى الطيبة ، مفرطا فى حب الخير .. الى الحد الذى يجعل
طبيته نوعا من أنواع الشذوذ . ويجعل ميله للخير مصدرا لمناعبه .. فهو أبدا
قلق .. لا يفتأ يوخزه ضميره .. لتوهمه أنه كان يستطيع أن يفعل خيرا مما
فعل .. فهو من ذلك النوع الذى نستطيع أن نسميه «عبد ضميره» .. وهو نوع
متعب ، مجهد ، شديد القلق .

لاشك أن فعل الخير هو واجب كل انسان فى هذه الحياة ولكنى اعتقد
ان الافراط والمبالغة فى أى شىء .. حتى فى فعل الخير .. يعتبر فى المرء
نقيصة .. فهو يجعل من الانسان «عبدا» لذلك الشىء الذى نسميه الضمير ..

والذى يملأ نفوسنا بمركب الندم .. فيجعلنا نندم على كل شيء فعلناه ..
ونتحسر لأننا لم نفعل خيرا مما فعلنا .

أجل ياميدى .. يكفى أن نعطي لمحتاج حسنة .. أما ان نندم فى كل
مرة لأننا لم نعطه أكثر مما أعطينا فذلك مسألة لاتطاق .. ان الضمير شديد
الطمع فى الانسان .. فيجب الا نعطيه الفرصة .. لكى يستعبدنا ويتحكم فىنا ،
ويكبلنا بأغلاله ، ويفسد علينا حياتنا .. ان الحياة أقصر من أن نقضيها ونحن
نجر وراءنا سلاسل الضمير .

فمثلا .. كان ضمن ما يثقل على الرجل ويسبب له قلقا دائما - بلا ادنى
سبب - أرملة صديق له تقطن فى نفس الشارع .. ولست أنكر أن من واجب
الصديق أن يراعى زوجة صديق راحل ويقضى حاجتها ما استطاع الى ذلك
سبيلا .. ولست أنكر أيضا أن الأرملة العجوز .. أو - الست شفيقة - كانت
تستحق كل رعاية وكل عناية . ولكنى رغم كل ذلك لم اكن أجدر مبررا لأن
يثرل الرجل على نفسه بمثل ما أثقل عليها به .. وأن يحس دائما انه مقصر
من أجلها ، ومن أجل صاحبه الراحل .. وانه لا يكاد يشعر براحة الضمير من
فرط توهمه .. أنه لم يفعل من أجلها ما كان يجب أن يفعل .

ترى ماذا كان يستطيع أن يفعل .. خيرا مما فعل ؟ .. لقد كان جم
العطف عليها ، والبر بها .. دائم السؤال عليها .. يراها كما يراعى الابن
أمه ، والأب ابنته .. ولست أشك فى أنها لو كانت اختا له لما فعل أكثر مما
فعل .

ولقد حاولت جهدى أن أسمى عنه ، وأفهمته أن للخير حدودا وأنه قد
فعل أكثر من واجبه .. وأن أحدا من أصدقاء صاحبه لم يفعل نصف ما فعل ..
ولكنه مع ذلك استمر على قلقه .. لقد كان بعيد ضميره .. وكان لابد له أن
يحس بالندم على شيء ، فلو لم يكن من أجل - الست شفيقة - لكان لأى سبب
سواها .

وفى ذات يوم سألتنى رابى فى أنه يود أن يهب نصف دخله - لست
شفيقة - حتى يعينها على العيش لأنه يحس أنها فى ضيق .. وأن معاشها

لايكاد يكفيها .. ولقد اصابني من قول الرجل دهش وسألته عما اذا كان جادا
فى قوله . فأجابنى أنه جاد كل الجد .

وأحسست للرجل بتقدير بالغ واكبار شديد ، ولكنى رغم ذلك لم أستطع
موافقته ، فلقد كان هو نفسه فى حاجة الى كل ملهم من دخله .. وكنت أعرف
ان المرأة لا تشكو من شيء ، وأنها - كما قالت عندما صادفتها فى زيارة له -
تنعم بالستر ، وانها تشكر الله على فضله .. ولم يكن يبدو عليها مظهر ضيق
أو عسر ولكن الرجل أصر على رأيه . ولم يستمع الى قولى .. فقد رأى ان
هذا واجب عليه لا بد من أدائه ، وانه مقصر لأنه لم يفعله قبل ذلك .

ورفضت ، الست شفيقة ، طبعاً ما عرضه الرجل ، واثباته شاكرة أنها
ليست فى حاجة الى شيء ، فمعاشها يكفي كل حاجتها وأنها لا تطمع فى خير
أكثر مما هى فيه .

وفى ذات ليلة ، لأظن نكراها ستمحى من ذاكرتى قط ، كنت أجلس
والرجل فى دارى ، وقد استلقى كل منا على اريكة وأخذنا نستمع الى حفلة
غنائية تذاع لأم كلثوم . وكانت ليلة من ليالى الشتاء الشديد القرم ، التى تعصف
ريحها فيسمع لعصفها صفير وفحيح .. وقد جلس الرجل امامى مدثراً جمده
الفحيل برداء من - صوف الجمل - وتلفح بكوفيه أحاطت رأسه وعنقه
ونصف وجهه ، ووضع على عينيه منظاره السميك ، وتهدل شاربه الأشيب
مغطياً شفثيه ، وبدت شعرات بيضاء متناثرة حول ذقنه ، وبرزت عظام
وجنتيه ، وأغمض عينيه نصف اغماضة ، وأخذ يهز رأسه ببطء ، ويضرب
الأرض بقدمه متمشياً مع الأنغام .

ورويدا رويدا .. رأيت ضربات قدمه تخف ، وهزات رأسه تبطؤ ،
وأغماضه عينيه تزيد .. حتى سقط رأسه على صدره ، وعلا شخير ، وتملكه
سلطان النوم . ولقد تعودت من الرجل تلك الطريقة فى النوم .. ونركته فى
غفوته حتى انتهت الوصلة الغنائية .. فاستيقظ من تلقاء نفسه .. فلقد كان
الانتقال من الضجيج الى الصمت يوقفه ، وهتفت به ضاحكاً :
- صبح النوم .. يا أحمد بيه .

- أى نوم ؟ .. لقد كنت فى تمام اليقظة .

وكان هذا هو رده الدائم .. فما كان يعترف قط بأنه نائم ، ونهض من مجلسه ورافقه حتى الباب وودعنى عائدا الى داره .

ومضت ربع ساعة كنت خلالها قد تمددت فى الفراش ، وبدأت عيناي تغفر .. ونهضت فزعا عندما سمعت طرقا على الباب .. وأسرعت اليه ففتحته ، وإذا بالرجل قد عاد مرة أخرى .. وخشيت أن يكون قد أصابه شيء ، فهتفت به فى قلق :

- أدخل .. ما بك ؟

ودلف الرجل الى الداخل ، وأقفلت الباب فى عجلة ، فقد كانت تنفذ منه ريح باردة تلمس العظام .. وتأملته على ضوء مصباح الصالة ، فوجدته قد ارتدى ثيابه الكاملة .. بدلته وطربوشه ، وحذاءه ، ومعطفه الأسود الثقيل ، ولف وجهه جيدا بالكوفية .

وصمت الرجل برهة ، ثم قال فى صوت ملؤه القلق والتردد :

- لقد .. لقد نسيت شيئا . شيئا هاما .

وبدت على ملامحه تلك العلامات التى تنبئ به بأن ضميره الطامع فى خيره قد عاد يثقل عليه كعائته ، وأحسست بالشفقة عليه .. ان الرجل خير منا مائة مرة .. ومع ذلك فان ضميره غير قانع .. انه يريد أن يكون خيرا مما هو .. ترى ماذا به هذه المرة ؟

وقلت أسأله فى رفق :

- ماذا نسيت يا أحمد بك ؟

- نسيت أمرا هاما .. كان يجب أن انتهى منه . ولكنى اعتقد ان الفرصة لم تذهب .. ما زال هناك بعض الوقت .

وصمت برهة ثم عاد يتمتم مترددا :

- هل .. هل استطيع أن استعير عريتك .. فلاشك أنها ستسهل لى

المهمة .

وسألته فى دهشة :

- تريد ان تخرج بالعربة الآن .. فى هذه الساعة المتأخرة وفى هذا الجو المكفهر ؟

وكان المطر قد بدا يتساقط .. ووصل الى آذاننا صوت قطرات الماء تفرع زجاج الباب .. ووجدت أن من الجنون أن أوافق الرجل على ما يطلب ، فأعطيه العربة ليقودها وحده فى تلك الساعة من الليل وفى زلق الطريق .. وأنا غير واثق من قدرته على القيادة .. انى لاشك أكون ملقيا به الى الدهلكة . وبدأ لى الرجل فى حالة اضطراب شديد .. فقلت له مهنئا ، وأنا أقوده الى الداخل :

- تعال نجلس برهة .. اشرح لى المسألة .

- المسألة لا تحتاج الى شرح .. انى أريد عريك لقضاء حاجة .

- ولكن من الجنون أن أدعك تقود العربة الآن وانت فى مثل هذه الحالة من الاضطراب .

وأطرق الرجل فى حزن ، ثم قال بصوت خفيض :

- حسنا .. أستطيع أن أجد وسيلة أخرى .. أو اذهب حتى سيرا على الأقدام .

- ولكن فى هذه الساعة ؟ .. كلا .. ان هذا جنون .. لم لانتظر حتى الصباح ؟

ولكن الرجل لم يجب .. وظهرت على وجهه علامات الاصرار .. ومد يده الى مودعا .. وهم بأن يتجه نحو الباب ولكنى لم أترك يده .. فقد وجدت ان من الحق أن اتركه وحده .. وعدت أقول له :

- اذا كان لابد لك من العربة .. فسأتى انا معك لقيادتها .. اما ان أعطيكها لك لتقودها وحدك ، فهذا ما لن أفعله قط .. ما رأيك ؟

وصمت الرجل برهة ثم أطرق برأسه قائلا :

- حسنا .. هيا بنا .

وأسرعت بارتداء ملابسى وقد تملكنى خليط من السخط والدهش ..
السخط على الرجل الذى حرمنى من النوم .. واضطرنى الى الخروج فى مثل
ذلك القدر والمطر .. والدهش مما يريد أن يفعله فى مثل هذه الساعة .. ولا
يحتمل التأجيل حتى الصباح .

وبعد لحظات كانت العربة تنساب بنا فوق الأرض اللامعة التى صقلها
المطر .

وأخذت قطرات المطر تضرب زجاج العربة ، وبدأ لى الطريق ، وقد
امتدت على جوانبه المصابيح الخابية الضوء ، الناعسة الطرف من خلال
الفتحة المثثة التى ربيعها أمامى الماسح الذى أخذ يروح ويجىء ماسحاً الزجاج
مما علق به من شوائب المياه ، وسرنا بالعربة مخترقين شارع الخليفة المأمون
ثم شارع العباسية كما طلب منى الرجل ، حتى وصلنا الى تقاطع شارع سعيد
بشارع العباسية .. ثم طلب منى أن اتجه الى اليسار .. ولكنى سألته فى
دهشة :

— إلى اليسار ؟

— أجل ..

ولم يكن الطريق الى اليسار ليؤدى الا الى قلم المرور ، أو بمقلب
الزبلالة ، أو بقرافة الغفير .. ولم أستطع أن أفهم ماذا يمكن أن يكون غرض
الرجل من الذهاب الى أى من تلك الأماكن فى هذه الساعة من الليل .

واتجهت الى اليسار كما طلب ، وأنا أحاول عبثاً أن أستنتج ماذا ينوي
الرجل فعله ، وأخذ الرجل يوجهنى يمناً ويسرة .. وأنا أحملق فى الطريق
حتى وجدت العربة فى طريقها بين المقابر .

أنا لست بالرجل الجبان .. ولا بالرجل الذى يتوهم وجود الأشباح
والعفاريت .. ولا حتى بالذى يحس للموت برهبة أو خشية .. بل أنى اعتبره
نهاية حتمية لكل كائن .. وعلى هذا فليس للمقابر فى نفسى أى أثر وهمى ..
لأنى لا أعتبرها أكثر من صناديق للقمامات .. القمامات البشرية . أو المخلفات

الانسانية أو الرمم والعظام المختلطة بأديم الأرض .. هي «مقلب الزبالة»
سواء .

ولكننى رغم ذلك لم أستطع أن أمنع رجفة سرت فى بدننى وأنا أجد نفسى
بين المقابر ، وقد احاطتنى ظلمة حالكة الا من شعاع مصباح العربى الذى
يخترق طريقه فى الظلمة حتى يقع فى النهاية على قائم أحد القبور .

وطلب منى الرجل أن أقف ، ثم رأيته يفتح باب العربى وينزل الى
الطريق .

ثم يطلب منى أن انتظره ريثما يعود ..

وخشيت عليه أن يصيبه اذى ، فقفزت من العربى وسألته إلى اين ..
وماذا ينوى أن يفعل ، فقال لى أنه سيغيب عنى عشر دقائق أو ربع ساعة
على الأكثر .. ولكننى لم أتركه بل أخذت أتبعه ، ورأيت أنه قد أخرج من جيبه
بطارية صغيرة يتبين طريقه على ضوئها . وظللت اتعثر وراءه واخوض فى
أوحال المقابر ، والريح تصفر من حولى فى فحيح كريب كأنه همس الجن أو
حديث الشياطين .. والظلمة سائدة الا من ذلك الشعاع المتحرك الذى يسلطه
الرجل من بطاريته على رؤوس المقابر .

وأخيرا توقف أمام باب خشبى ، ودفعه بيده ، فأحدثت مفاصله الصدئة
صليلا مخيفا بعث القشعريرة فى بدننى ، ولف الرجل الى الداخل ، فحاولت
أن اتبعه ، ولكنه توقف فى طريقى وسألتنى مستعظفا :

- أرجوك ان تنتظرنى هنا .. دعنى أدخل وحدى .

ولست أدري ماذا كان يدفعنى وقتذاك الى أن أصر على اتباع الرجل
حتى النهاية .. أهو خوفى عليه أم حب الاستطلاع الذى كان قد بلغ عندى
وقتذاك أشده .. أم هو خليط من هذا وذاك .

وأجبت الرجل باصرار وعناد :

- لن ادعك وحدك أبدا .

وصمت الرجل برهة ، ثم أطرق برأسه وقال بصوت خفيض :

- اذا فلا تضحك على .. أرجوك .. سأدخلك بشرط الا تسخر منى ..
قد يكون فيما سأفعله شيء يبعث على الضحك والسخرية ولكن اؤكد لك أن
هذا واجب أؤديه .

وافصح لى الطريق ، وأخذ كلانا يسير الى الداخل حتى وصلنا الى قبر
قد تسلقته إحدى نباتات أنصبار .. ورأيت الرجل قد توقف ورفع كفيه الى
السماء وأخذ يتمتم قارنا «الفاتحة» ، فقلدته فيما فعل . وما انتهيت حتى بدا
يوجه الى الحديث فى صوت هامس :

- ان بينى وبين صاحب القبر موعدا للقاء ، فى مثل هذا اليوم من كل
عام ، وهو يوم وفاته .. وكل ما أرجوه هو الا يكون قد قلق من طول الانتظار
وظن أننى قد نسيت الموعد فأنصرف .. انه صديقى «إبراهيم» الفندى زوج
«الست شفيقة» .. لقد كنا خير اصدقاء .. ولقد اتفقنا قبل أن يموت على أنه
إذا مات احدنا قبل الآخر فعلى الباقى على قيد الحياة ان يزوره مرة فى كل
عام لكي يحمل اليه أخبار الدنيا وما حدث فيها خلال العام ولقد وفيت بوعدى
كل السنين السابقة .. ولكنى كنت أنسى الموعد اليوم .. حمدا لله .. انى قد
تذكرت .. ماذا كان يقول الرجل عنى لو لم أحضر ؟

وعصفت الريح فدفعت الباب دفعة قوية وتملكنى من صوت اندفاع
الباب خوف مفاجئ .. ورفع الرجل سبابته الى شفتيه طالبا منى الصمت ،
ثم سمعته يقول بصوت مرتفع : «السلام عليكم» .

ولم يجبه أحد ولكن الريح أخذت تعث بالباب المفتوح فأحدثت به عدة
طرقات بدت كأنها رد للتحية ، وأخذ الرجل يتم حديثه والريح تفرع الباب
بين آونة وأخرى .. قرعات عادية جدا .. كما تفعل الريح دائما بكل باب أو
نافذة مفتوحة . ومع ذلك فقد بدت القرعات وقتذاك كأنها اجابات لحديث
الرجل .. وكانت تبعث فى جسدى قشعريرة خوف .

وأخذ الرجل يخاطب صديقه صاحب القبر قائلا :

- ان معى اليوم صديقا عزيزا .. الدكتور محمود .. رجل لطيف ذو

مروءة .

وقرع الباب كأنما يحمل اجابة الروح - تشرفتنا - أو - أهلا وسهلا -
وعاد صاحبي يتابع حديثه قائلا :

- سأبدأ فى قراءة الأخبار .. لقد دونتها كعائتى حتى لا أنسى منها
شيئا ..

ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية ونشرها أمام عينيه ، ثم خلع منظاره
ومسحه بطرف منديل ، وبدأ يقرأ ممسكا الورق باحدى يديه ، مسلطا ضوء
البطارية على الكلمات باليد الأخرى .. قال الرجل :

- الأخبار الداخلية .. لا جديد ينكر .. البلد ما زالت كما هى ..
الحكومة فى واد والشعب فى واد .. الحكومة فى وادى العز والسلطان والجهل
والأبهة .. والشعب فى وادى الفقر والبؤس والمرض والجهل .. الوزارة
هى .. هى .. يقول المعارضون أنها تموت غدا .. وتقول هى أنها تعيش
أبدا .. ذهبنا الى مجلس الأمن .. وشكينا وبكينا .. وتوصلنا الى الذئاب ان
ينقذونا من أخيهام الأسد .. وقلنا لهم انه شبع فينا عضا .. ونهشا ، وأنه يوشك
أن يلتهم نصفنا الأسفل وينهش نصف أحشائنا .. وغضبت الذئاب .. لا على
الأسد بل علينا .. لاننا ناكرون للجميل .. حانثون بالعهد .. وقالوا لنا خير لكم
أن تتفاهموا مع أخينا الأسد مباشرة .. تفاهموا معه وأحشاؤكم بين أسنانه ..
وعنقكم فى فكيه .

عدنا من مجلس الذئاب .. مهللين مكبرين .. لم ؟ لا ادرى والله .. هذه
مسألة لازلت أفكر فيها حتى الآن .. وقد استطيع أن أحدثك عنها فى العام
القادم .. عدنا عودة الغزاة الفاتحين .. رغم ما نالنا من فشل وهزيمة .. وعلقنا
الاعلام ونصبنا الزقف ولعل ذلك من باب التفاريح والعزاء .. ان احدا لا يلومنا
على الهزيمة .. ولكن اللوم كل اللوم على أن نفرح بالهزيمة .. ونجعل منها
أمام أنفسنا انتصارا ..

وأعطت الوزارة نفسها الخازوق الأكبر .. ولم تستقل ولو استقلت
وقدذاك لاستطاعت أن تحتفظ بما كسبته مدى الدهر ولأوضحت للناس أنها
كانت جادة فيما قالت فى مجلس الأمن وأنها أتت بما لم تستطعه الأوائل ..

ولكنها لم تفعل بل أغراها السلطان أو أغريت به .. وبدأت تخسر ما كسبته
شينا فشيئا .. وبدأ للناس أن كل ما فعلته مظاهرة أو مزويعه فى فئجان ..
وبدأت هى تلوذ بسياسة عجيبة .. هى سياسة التجاهل ..

لقد كان الانجليز يتجاهلوننا .. فأصبحنا نتجاهلهم .. ترى هل هناك أى
فارق فى النتيجة .. هل هناك فارق بالنسبة للمدين .. بين أن يتجاهل هو الدائن
أو يتجاهله الدائن ؟ .

لقد أغرقنا بعد ذلك سياسة التجاهل .. التجاهل من كل ناحية .

فالانجليز يتجاهلوننا ويفعلون ما يشاءون .. ونحن نتجاهلهم فنغض
الطرف عما يفعلون .

أما الأخبار الخارجية .. فلا شئ جديد .. لا جديد أبدا .. ان للتاريخ
البليد بعيد نفسه كأنما يعطينا من الماضى القريب صورة (طبق الأصل) منه
بالكربون .. نفس المطامع ونفس التطلحن ونفس التكتل .. ونفس مهزلة
عصبة الأمم .. التى سميت الآن هيئة الأمم .. لا جديد أبدا .. ان البشر مازالوا
كما هم .. حمقى مجانين .. كيف يغير التاريخ وجهه .. وهم لا يغيرون
ما بأنفسهم .

وصمت الرجل .. ورأيته يطوى الورقة ويضعها فى جيبه ويصمت
برهة ثم يعاود الحديث قائلا :

— بقى لى معك حديث خاص .. أود أن أسر اليك به لقد ترددت كثيرا
قبل أن أقدم على قوله .. ولكنى صممت فى النهاية على أن أقوله .. فانى لا
أستطيع أن أحتمل عاما آخر من وخز الضمير .

هل تذكر وفاتك ؟ .. طبعا تذكرها .. لقد كانت عقب مرض طويل ..
توليت أنا علاجه منه . ولاشك أن وفاتك قد بدت طبيعية لكل الناس .. حتى
لك أنت .. ولكنها لم تكن كذلك .. انى أحمل نفسى مسئوليتها .. أنا لم أقفلك
بالطبع وأنت تعلم ذلك .. ولكنى أعتبر نفسى مسئولاً عن موتك .. انتنى قائل
أمام نفسى فقط .. كنت أستطيع أن أمنع وفاتك .. أو على الأقل أؤجلها ..

كنت أستطيع ان اُنحك فترة حياة أخرى .. ولكنى لم أفعل .. بل تركتك تموت .. كنت أستطيع أن أبذل جهدا أكثر مما بذلته من أجلك ، ولكنى لم أبذل .. لأنى كنت أريدك أن تموت قبلى هل تدري لم ؟ .

انك لاشك تذكر زواجك .. لقد كان ذلك الثلاثين عاما .. منذ زمن طويل .. ولكنى مع ذلك لم اُمنه قط .. فلقد كان صدمة لى .. لأنى كنت على وشك أن أخطب شفيقة .. فلقد أحببتها كما لم يحب انسانا .. ولكنك سبقتنى اليها ففزت بها ، وبوت أنا بالخيبة والخذلان . تزوجتها أنت ، ولاشك أن حبك لها - ان كنت قد أحببتها - قد خبا على مر الأيام .. أما أنا فقد أبقي الحرمان على حبى ، فما انطفأت جذوته ولا خبا لهيبه . ولم أقدم على الزواج ، بل عشت وحيدا ، لأنى لم أكن اجسر على التفكير فى أن أتزوج سواها .

ومرت الأيام والسنون ، وقد طويت حبى بين الحنايا .. وقعت منه بصداقة خالصة لا تشوبها شائبة .. فأخلصت لك ولها ، راضيا لحكم القدر .. راضيا بما وهبني إياه .. حتى بدأ الهرم يذب ثلاثتنا ، وما زال حبى كما هو .. ومرضت أنت وطال بك المرض .. وأنا أتولى علاجك والعناية بك .

ولقد سألت نفسى ذات يوم .. ما النهاية .. وكيف المصير .. هل قضى على بالحرمان مدى العمر ؟ هل قدر لى أن أخرج من الحياة سفير اليدين .. وساورنى إذ ذاك خاطر بعث فى نفسى بعض الأمل وبعض العزاء .. لقد قلت لنفسى انك قد تخرج من الحياة قبلى .. فيخلو لى الطريق وأستطيع أن أمتع نفسى المحرومة .. بضع لحظات فى نهاية العمر .. أستطيع أن أدفئ القلب المقرور بأشعة الشمس الغاربة الهاربة .

وقوى مرضك هذا الأمل فى نفسى .. وأخذت انتظر فى هدوء ومكينة .. أن تتفضل وتترفق بى .. وتغادر الحياة .

واكن مرضك قد طال .. وبدأ القلق يساورنى .. وتملكنى خوف من أن يسخر منى القدر فيخرجنى من الحياة قبلك .. وأغادر الحياة كما دخلتها ، محروما محسورا .

وبدأت أقدر الموقف .. فوجدت أنك قد نعمت بها - أعنى بزواجك
ثلاثين عاما .. وانك قد أخذت من الحياة قدرا كافيا وفزت منها بنصيب
الأسد .. وانك الآن لم تعد تتمتع منها بشيء فان حياتك مع المرض الذى
اعتراك ، حياة ضيق وتبرم .. وأن خروجك من الحياة خير لك .. ولى ..
فلاشك أنك لن تأبى على - وأنت الرجل الكريم - أن تهبنى بضع سنوات من
خريف الحياة بعد أن تمتعت أنت ببهجة الربيع وازدهاره .

وهكذا اقتعت نفسى .. أن كل جهد أبذله لاطالة حياتك هو جهد ضائع ..
لأنى أهابك لحظات لن تجتلك نفعا ، ولكنها تسبب لى خسارة .. أجل لقد كنت
أهابك لحظات من حياتى ومن متعتى .

وبدأت أتراخى فى علاجك .. فقل جهدى .. ولم أعد أقبل على العناية
بك بنفس الاخلاص ونفس الرغبة .

ولست أدري ان كان ذلك التراخى منى قد عجل بنهايتك ، أم أن أجلك
هو الذى قد حان .. ولكن الذى أدريه هو انى قد ذهبت اليك ذات صباح
فوجدتك قد فارقت الحياة .

وبكىتك كما بكىك زوجتك .. بكيتك مخلصا .. فلقد أحزننى فقذك .
ولم تستطع تلك الرغبة الخفية فى الخلاص منك ، وفى أن تسبقنى الى
الخروج من الحياة .. أن تخفف لوعتى على فراقك فقد كانت صداقتنا صداقة
عمر .. وكنت أهابك .. فما رأيت منك الا كل خير وكل صنيع حسن .

ومرت الأيام بعد موتك .. وكنت أحس دائما بنوع من تأنيب الضمير ..
تزداد وطأته كلما أبصرت بزواجك .. ورأيت حزنها ووجدتها .. وبدأت أشعر
أن واجبى الأول هو أن أعينها فى حياتها .

ولقد خلا لى الطريق بعد ذهابك .. ولكنى وجدته شديد الظلمة
والوحشة ، ولم أر له البريق الذى كنت اتخيل .

ومع ذلك - ولا أكتفك القول - اننى لم أستطع أن أقاوم تلك الحماقة
التي دفستنى الى أن أسألها الزواج .. فأدهشها قولى .. ولم يسعها الا أن
تردعنى برفق وعطف .. كأنها أم حنون .

انى أحس أنها تعيش فى ضنك ، ولقد حاولت أن أعينها بشيء تافه من المال .. ولكنها أبوت .. ولشد ما يثقل على الا أستطيع معاونتها وأن أشعر أننى كنت السبب فيما أصابها .

لقد كنت مخطئا كل الخطأ فى اخراجك من الحياة .. فانى أشقيتها دون أن أشعر نفسى بأية معاناة .. وببت أحس أنى قد أكرمت فى حقك وفى حقها وفى حق نفسى .. وثقلت على وطأة الضمير .. وبخيل الى أن هناك طريقا واحدا لاسلاح ما أفسدت ، لقد فرقت بينكما فليس هناك ما أستطيع التفكير به عما فعلت سوى أن أجمع بينكما مرة أخرى .

ولقد كان بودى أن أعيدك اليها .. ولكن هذا - كما تعلم أنت خير العلم - أمر يستحيل على عمله .. وعلى ذلك فلم يبق أمامى سوى أمر واحد .. وهو أن أعيدها إليك .. فذلك شيء أظننى أستطيعه .. أجل انى سأرسلها اليك فى أقرب فرصة أقرب مما تتصور .. وسأصبر أنا على فراقها وأتجدد وليعنى الله على احتمال الحياة .. حتى يخرجنى منها اليكم .

★ ★ ★

وسمت الرجل .. وسمعت الريح تفرع الباب بشدة .. ورايته يرفع يده بالتحية قائلا والسلام عليكم .

واتجهنا الى الباب ، وسرنا فى صمت ، وقد تملكنى دهش شديد ، وأخذت أستعيد لنفسى ما قاله الرجل .. فهالنى الأمر .

ان الرجل - كما اعترف أمام القبر - رجل قاتل .. وهو على وشك أن يقدم على ارتكاب جريمة أخرى .. وهى كما يسميها اعادة المرأة الى زوجها الذى أخرجه من الحياة .

ولم أشك وقتذاك فى أن الرجل مجنون .. وأن أول ما يجب على القسام به هو أن أتخذ من براءته - الست شفيقة - التى بنوى أن يخرجها من الحياة فى أقرب فرصة .. وبعد أن أنقذها أبلغ عنه ليرسلوه الى مستشفى المجانين .

ووصلنا الى الطريق وسارت بنا العربة دون أن ينبس أحدها ببنت شقه حتى وصلنا الى دورنا ، وشد الرجل على يدي مودعا وعاد الى بيته .

ولم أذهب الى دارى بل انطلقت الى دار الميت شقية .. لقد كنا حقا فى ساعة متأخرة من الليل .. ومن الحمق أن أوقفها فى ذلك الوقت . ولكن المسألة كانت مسألة حياة أو موت .. ان الرجل المجنون قد عزم على أن يلحقها بزوجها .. فى أقرب فرصة .. أقرب مما نتصور .

وقرعت بابها .. ولم يجبنى أحد فى بادىء الأمر .. ولكنى بعد لحظات أحسست خطوات ثقيلة تقترب من الباب وتفتحه وأطل على وجه الخادم .. وقد بدا عليها ذعر شديد .. وسألتنى عما بى وعما أريد .

فقلت لها فى عجلة : انى أريد أن أرى سيدتها فى أمر هام ، فأجابتنى فى دهش : انها نائمة وأنها لا تستطيع إيقافها . ولكنى أصررت على أن توقفها . وقلت لها أن المسألة خطيرة جدا .

واغلقت الخادم الباب ، وعادت الى الداخل .. ووقفت فى الخارج أنتظر الرد فى ضيق وقلق .

وفجأة سمعت صياحا وولولة ، ورأيت الخادم تهرول نحو الباب وتطل على لتخبرنى بأكية .. ان سيدتها قد ماتت .

لقد تركت الحياة .. أصرع كثيرا مما تتصور .

★ ★ ★

وصمت محدثى .. وطال به الصمت وهو يحملق فى الدخان المتصاعد من سيجارته .. وبدا لى كأنه قد انتهى من قصته .. وقطعت عليه صمته متسائلا :

- والرجل ؟ ، ماذا فعلت به ؟ .

- لا شيء .. وماذا كنت أستطيع أن أفعل به .. وقد خرج هو الآخر من الحياة قبل شروق الشمس .. أجل ياسيدى لقد مات الرجل فى نفس الصباح .

- أمر عجيب !

- عجيب .. وغير عجيب .. ان المسألة كلها لا تبدو أن تكون طبيعية ، لا جريمة فيها ، اذا حاولنا أن نفحصها من الناحية المنطقية المعقولة .. وهى مسألة عجيبة اذا ما حاولنا ان ننظر اليها من وجهة النظر الأخرى وجهة نظر الرجل نفسه .

فإذا حاولنا أن نفحصها من الناحية الاولى فإنا نجد ان الزوج الراحل قد مات موة طبيعية نتيجة لمرض عادى ، ولكن صاحبنا الطبيب ، وهو كما قلت لك ، مصاب بمرض الضمير أو من النوع الذى نسميه عبيد الضمائر ، الذين يحسون بندم على كل ما يفعلون قد تخيل له أنه قصر فى علاج الزوج وأن تقصيره هذا قد سبب وفاته .. واستمر ضميره يثقل عليه حتى أصابه بنوع من الجنون .. هيا له أن يقتل المرأة ليبحث بها الى زوجها فى الحياة الأخرى .

وسادف أن ماتت الزوجة فى تلك الليلة موة طبيعية .. ثم مات هو فى الصباح نتيجة لذلك الجهد الذى بذله ، ونتيجة لتعرضه للمصقيع والمطر .

هذه هى كل المسألة لا عجب فيها ولا غرابة .

أما اذا حاولنا أن نراها من وجهة نظر الرجل ، فإنا نجد فيها مسألة عجيبة حقا فالرجل قد قتل الزوج خوفا من أن يموت هو قبله فلا يستطيع أن يتمتع بالمرأة التى أحبها ولو حتى فى خريف العمر .. ثم ندم على ما فعل ، وأشقاء حزن المرأة ورفضها زواجه فألحقها بزوجها .. متخيلا أن فى تلك راحة لها وتكفيرا عما فعله بزوجها .. وزادت عليه وطأة الضمير .. فلم تشرق عليه شمس اليوم الا وقد الحق نفسه بالسابقين .

وبخيل الى أننا لو أردنا أن نختم القصة على لسان الرجل أو لو استطاع

أحد أن يوجد بجواره فى تلك اللحظة التى أقدم فيها على الانتحار ، لسمع منه
تتمة ذلك الحديث الذى القى به على قبر الزوج الراحل :

فلقد أرسلتها إليك .. انكما لاثلك تسعدان الآن بلقاء ممتع انى احس
بوحشة الحياة .. ومرارة الفراق .. وأحاول أن أصبر وأتجلد .. ولكننى لا
أستطيع .. لقد قضيت حياتى محروما ، ولكن خير ما كان يعيننى على الحياة
هو احساسى بوجودها وانى أستطيع أن أراها وقما اثناء وأحس بعطفها على .
اما الآن فماذا يعيننى على الحياة .. ماذا يخرينى على البقاء فيها ..
لا .. انى لا أحتمل الوحدة .. انى قائم اليكماء .

★ ★ ★

رُؤَاغُ هَائِمٍ

تعالى معنا .. والى به فى اليم أو
بعثه على الربى .. انك لن تستطيع
أن تبتاع به شروق شمس أو حب
قلب .

اشتدت الزوابع من حولها ، وزاد عصف الريح وزئير الأنواء ..
وأحسبت كأنها تهيم فى فراغ شديد الحلكة ، معتم الدياجير .. وتلفتت حولها
فى فزع تنلمس ملانا تلوذ به ، أو مقرا تستقر فيه .. فلم تجد سوى الفراغ
والظلمة . وأخيرا رسا القارب على الشاطئ ، محدثا فرقة شديدة ، سرت
منها قشعريرة فى بدنها وخيل اليها أن الشاطئ الصخري قد حطم القارب
ومزقه أربا .

وبعد برهة وجدت نفسها وحيدة على الشاطئ وقد خيم من حولها
الظلام ، وساد السكون الا من هممة الريح وهدير الموج ، وتلفتت حولها
فلمحت على ضوء القمر الخافت شبحا يقترب منها ما عتمت أن ميزت فيه
توأم نفسها وصنو روحها ، فندت عنها صرخة خافتة وعدت اليه لترتسى بين
أحضاناه ..

وضمها صاحبها الى صدره فى رفق وحنان ، وهمس فى أذنها بصوت
يفيض رقة وولها :

- ما كنت أحسب ، يا حبيبتى ، أننا سنلتقى مرة أخرى . لقد كنت أحس بفرط الوحشة ، وكنت أسير كضال فى بيداء مقفرة مجذبة ، لا ماء فيها ولا رواء .. كنت أهتف باسمك فى كل خطوة أخطوها .. ما دعوت الله بأحر مما دعوته لكى يعيدك الى ، سلى الرمال كم مستها جبهتى مسجودا لله من أجلك .. سلى الريح ، والصخور ، والمياه ، أن كانت نعى شيئا غير اسمك وصلاتى من أجلك .

- صلاتك من أجلى .. وصلاتى من أجلك .. أجل يا حبيبى . أنا أيضا ما فعلت شيئا سوى الصلاة لكى أعود اليك ان الله ، يا حبيبى رحيم لا ينسى عباده المحبين المخلصين الأوفياء البررة .. كم جاهدت وكم كافحت .. لكى أصل الى الشاطئ .. كانت الفرقة مضمينة والبعد مريرا .. كنت أريدك .. أريد همساتك الحنون وصدرك الدافئ .. كنت أريد ضمة ذراعيك ، ومسة شفتيك .. وكنت أومن بك ، بقوة الصلة التى تشد أحننا الى الآخر .. فلم أدع اليأس يتطرق الى قلبى لحظة واحدة .. وقلت لنفسى انى عائدة اليك حتما .. وحملت الى الريح هتافك ودعائك ، فشد من أزرى وقوى من عزيمتى ، حتى استطعت فى النهاية أن أصل اليك وأرتدى بين ذراعيك .

وضمها اليه بشدة كأنما يخشى أن تفلت منه مرة أخرى .

ومضت لحظة لم يعد يسمع فيها الا أنفاس تتردد فى سكون الليل .

وأطل القمر من كبد السماء ، فبدد السحب الداكنة وغمر المكان بأشعته الفضية ، فبدأ يساحرا خلابة .. وهذأت الريح الا من نسيمات رطبة رقيقة تمس وجهيهما برفق وحنان .

وتلفتت حولها ، مأخوذة بسحر الليل الساجى والقمر الفضى ، وهتفت

به :

- هذا الشاطئ للعجيب ! ما ظننته قط بتلك الروعة وتلك السحر . ليخيل لى أن كل ما نحن فيه لا يعدو أن يكون حلما !

وأسرع هو .. فألصق شفتيه بشفتيها وقبلها فى صوت مسموع ، وأجاب

ضاحكا :

- أما زلت تصرين على أنه حلم !

- أنى ..

ولكنها لم تتم حديثها .. فقد قطعه صوت يصيح بهما فى حدة :

- هاى .. أنت .. هناك !

وتلفتا فى دهشة الى مصدر الصوت ، فأبصرا شبحا ضئيل الحجم ،
على قمة إحدى الربى المطلة على الشاطئ .. وعاد الصوت يصيح متسائلا :

- هل أبصرتما رجلا يحمل على ظهره كيسا ضخما ؟

وأجابته بالنفى .. فأخذ يهبط تجاههما فى خطوات سريعة حتى وصل
اليهما .. وبدا لهما من قرب ، حاد التقاطيع ، متوتر الأعصاب .. يضع على
عينيه منظارا مذهب الاطار . وعاد الرجل يسأل فى نفس اللهجة الحادة
الغاضبة :

- أى مكان هذا ؟

وأجابه صاحبها فى لهجة هائلة :

- جزيرة القدر .

- جزيرة القدر ؟ كفى عبثا .. لقد كنت فى طريقى الى «البنك» .. لعن
الله هذا الضباب المتراكم .. لقد أضلنى الطريق .. ولكن أين ذهب هذا الأحمق
بالكيس .. لعنة الله عليه .

ثم خفت من حدته ، وعاد يقول باللهجة ملوها التوسل :

- أرجوكما .. اذا ما رأيتماه أن تبلغاه انى أبحث عنه وأن ينتظرنى هنا
بجوار الشاطئ .

وسار الرجل فى خطوات متباطئة .. فاخفى وراء الربوة التى ظهر
منها .

وأمسك صاحبها بيدها ومنشط عليها برفق وهمس قائلا :

- والآن يا حبيبتي يجب أن نعود .

- نعود .. ولكننا لم نفعل بعد .. ما أتينا من أجله !

- لقد أخطأنا المكان .. لن نستطيع أن نعتقد قراننا هنا . فاني لا أبصر سوى قمر في قمر ، ولا أظن أن هناك مخلوقا واحدا يعيش هنا .

- أخطأنا المكان ؟ .. كيف ؟ .. اني اسمع صوت موسيقى .. انصت معي .. انها لاشك موسيقى عرسنا .

- لا .. لا أظن .. انها خدعة من تمويه الرياح .. أو هدير الأمواج .

وتأبطت ذراعه وبدأ سيرهما على الشاطئ .. وقالت وهي تحملق فيما حولها :

- هذا الضباب الكثيف قد كاد يضلتي عنك .. كما أضل الرجل عن صاحبه .. لا أدري كيف استطعت الحضور .. ولا كيف استطعت أنت .. لقد كان لقائنا معجزة . وكان من المحتمل أن يظل أحدهما بمنأى عن الآخر .. ويضيع العمر مدى .

وفجأة أمسكت بذراعه .. وشددت عليه في فزع وهمست قائلة .

- اني أرى شبحا آخر ، يقترب منا .. انه امرأة ؟

وانقضعت السحب مرة أخرى فكشف ضوء القمر عن امرأة تقترب في هدوء وقد بدت عليها عيواء الأنفاس ، وكنت ملامحها الجميلة ابلغ آيات الحزن . وسألتها في صوت مكتئب :

- ألم تبصرا زوجي ؟

وتملكتها الشفقة بالسيدة الحزينة فأجابتها مطمئنة اياها :

- أجل .. أجل .. اني أبصرته يختفي وراء تلك الرهبة . لقد سألنا عن رجل يحمل كيما ..

وهزت المرأة رأسها في أسف وقالت :

- لا .. ليس هو .. لقد رأيت ذلك الذى تصفينه .. انه ليس زوجى ..
انى مخلوقة شقية نعمة .. لئى لن أستطيع العثور عليه .

وغادرتهما السيدة فى صمتها الحزين ، مطأطئة الرأس ، محنية
الهامة ، كأنها تحمل عبئا يثقل كاهلها وينقض ظهرها .

وغاب شبح المرأة فى الظلمة .. وأحسنت هى بالحزن يسرى فى
جرائدها .. وسألت صاحبها :

- ترى أين ذهب زوجها ؟ لقد كان من المحتمل أن أفقدك كما فقدت
زوجها ، أما كان يجب علينا أن نساعدنا فى البحث عنه يجب ألا نتركها
هكذا ، انها امرأة نعمة .

- ولكن كيف ؟ كيف نبحث عنه .. ونحن لا نعرف حتى من يكون ؟ .

- يجب أن نعاونها بأى طريقة .

وأحسنت وهى تتحدث بشيء يشبه الغثيان ، وكأن هناك ما يجذبها الى
الأرض ، وأمسكت بذراعه تتحمل عليه ، ثم أسندت رأسها على صدره ،
وعادت تتحدث بصعوبة :

- ان المكان جميل .. رائع .. لم تريد أن نعود .. لم لا نمكث هنا ..
انى متعبة .. وأحس بأطرافى تجمد وتثقل .. انى أخاف الأغماء .

وأحسنت به يضمها الى صدره .. وسمعت صوته يهمس فى أذنها :

- لا بد ان تعودى يا حبيبتى ، يجب ان تمالكى ، تعالى معى الآن ..
حاولى .

- انى بخير .. ليس بى شيء .

ولكنها مع ذلك أحسنت بنفسها تنهاوى الى الرمال .. وعاد هو يهتف
بها :

- انهضى يا حبيبتى ..

وحاول أن يرفعها بين يديه .. ولكنها قاومتها قائلة :

- لا أستطيع .. ثم أنه ليس هناك داع لهذه العجلة .

وجلس بجوارها وأمسك وجهها يتحمسه برفق وأردفت هي قائلة :

- إن الرمال والموج تبعث في ذاكرتي أول لقاء .. هل تتذكره . في

الصيف الماضي على شاطئ البحر .. وقد أخذنا نسبح معا تجاه الصخرة ! ..

- أجل .. أجل .. انى أتذكره .. ولكن لا بد لنا من العودة .

- انى متعبة .. لا أستطيع .

وأحست فجأة بدمعه الساخن يمس صفحة وجهها فنظرت اليه في دهش ، وهمت بأن تسأله عما يبكيه ولكنها لمحت شبح المرأة الشقراء الحزينة يمر من بعيد ، وأحست برغبة شديدة فى اللحاق بها كأن هناك شيئا خفيا يدفعها اليها وأخذت تتحامل على نفسها محاولة النهوض قائلة لمصاحبها :

- لا بد أن أساعدها .. انها مريضة .. انها لا تعرف الى اين هي ذاهبة .. أجل .. دعنى الحق بها .

ثم أخذت تعدو تجاه المرأة ، وهو يناديها ، حتى وصلت اليها وهي تسمع صوته يتردد بين الرى ملينا بالألم والحزن .

ومست ذراع المرأة ، وقالت لها فى حنان ورفق :

- لقد عدت ورائك . انك لا تبتدين بخير .. يجب أن تستريحى حتى أبحث لك عن زوجك .

- ما دمت أنا لم أستطع العثور عليه بعد أن بحثت طويلا .. فلن تستطيعى أنت ! ..

- ولكنه لا بد أن يكون هنا ما دمت قد أتيت معه .

- انى لم آت معه . .

وتملكها الدهش .. ولم تعرف ماذا تستطيع أن تفعل للمرأة وأحسنت
بحاجتها الى معونة صاحبها وتلفتت حولها فاذا به على مقربة منها ، ولكنها
لم تستطع ان تميزه بوضوح وعادت تقول للمرأة :

- اذن فقد لا يكون هنا .. لم لا تعودين معنا .. انى أخشى ثقل المسحب
والضباب مرة أخرى .. فلا تعودين تبصرين طريقك ! .

.. وما فائدة العودة .. اذا لم أستطع العثور عليه ؟ .

.. أرجوك .. أنت مريضة ، يجب أن تعودى معنا .

... لا .. لا .. انك لاتعرفين جلية الأمر .. كم وندت لو أكون مثلك .

- مثلى انا ؟ انى لاشيء .. أنا لا أملك من حطام الدنيا .. الا هو ..

وحبه .

- وذلك هو ما أحسنتك عليه .. هل هناك فى حياتنا أئمن من الحب ..
انى لم أحس ما يعنيه زوجى بالنسبة الى حتى حدث ما حدث .. لقد كنت الليلة
أوشك أن أفر مع رجل آخر ولقد فقتته فى ذلك الضباب المخيم ، وأحسنت
بفرط الوحدة والوحشة ، والحنين الى زوجى المحبوب .. ولكنى لا أستطيع
أن أجده .

وأصابها عجب زائد من قول المرأة .

اذن فهذا هو سر المرأة الحزينة النعسة .. مسكينة .. لقد أضلها
الشیطان فأضاعت زوجها .. وفكرت برهة ثم وجهت الحديث اليها قللة :

- ياسيئتى انى أرثى لك ، يجب أن تعودى معنا سريعا فقد تهيب لك

العودة فرصة استرجاع زوجك ؟

- لا فائدة .. ما دام لم يعد لى .. فلا أظننى قد أصبحت أعنى شيئا

لديه .. لقد تبدد حبنى من قلبه .. انى استحق كل ما حدث .. لقد كنت لثانية
حمقاء .. ما حاولت قط أن احتفظ بحبه لى .

وأخفت المرأة وجهها فى راحتها الرقيقتين .. واستغرقت فى البكاء ..

وأخذت هى تهديه من روعها .. قائلة فى رقة واستعطاف :

- لا تبكى .. انه سيعود اليك .. ما دمت تحبينه .. وتؤمنين بحبه .

وأحسنت برغبة جارفة فى أن تغرس فى نفسها بذور الاخلاص وتبث
الوفاء ، وادركت ان ذلك هو الدافع الخفى الذى دفعها الى أن تتبع المرأة
التعمية .. ولكنها أحسنت ، وهى تمسك بذراعها وتحاول أن تجد كلمات
التشجيع التى تعينها بها ، ان ذلك الاحساس بالغثيان قد عاودها وبدا لها - وهى
تتلطف على معونة المرأة - كأن هناك تيارا خفيا يوشك أن يجرفها معا فينزعها
عن صاحبها .

واستطاعت ان تتمالك وترجه الحديث للمرأة قائلة :

- قولى له انك تحبينه .. قولها من قلبك .. حتى تصل الى قلبه ..
وأجزم لك انه سيمسك ويعود اليك .

وساد الصمت .. وأحسنت كأن التيار قد جرفها فعلا ولم تعد تستطيع
الميطرة على حواسها ، وتمكنتها رجفة مرت من قمة رأسها الى أخمص
قدميها واحسنت انها تنهاوى .. لا الى الأرض .. بل الى أعماق بعيدة الغور ..
لا قرار لها .. وخيل لها كأنها تسمع طرقات تدوى من بعيد ، وأخيرا
استطاعت أن تميز صوت صاحبها ينادىها فى خفوت .

وأجابته بصوت مبحوح متحشرج :

- انى آتية .. انى آتية .

ثم ساد مكنون عميق . ولم تعد تشعر بما حولها .. لقد فقدته تماما . كما
فقدت المرأة زوجها .

★ ★ ★

وعندما أفاقته وجدت رأسها تستند على صدره ووجدته يتحسس جبينها
بحنان .. ثم تلفتت حولها فلمحت وجه امرأة عجوز تبتسم لها فى رفق وتقول :
- انت الآن أحسن .. قليل من الجهد .. ونستطيع أن نعود بك الى
شاطئ النجاة .

واختفت العجوز .. وسارت هي متكئة على ذراعه حتى وصلا الى
قارب يرسو على الشاطئ .. وكان أول ما لفت نظرها ذلك الرجل العجوز ،
ذا المنظار المذهب ، وقد وقف فوق الربوة يحمل على ظهره كيسا ضخما يتقل
كامله ، ويكاد ينوء تحت حملة .

ولوحث له بيدها ، مشيرة له أن يهبط ليعود معهما في القارب وصاحت
به :

- أين صاحبك الذى كان يحمل الكيس ؟
- لم أجد .. ولكنى وجدت الكيس !
- ألا ترصد أن ترحل معنا ؟
- لابد أن أصطحب الكيس معى .
- ولكننا لا نستطيع أخذه .. أنه قد يفرق القارب ويفرقنا معه .
- لا أستطيع الرحيل بدونى .. انه حياتى .. انه أموالى التى انفقت فى
جمعها عمرى .

وكان قد وصل اليهما فى تلك اللحظة ، وقد تساقط عرقه وتلاحقت
أنفاسه تحت وطأة الكيس .. ونظرت هى اليه باسمه ، وقالت فى صوتها
الحالم :

- حياتك أفضل من الكيس .. ان على الأرض من الجمال والحب ما
يعوضك عن كل ما فيه .. انه ينقض ظهرك ويشقى حياتك .. تعالى معنا ..
وإلق به اليم ، أو بعثره على الرى أنك لن تستطيع أن تبتاع به شروق شمس ،
أو حب قلب .

ولم يتردد الرجل لحظة واحدة .. بل سار الى اليم بخطى ثابتة ، فألقى
فيه بالكيس ، وقفز الى القارب فى خفة الشباب وهو يقول لها :

- شكرا .. لقد اتحت لى فرصة النجاة .. كنت فى صباى أعيث فى
مكان جميل كهذه الجزيرة .. كنت أحب الطبيعة ، وأحب الشعر .. ولكنى

غادرتها في يوم ولم أعد اليها .. لقد شلغتنى عنها الحياة وجمع المال .. خمس وعشرون عاما .. وأنا أشبه بحمار في ساقية أدور فيها معصوب العينين لا أبصر مما حولي شيئا .

لقد أزلت الغشاوة عن عيني . انى الآن أستطيع أن أرى الكثير مما لم أبصره من قبل .. أرى الجمال والحب والحياة .

وصمت الرجل ، وفجأة لاح شبح يقبل من فوق الربوة واستطاعت أن تتبين فيه المرأة الشقراء وهي تتحرك كالهائمة الضالة .. فهتفت بها من أعماق قلبها . وسمعت المرأة نداء ، وأخذت تقترب من القارب رويدا رويدا حتى وقفت بجواره شاردة للذهن .. فصاحت بها :

- هيا .. أقسم لك أنك ستجدينه .. ما دمت تحبينه .. ان العثور عليه لا يحتاج الا لحب وإيمان .

وقفزت المرأة الى القارب .

★ ★ ★

وسار القارب في هدوء ، وأسندت رأسها الى صدره .

ولاحت أمامها بارقة مضيئة في وسط الظلمة بدت في أول الأمر كأنها فئار في وسط البحر .. ثم أخذت تحرق فيها فإذا بها مصباح كهربائى .. وتلفتت حولها فإذا بها ترقد على فراش في حجرة وقد أممك صاحبها يدها فاحتواها بين كفيه وسأله في دهشة :

- أين القارب الذى كنا به ؟

واجابها في بسمة رفيقة :

- لقد رسا بنا على شاطئه النجاة .

وحاولت ان تتقلب على جانبها فأحسست بوخز في ظهرها جعلها تتأوه . ثم أبصرت ممرضة قد انشحت بلباسها الأبيض تقبل عليها فتضع يدها على رأسها وتقول لها :

- أرجوك .. لا تتحركى .. ان الصدمة لاشك تؤلم ظهرك .. ولكن الحمى قد زالت والحمد لله .

وهزت رأسها ونظرت اليه متسائلة فى دهش :

- أية صدمة ؟ انى لا أذكر شيئا مما حدث .

- الا تذكرين ان الليلة موعدا زواجنا ؟ لقد كنا ننتزه فى عربتى فى الجزيرة قبل أن نذهب الى البيت حيث أعدوا العدة لعقد قراننا ، ولكن العربة تصادمت مع عربة أخرى فى منحنى الطريق بجوار النادى الأهلى . الحمد لله لقد زال الخطر .

- ولكنى أذكر اننا كنا فى قارب .

- لاشك أنه كان حلما .

- ولكنك كنت معى دائما فى كل لحظة من لحظات الحلم .

- أحقا كنت معك ؟ . لقد جاهدت لكى أكون معك فعلا حتى أعيدك

الى .

- انى لا أستطيع أن أتصور الحياة بدونك . انك حياتى .

وتمسكت الممرضة الى الخارج ووقفت تتحدث مع ممرضة أخرى خرجت من الحجرة المجاورة . فسألتها الأخيرة :

- كيف حال مريضتك ؟

- لقد نجت .. ان الفضل له .. فهو لم يتركها لحظة واحدة يبدو لى انه هو الذى استطاع بفرط ايمانه واخلاصه أن يعيد اليها الحياة .. وأنت كيف حال مريضتك ؟

- لقد مضت عليها بضع ساعات وهى مستغرقة فى هذيانها لا تكف عن مناداة زوجها حتى حضر أخيرا . وقد تحسنت بعد ذلك كثيرا .

- أحقا أنها كانت فى العربة الأخرى مع الرجل المليونير ؟

- من يدري ؟ قد تكون أصيبت هي وسائرة في الطريق .. ان بعض الظن اثم ، وليس هناك من شاهد الحادث حتى يستطيع أن يجزم أين كانت .

- والرجل كيف حاله ؟

- كالجن الأزرق .. ان أصابته خفيفة .. وهو يضحك في مرح ويتحدث عن الحب والجمال ، وقد وهب المستشفى بضعة آلاف من الجنيهاًت .. ويقول ان المشاة قد أزيلت عن عينيه .. وأنه يستطيع ان يرى الكثير مما لم يبصره من قبل .

★ ★ ★

سَيِّحُ فِي فَنِّهِ

خير للإنسان أن يحب يوما
ويموت بعده ، من أن يعيش دهرًا
دون أن يطرُق الحب قلبه .

الساعة التاسعة مساء .. وقد صفت العربات الفخمة صفًا طويلًا أمام
قصر المرحوم علي باشا عبد الرحيم بضاحية الزيتون .. كانت ليلة حافلة ..
والقصر الكبير قد أخذ يزخر بما فيه .. وبدأ كأنه قد بعث من العدم .. وأنيرت
أو جاءه بعد طول ظلمة .. فقد رغبت الأم العجوز في أن تختفي بـ «سنة»
خطيبة ابنها «يحيى» التي اختارتها له ، والتي كانت تفضلها على غيرها من
الفتيات .. لكمال عقلها ، ورقة خلقها .

وكان البيت أحد تلك القصور الشامخة العتيقة الواسعة الأرجاء ، الكثيرة
المراديب ، الفسيحة الحجرات ، التي يحوى كل ركن فيها آية من آيات الفن ،
ومثلا من أمثلة الغنى والثراء .

وكان صوت الموسيقى يصل خافتا إلى أذن الفتى الذي اضطجع في
عزلة عن الجمع فوق أحد المقاعد الطويلة وقد بدأ يحتسى الكأس الثاني من
«الشيري» وأخذ خياله يسبح بعيدا في ظلمات الماضي وآمال المستقبل .

وأخذ يتمطى في كسل .. عندما هبت عليه رائحة عطر نفاذة ، من ذلك
النوع الذي يخترق الأنف ، ثم يسرى منه إلى بقية الجسد فإذا بالإنسان قد
أصابته نشوة وعرفته هزة .

وتلفت حوله ليرى صاحبة العطر .. لأنه لم يشك في أنها أنثى .. لأن العطر
يكاد ينطق ليفسر عن نوع صاحبه . نعم كان يكاد يصيح : أفسحوا الطريق ..
لامرأة رفيقة كنسيم الليل .. جميلة كأرواح الشاعر ، وأحلام الفنان .
ولكنه .. لدهشته .. لم ير ما يتبع الرائحة .. لقد نفذ العطر الى نفسه ..
ولكن صاحبة العطر لم يكن لها وجود بعد .

ونهض من مقعده ، وتوجه الى أقصى الغرفة الفسيحة كأنها ملعب
كرة ، فإذا بفتاة قد تركأت بذراعها على مكتبه الذي رصت فوقه بعض الكتب .
وأخذت تقرأ في أحدها .

أخذ الفتى بمنظر الفتاة ، فقد كانت غريبة عن البيت .. غريبة عن تلك
الجماعة التي اكتظمت بهم الحجرات . وتعجب الفتى ، فهو لم يرها في خلال
يومه الا الآن .. بل لم يرها في حياته قط الا هذه اللحظة .

ومما زاد في دهشته ان الفتاة على رشاققتها وجمالها ، وصغر منها ،
كانت ترتدى من الملابس ما لم يره الفتى من قبل الا في تلك الصور الزيتية
التي تملأ جدران البيت ، والتي تمثل آباءه وأجداده من قرون مضت .

وابتسمت الفتاة ، وقد ظهرت على وجهها سيماء الهدوء والسكينة ، ولم
تكن تبدو عليها أى علامة للدهشة كما بدا على صاحبنا . وكان مظهرها مظهر
من تتجول في عقر دارها . وكأنها رأت الفتى قبل ذلك مئات المرات .

وخيل للفتى .. انها إحدى صديقات ضيوفه ، وأن بعقلها بعض الشئوذ .
ولكنه ما كاد يحقق في جسمها حتى صعق .

لقد كانت الفتاة شفافة .

لقد كان يرى كل شيء خلفها بوضوح .. كأن جسمها قد صنع من
الزجاج . فقد رأى خلال جسمها الكتب التي رصت على المكتب ، ورأى
المكتب نفسه وقد بدت تفاصيله واضحة جلية .

وسقط من يده الكأس ، وصدرت منه صرخة خافتة .

لقد سمع قبل ذلك اشاعات من أشباح تجوس خلال الدار . ولكنه لم يصدقها قط . وسخر منها أحد المخرية . وحتى لو كان قد تخيل أحيانا أن هناك أشباحا ، فإنه قد تخيل أنها تجوس خلال الأقبية الرطبة المظلمة ، والمراديب الضيقة في أسفل المنزل التي ملأتها العفونة . أما أن تظهر هذه الأشباح في حجرة المطالعة . والبيت قد غص بالزوار . والموسيقى ترسل انغامها في أرجائه . فذلك ما لم يخطر له قط على بال .

وفوق ذلك لم يكن صاحبنا يتخيل هذه الأشباح والعفاريت الا في صور بشعة لسفلكى الدماء الغلاظ الأكباد ، القساء القلوب أما أن تظهر تلك الأشباح في صورة فتاة ، فتانة فتاة في عينيها سحر ، وفي شفيتها خمر .. فذلك هو ما لم يتصوره من قبل .

وكانما سر الفتاة ارتباك الفتى ، فرنت بضحكة كموسيقى عذبة حلوة .. وأفاق الفتى لنفسه ، وامترد شجاعته ، ومساءه أن يكون موضع سخرية من الفتاة حتى ولو كانت شبحا أو عفريتة .. ووجد أن الفتاة عزلاء ، كما تترامى له ، إن تملك له ضرا ، حتى ولو كانت جذية . فهو جدير بمسحها بين أصابعه كفئات العيش ، لو حاولت أن تناله بأذى .

وأمكن للفتى بعد أن طمان نفسه وتمالك أعصابه .. أن يرد على ضحكة الفتاة بضحكة ملوؤها السخرية سائلا إياها :

- من تكون الزائرة الكريمة ؟ . وما سبب تشریفنا بهذه الزيارة .
- تقصد الزيارات ؟ . فما كانت هذه أول زيارة وإن تكون آخرها .
- سيان عندي : كانت زيارة أم زيارات .. إنما يهمنى هو أن أعرف من تكونين : وماذا تبغين ؟

- أما سؤالك عما أكون ، فهو اتهام صريح لذكالك وفطنتك ، وتأکید لضعف ذاكرتك ، لأنك لاشك قد رأيتنى مرارا في عدة صور من تلك الصور المعلقة في صالة الاستقبال ، فقد ظهرت في بعضها وحيدة ، وفي البعض الآخر مع بقية العائلة . وعلى أية حال يمكننا أن نعتبر أنفسنا وأولاد عم . أما سؤالك عما أريد : فذاك سؤال في موضعه ، والواقع أنى جئت لأحذرك .

وسأل الفتى فى دهشة :

- تحذرينى ؟ أنا . وممن تحذرينى ؟

- من الفتاة التى ستتزوجها .. اتى أود أن أنصحك ألا تتزوجها وأصبر على نصيحتى .

- ولكن ما السبب والحب بيننا متبادل والفتاة جميلة الخلق والخلق ، ولا عيب بها ، الا اذا كنت تودين الوقعة بيننا ، وتنوين افتراء الأكاذيب واختلاق الأراجيف . وعلى أية حال قولى فيها ما شئت ، فلن يضيرها ذلك شيئاً ، لأنى أحبها وسألتزوجها بالرغم من كل شيء .

فضحكت الفتاة ضحكة ناعمة ثم أجابت :

- لا أكاذيب هنالك ، ولا أراجيف . لا تكن أبله . اتى أحذرك من الزواج بالفتاة . لا لشيء الا لأنك لا تحبها .
ولم يتمالك نفسه من القهقهة فى سخرية .

' هذه الفتاة الصغيرة .. بل هذا الشبح الزجاجى العتيق .. تنبهه عن دخائل قلبه كأنها تعرفه أكثر مما يعرفه .. هذه الفتاة تدعى أنها تعرف اذا كان يحب أو لا يحب أكثر مما يعرف هو عن نفسه .

- خير لك يابنية أن تكفى نفسك مشقة التدخل فى شئون الغير .. وأن تضيعى وقتك فى شيء أفضل من التنبؤ بما اذا ما كنت أحب أو لا أحب .
ونظرت الفتاة اليه نظرة شملتة من أخمص قدميه الى أم رأسه وقالت بلهجة من ينصح طفلاً غريراً بالكف عن لعبة ضارة :

- هذه الفتاة الباردة التافهة .. ماذا بحبيبك فيها ؟ هذه الفتاة الشبيهة بالتماتيل الجبس التى يصنعها مثال مبتدئ .

وبدأ الغضب يلوح على وجه الفتى .. فحاول تهدئة نفسه باشغال سيجارة .. وحاول أن يظهر للفتاة قلة اكترائه بأحاديثها :

- هل تسمحين لى بالتدخين ؟

- لا شك فى أننى أسمح .. فأننى أحب التدخين .

وصمتت برهة ثم أردفت :

- كم كنت أتمنى أن يكون التدخين مباحا للسيدات فى عصرنا ، كما هو مباح فى عصركم .. انى ما زلت أنكر كيف حرمت من الطعام يوما بأكمله عقابا لى على محاولتى التدخين وأنا فى الثامنة من عمري .. ولكننا خرجنا عن حديثنا الأصلي .. لعلك مقتنع الآن بأن الخطأ كل الخطأ فى زواجك بتلك الفتاة الجوفاء ، الخالية من كل شعور ، العاطلة من كل احساس .. انى لأتخيل صاحبتك وقد تسالت بها الى ركن بالحديقة مائة ، الا من انفاس الهوى الصادرة من الأوراق الرقيقة الخضراء يحركها النسيم الهادىء ، فكأن كل منها قلب صعب مثله : وضوء القمر قد تحرر من وراء الغيم .

وأنت قد ملأ الهوى قلبك وترنحت من العشق أعطافك وبدأت تطارحها للغرام . وهى .. وهى .. آه منها .

ووجد الفتى نفسه قد جنت الى حديث الفتاة ، وشعر كأنه فعلا فى ذلك الموقف الشاعرى الجميل .. وإذا به يسألها دون قصد :

- هى ؟ .. ما لها ؟

- هى أمامك كقطعة من اللحم البارد الذى تسمونه «البلوبيف» لا يحرك قلبها ساكنة ، بل أغلب ظنى أنها لا تحمل فى صدرها قلبا البتة ، وقد تطلعت اليك بوجهها اللاشعورى ، فإذا بقصورك الشم قد انهارت من عليائها .. وإذا بالموقف قد فقد سحره ، وإذا بك تهبط من السماء الزرقاء الجميلة لتصدم بالأرض الصخرية السوداء ، فتتحطم لمانيك ، وتذهب أحلامك أدراج الرياح .

وشعر الفتى كأنما قد سقط فعلا .. وأحس أنه أن الفتاة تتلاعب به مثل هذا التلاعب فصاح بها غاضبا :

- لقد أضعت وقتى فى الاستماع الى ترهاتك .. فأرجو أن تكفى عن زيارتى بعد الآن ، فنصيحتك لن تجد معنى نفعا وأفضل لك أن تكفى نفسك مؤونة تحذيرى .

وهزت الفتاة رأسها آسفة وقالت :

- أنت وشأنك ، ولكن ثق أنني لن أتركك تتردى فى هاوية زواج بلا حب .. أنت أبله .. لأنك لم تلق طعم الحب .. هذا الذى تدعيه حبا .. لايمت للحب بصلة .

واختفت من أمامه فجأة كما ظهرت .. تاركة له عبق اريجها بملأ خياشيمه .

وغادر الفتى الغرفة الى حيث القوم قد جلسوا للمسامرة والرقص . وفى العشاء جلس الفتى فى مكانه ساهما واجما .. ورأسه ملىء بالتفكير فى هذا الشبح الرقيق الجميل .. وفيما قالت له الفتاة من نصيح وتحذير .. وشعر أنه فى حاجة الى أن يفضى الى امرئ ما بدخيلة قلبه .. ويقص عليه القصة من اولها الى آخرها ، ولكنه خشى أن يسخر منه القوم ويظنونه قد ثمل .. وظل يعترض فى مخيلته الأشخاص الذين يثق بهم ، فلم يجد هناك من يفضى اليه بالأمر خيرا من أمه .

وانتهى العشاء .. وصاحبنا مازال فى وجومه وقلقه ، وأخذ يتذكر ما قالته له الفتاة حرفا حرفا .. وعندما تذكر تشبيهها خطيبته «بالبلوبف» لم يتمالك نفسه من الضحك .

ونظرت اليه خطيبته فى دهشة وقالت :

- هذه أول ضحكة تضحكها الليلة .. قلعل ما طاف برأسك ببقرى على مرحك بقية الليلة .. فلا تعود الى وجومك السابق .

وفجأة نهض الفتى وتوجه الى الفتاة وجذبها من ذراعها ، وقال للجميع :

- عن انكم .. سامر لها حديثا بهما بعض الشيء .

ودهمشت الفتاة ، كما دهمش القوم ، ولكن الفتى لم يأبه لهم .. بل اندفع الى الحديقة كمن انتوى أمر جلا .. .

وفى ركن تشابكت فيه الأغصان .. ركن أشبه بذلك الركن الذى وصفه
الشبح فى حديثه .. وقف الاثنان وقد غمرهما ضوء القمر وتطبع جو المكان
بالمحور والفتنة .. ونظر الفتى فى وجه صاحبتة وقد تملكه الحب .. وسرت
فى جسمه النضوة .. ثم قال هامسا :

— مارأيك فى أن نهرب سويا فى عربتى الى الاسكندرية حيث يتم
زواجنا ، ونرشف معا كؤوس الحب فى مكان يملؤه الشمر والخيال .
ومد يده فلف الفتاة وجذبها نحو صدره وقبلها فى شوق .
ولكن الفتاة دفعتة بيديها ، وتخلصت من ذراعيه ، وردت عليه
غاضبة :

— أى جنون قد أصابك .. وأى سخافات تلك التى تحدثنى عنها .. أى
هرب هذا الذى تريده .. وماذا يقول الناس عنا .. بل ماذا يقول أبى وأنت أدرى
الناس .. أى نوع من الرجال هو .. ثم تخيل أن العربية تقف منا فى الطريق ..
فأى مشكلة تكون قد ألقينا بأنفسنا فيها .. وهل هذا هو الأمر الهام الذى جذبتنى
من وسط القوم وتركتهم يتحدثون عنا فى سخرية .

ووجد الفتى أن السحر قد ذهب ، والفتنة قد زالت .. وخبا لهيب قلبه ،
ونظر الى صاحبتة فإذا هى جافة باردة .

وفجأة تذكر «البلويف» .. وشعر لشدة الحنق على الفتاة الزجاجية
الشفافة .. وأحس كأنه يرمى بأخر سهم فى جعبته ، فبدأ يرجو صاحبتة :

— اذا كنت تعتقدين ان الفرار جنون .. فدعينا منه .. ولكن هل لديك
مانع فى التعجيل بالزواج .. وليكن فى الأسبوع القادم مثلا ؟ . أرجوك ألا
ترفضى .

— لا أدرى ماذا أصابك الليلة ؟ .. من المستحيل أن يتم الزواج فى
الأسبوع القادم .. ولا حتى فى الشهر القادم .. فأنت تعلم أن الملابس .. و
«الجهاز» لن يتم صنعهما الا بعد شهرين أو أكثر .. ولن يقبل أبى التعجيل
بالزواج قط قبل أن تتم هذه الأشياء .. خصوصا أنه لا سبب للتعجيل .

وعاد الاثنان من الحديقة وافترقا وسط الجموع الراقصة .
وشعر الفتى بميل يدفعه الى الذهاب الى حجرة المكتبة مرة أخرى ،
وجلس في نفس المقعد ، وتمنى لو ظهر الشبح الجميل ثانية .

ولم تمض لحظة .. حتى هبت عليه رائحة العطر اياه .. واذا بالفتاة
الشفافة أمامه وقد بدت آية في الرشاقة والجمال .. واستندت بعرفها الى
المنضدة ثم ضحكت في لين .. وقالت :

لقد فشلت التجربة .. وكنت أعلم سلفا انها فاشلة .. يا صاحبي ان الحياة
هي الحب .. ولا شيء غير ذلك .. فان فقدت الحب فانك قد فقدت الحياة ..
واذا عشت بغير حب فكأنك لم تعيش .. وخير للانسان أن يحب يوما ويموت
بعده ، من أن يعيش دهرًا دون أن يطرق الحب قلبه .. أنا أدري بالحب منك ..
فلقد معنى الحب وأنا في الخامسة عشرة وكان يد ساهر قد مستنى .. واذا
بحياتي قد انقلبت من قطعة فحم سوداء .. الى جمرة حمراء ملتهبة .. في
جوفها ضوء وحولها ضوء .. وكان الذي احببت لم يزد على أن يكون كاتبًا
بسيطًا في دائرة أبي .. ولكنى كنت اذ أراه كأني قد ملكت الدنيا والآخرة
وفررت معه ولكنهم أمسكونى ووضعونى حبيسة في الدار .. وعوملت ، كما
يعامل أشد الناس اجراما .. ثم انتقوا لى زوجا .. ظنا منهم أن ذلك سيذهب
عنى ما ظنوه طيشًا ونزقا .. وفى ليلة الزفاف كنت أشعر كأني أرف الى
القبر .. لقد كنت حزينة يائسة .. كنت أتمنى الموت ولكنى لا أستطيعه ، فقد
كنت أعامل كأنتى أسيرة حرب ، ولكنى أخيرا استطعت أن أخلو لنفسى بضع
لحظات تناولت فيها سما .. وفررت من الزفاف ومن الحياة .

وصمتت لحظة ، ثم أردفت فى صوت ملؤه الاحتقار والازدراء :
- أنت تتزوج هذه الفتاة .. يا للسخافة .. اياك أن تقدم على ذلك
الزواج .. اياك أن تلقى بنفسك الى التهلكة .. مع الفتاة التافهة المخيفة .
وقاطعها الفتى غاضبا :

كفى عن هذا السب .. فسأزوجها بالرغم من كل هذا .. ولن تزيدينى
امانتك لها لا تعلقا بها .

ولم تأبه الفتاة لمقاطعته :

- أنت الفتى الأمثل .. الفتى الجميل النبيل .. تتزوج هذه الأضحوكة ..
كم يسوؤنى انذا لم نلتق فى عصر واحد .. كم كنت أود لو خلقنا سويا .. بدلاً
من أن يكون بين أحدهما والآخر هذه الحقة الطويلة من الزمن .. كم كنت أتمنى
أن نلتقى جسدا بجسد لا جسدا بروح .. أو شبح .

وشعر الفتى ان الفتاة تقترب منه .. ثم أحس شيئا خفيفا قد مس شفتيه ..
كأنه جناح فراش .. ثم اختفت الفتاة .

وانتهى القوم من سهرتهم وآب كل منهم الى فراشه ، ودخل الفتى
مضجعه .. وشبح الفتاة لا يفارق ذاكرته .. ودخل اليه أنه قد يراها فى
مضجعه .. ولكنه لم ير أحدا .

وما كاد الفتى يغمض عينيه حتى سمع على الباب طرقا خفيفا .. فقفز
من فراشه وفتح الباب وهو لا يشك لحظة فى أن الطارق هو الفتاة العاشقة ..
الساخرة الفاتنة .

ولكن الطارق لم يكن سوى خطيبته تسأله اذا كان لديه قرص من
الاسيرين ، تذهب به عن رأسها صداعا أصابها .

وأجابها الفتى بالإيجاب .. ولكنه وجد وجهها قد تغير فجأة وكساه
احمرار الغضب .. فذهل وسألها عما بها فأجابته صارخة .

- تسألنى عما بى .. وفى فراشك امرأة .. هل رأى أحد أوفج منك
مخلوقا .. انى لا أكاد أصدق عينى .

وكانت الفتاة تتكلم وهى تهتز من الغضب .. وصعق الفتى وأجاب فى
دهشة :

- امرأة .. ماذا تعنين ؟

وتلفت حوله فاذا بالفتاة الجميلة الشفافة قد استلقت فى فراشه فى نوم
عميق هادئ ، وبدت كأنها عروس فى ليلة زفافها . وتعجب الفتى ، فانه عندما
قام من فراشه ليفتح الباب كان فراشه خاليا .

وأدرك الفتى ان الفتاة العابثة الماجنة قد أوقعته في مشكلة كبرى .

وتلفت الى خطيبته وهو يكاد يجن وقال :

- انها ليست امرأة ؟ .. انها ليست بحقيقة ؟ هي لا تزيد عن أن تكون
شبحا .. تسمى وأمسكها بيدك ان كنت تستطيعين انها لا شيء ..
ولكن الفتاة كان قد غلبها البكاء .. فنظرت اليه نظرة بغض وبأس وقالت
ساخرة :

- وماذا يمكنك أن تعتذر به غير ذلك .. نعم .. انها شبح .

وعاد الفتى الى الفراش وهجم على الفتاة المستلقية به .. يود لو يمزقها
اربا .. ولكنها كانت قد اختفت .

وعلم الفتى ان من المحال أن ينتظر من القوم أن يصدقوا الحقيقة .
وفي الصباح تملل من البيت قبل ان تهب عليه الزوبعة .. وقبل أن
يغادر الدار طرق أنه صوت بكاء خطيبته وبكاء أمه .

★ ★ ★

وغاب الفتى عن بيته ثلاثة شهور .. علم خلالها ان خطيبته قد
تزوجت .. وتوصلت له أمه أن يعود الى البيت فعاد .

ومرت الأيام ومحا الزمن القصة شيئا فشيئا .. فساها القوم .. ولكن
الفتى لم ينس قط شبح الفتاة الساخرة ..

وفي يوم من الأيام زارهم أحد أقاربهم البعيدين ، وكانت معه ابنته ،
ورجا من الأم أن تنزل فتاته عندها حتى تتم دراستها في أحد معاهد الفنون ،
فأنزلتها الأم على الرحب والسعة .

ولم يمض أمبوعان على مجيء الفتاة حتى كان الزواج قد تم بينها وبين
صاحبها .. فقد جرفه حبها فلم يستطع عليها صبرا .. لقد قلب حياته من فحمة
الى جمرة كما قال الشبح .

وأعجب ما فى الأمر ان الفتاة كانت كثيرة الميل الى ارتداء ذلك النوع من الملابس الذى كانت ترتديه الفتيات منذ قرون مضت .. ذلك النوع الذى كان الشبح يرتديه .

وما نظر اليها الفتى قط الا وتعجب من شدة شبهها بالفتاة الشفافة .. حتى أنه كان كثيرا ما يحتضنها لا لشيء الا ليتأكد من أنها حقيقة .

وفى ذات يوم كان والد الفتاة يشاهد الصور الزيتية المعلقة فى صالة الاستقبال ، فاستوقفت نظره احدى الصور .. ثم نادى الفتى وقال له ضاحكا وهو يشير الى الصورة :

- هذه هى صورة جدتى .. الا ترى أنها شديدة الشبه بزوجتك ؟

وحملق الفتى فى الصورة فقد كانت لنفس الشبح الجميل الذى زاره مرات عديدة والذي منعه من الزواج من خطيبته الأولى ..



عُزْرَةُ

بدأ لى أنها قد عازمت على
شئ .. فقد أشارت الى بالاقتراب
منها وقالت فى صوت ملؤه الثقة
والحزم : اياك أن تعدل عن البناء
وأذكر جيدا أننا عندما تلتقى فى
الآخرة سأسألك عن كل ما فعلت .

حدثنى صاحبنى قال :

كان ذلك على ما أنكر فى سنة ١٩٣٦ .. وكنت أقطن حينذاك فى إحدى
الضواحي .. وكنت أهوى التصوير .. وخرجت ذات يوم لالتقط بعض
الصور .. فسافقتنى قنماى الى جهة نائية على شاطئ النهر ، وجدت بها
بضعة رجال يحفرون فى بقعة من الأرض قد خططت كان هناك شروعا فى
اقامة بناء عليها .. ووجدت كهلا قد انتحى ناحية من المكان جلس على حجر
وهو يرقب الرجال الذين أخذت معاولهم فى الارتفاع والهبوط .

ولقيت التحية .. فألقى الرجال معاولهم وربوا بأحسن منها .. ولكن
الكهل لم يجب بكلمة .. بل لم يبد عليه انه قد أحس وجودى .. وأعجب من
ذاك أننى أبصرت شفثيه تغلقان وتفتحان وسمعت منه همسا خفيفا .

وعلمت من أحد الرجال أن الكهل هو صاحب قطعة الأرض التي يحفرون فيها لماسا ليبت .. وأنه دائم التحدث الى نفسه وأن حديثه الى نفسه يشغله كثيرا عن الالتفات الى غيره . وأنه يقضى يومه جالسا على الحجر يرفقهم ، وقد شرد ذهنه وأخذ يتمتم لنفسه بين حين وآخر بكلمات غير مفهومة .

ونظرت الى الرجل فوجدته أقرب ما يكون الى أولئك الذين تراهم يحملون المجامر ألام الجنائزات .. بتلك البذلة الحائلة للون ، البالية النسيج .. التي ضمت في حناياها جسدا ضامرا ذائبا .. من ذلك النوع الذي قيل فيه ماو توكأت عليه لانهتمه أما طربوشه فقد انزلق من على رأسه وارتكز على أذنيه .. اذ لم يعترف برأسه كقاعدة فجاوزها الى أقرب مستقر .. وبدت عيناه غائرتين ذابلتين استبدل فيهما بالبياض صفرة مشوبة بحمرة .. وتهلل شاربته الأسيب فغطى تجاعيد فمه .

وعدت الى الدار وكنت لتسى الرجل حتى حملتني قدامى مرة أخرى بعد بضعة أيام الى نفس المكان ، فوجدت الرجال قد بدأوا في البناء .. وبحثت عن الرجل في الموضع الذي رأيته فيه في المرة السابقة ، فلم أجده .. فسمعت رجلى شطر الشاطئ ووقفت أرقب النهر وقد انعكست عليه أشعة الشمس فجدا منه بريق ذهبي عجيب .. وأغرقتني للوحدة والمكون باطلالة التأمل .. حتى سمعت فجأة صوتا يتحدث .. فأخذت من الصوت اذ كنت أظن أنني وحيد في ذلك المكان وتلفت يمنة ويسرة ، فلذا بى ألمح الرجل الكهل وقد انكأ بظهره على شجرة ضخمة أخفت جسده الضامر عن عيني .. ومبج هو الآخر ببصره في النهر وبدأ يحدث نفسه كما كان يفعل في المرة السابقة .. ولكن صوته في هذه المرة كان جليا واضحا ، وكان يبدو كأنه قد اشتبك في جدال .. واستطعت أن أميز صوته بسهولة وهو يقول في شيء من الحدة :

- واكنشى قلت لك انى لايمكننى الاستمرار فى هذا العمل المضنى !
وران المسكون برهة كأن هناك شخصا خفيا يحاوره .. ثم سمعته يقول :
- أجل .. ولكن استمعى الى .

ثم خافت الرجل من صوته حتى لم أعد أسمعه ، وبدأ لى من حركاته أنه يحاول اقتاع من لا تريد أن تقتنع .. وشعرت بغيظ شديد .. ووجدتني أهم بأن أصبح بالرجل أن يرفع صوته لولا أنني رأيته وقد شاع في وجهه الغضب وأبصرته يدفع رقبة المعرورقة الى الأمام ويقول حانقا :

- لن استمع اليك بعد الآن .. كفاني ما مضى .

ومضت فترة صمت قصيرة .. ورأيت غضب الرجل ينقش فجأة ، وأبصرت رأسه يسقط على صدره كأنه طفل نادم مستغفر ثم سمعته يغمغم بصوت ملؤه الرفق والحنان :

- آسف يا عزيزتي .. سأفعل كل ما تريد .

وهنا كان قد بلغ بي حب الاستطلاع أشده .. فعزمت على أن استطلع من الرجل أية وسيلة .. وأخذت أقرب منه ثم حبيته في أدب ورقة .

وفزع الرجل في بادئ الأمر إذ لم يتوقع أن يبصر أحدا بجواره ، ولكنني كعموت وجهي كل ما استطعت من مظاهر المودة والصدقة حتى أبعدت العلمانية في نفسه وقلت له مترفقا :

- هل يسمح سيدي أن التقط له صورة وهو يتأمل النهر ؟

ولم أكن أقصد بسؤالى أن أصوره فعلا ، لأننى - أولا - لم أتوقع من رجل في مثل هذا الشنوذ أن يقبل التصوير بسهولة .. وثانيا - لأنه لم يكن به من المزاي ما يجعلنى أنلهف على تصويره .. ولكننى أردت بسؤالى أن أجعل لى منفذا الى نفس الرجل حتى أستطيع استدراجه للحديث .

ولشدة دهشى رأيت الرجل - بعد أن تردد برهة قصيرة ، يتنسم فى سرور ، ثم أخذ يتحسس رباط رقبة ويصالح طربوشه فيثبتته على إحدى أذنيه ، ويمر بأصابعه على شاربته المتهدل ، ثم يشد سترته الى أسفل ، ويقف ورقة المتأهب للتصوير قائلا أيعجبك هذا ؟

-- جدا ..

ومرغان ما التقطت الصورة ، ثم أقيلت على الرجل أجانبيه أطراف الحديث ، ولم تكن هناك مشقة فى استدراج الرجل للحديث .. بل على النقيض .. لقد بدا لى أن الرجل قد اختزن فى صدره أحاديث أعوام ، وأن الفرصة قد منحت له بمستمع طيب ليفرغ له كل ما فى جعبته .

وعلمت منه أنه كان موظفا بوزارة الأوقاف .. وأنه قضى حياته قانعا بوظيفته المتواضعة بين أكداس الملفات ، وأنه لم يطمع قط فى أكثر منها .. فقد كان مرتبها الضئيل يهدىء له الحياة الهادئة البسيطة التى تعود أن يحباها فى ثقته المتواضعة بحى البغالة .

ولكن امرأته - كما بدا لى من حديثه - لم تكن مثله من ذلك النوع القانع الراضى ، بل كان بنفسها طموح ، وبروحها لهفة على حياة أفضل ، وعلى الخروج من تلك الشقة الرطبة المظلمة فى هذا الحى الخامل .

وأخيرا منحت لها الفرصة التى تستطيع بها تحقيق أمنيتها وارضاء نفسها الطموح .. وبدا لها شعاع من نور يضيء حياتها القائمة ، عندما علمت أن قريبا لها قد توفى فأورثها قطعة أرض فى إحدى الضواحي .

أحسّت المرأة وقتذاك أن آمالها قد هبطت عن محيط الأوهام والأحلام .. وأنها قد باتت فى عداد الرغبات التى لا يصعب تحقيقها .

منذ ذلك اليوم صممت فى نفسها على أن توفر كل دائق يمكنها ادخاره حتى تستطيع فى النهاية أن تجمع مبلغا تشيد به بيتا على قطعة الأرض التى ورثتها .

ووصف لى الرجل تلك السنين الطويلة التى مرت به بعد ذلك ، ومبلغ ما كان يصيبه من ضيق وتبرم من ذلك الاقتصاد الذى أمعنت فيه المرأة ما وكيف كانت تمر بهما الأسابيع ، فلا يذوقون إلا الجبن ، أو الفول ، كى تستطيع أن تجمع القروش من هنا ومن هناك .. وكيف حرمت عليه الذهاب الى المقهى الذى تعود أن يقضى فيه أوقات فراغه ، حتى تدخر للتدريهمات التى يصرفها هناك .. وتكر لى كيف قاطعت صاحباتها حتى لا تظهر أمامهن بتلك الثياب الباهتة البالية التى لم تحاول أن تجدها منذ أن بدأت التوفير .

ثم رأيتَه يدفع يده فى جيبه ويخرج من محفظته الجلد صورة صغيرة
قدمها الى قائلا :

- هاك صورتها .

وتأملت الصورة فوجدتها لامرأة فى منتصف العمر ، متوسطة الحال ..
انتشحت بشال أسود من الحرير ، ولم يكن بها كثير من فتنة أو أنوثة .. ولكن
كان يبدو عليها الكثير من حدة الذكاء ، وقوة العزيمة ، وأعدت الصورة الى
الرجل وبعد برهة عاود حديثه قائلا :

- ولم يطل بنا الأمر كثيرا .. فقد استطعنا بعد بضع سنوات أن نجمع
مبلغا من المال يكفى لأن نبدأ البناء على أن ندفع الباقي على عدة سنين .
وعثرنا أخيرا على المقاول الذى قبل أن يقوم بعملية البناء وتم بيننا
الاتفاق .

و ذات يوم ذهبنا فى صحبة الرجل لتريه الأرض ، وأصرت هى على
الحضور معنا رغم ذلك التوعك الذى أصابها نتيجة برد خفيف ، وعرضت
عليها أن تؤجر عربة تحملنا من محطة السكة الحديد الى قطعة الأرض ولكنها
نظرت الى نظرتها الى مجنون وأصرت على أن نسير على الأقدام .

وعندما عدنا الى البيت .. كان التوعك الذى بها قد اشتد وانقلب ذلك
البرد الخفيف فى يوم وليلة الى التهاب رئوى . ولا أطيل عليك الحديث فقد
ماتت بعد بضعة أيام .

وصمت الرجل برهة ثم أردف هامسا فى اهتمام :

- لقد كانت تقاوم الموت مقاومة شديدة لأنها لم تكن تريد أن تموت ،
وظلت فى نضالها حتى لفظت آخر أنفاسها . وكنت أسمعها تردد من حين
لآخر : «يا الهى .. اننى أريد البقاء» . ثم رأيتها تصمت فجأة ويبدو فى عينيها
بريق عجيب .

وخيل الى انها قد أدركت وقتئذ أن لا فائدة من الإصرار على البقاء ،
وأنها أحسست أن الله قد اختارها بجوارحه ، وبدأ لى أنها قد عزمّت على شيء ..

فقد أشارت الى بالاقتراب منها وقالت فى صوت ملوہ الثقة والحزم : اباك أن
تعدل عن البناء ، وأذكر جيدا أننا عندما نلتقى فى الآخرة سنسألك عن كل ما
فعلت .

وصمت الرجل ، ثم رأيت يربت على ساقي برفق ويرفع حاجبيه ويهز
رأسه هزات خفيفة كأن فيه شيئا يربكه ، ويقول منعجبا :

— ولكن الشيء الذى لم تذكره لى وقتئذ ، هو أنها سترافقنى طيلة عملية
البناء !

ونظرت الى الرجل فى دهشة ، ولم أدر بالضبط ما يقصد بقوله .. ترى
هل دفن المرأة فى قطعة الأرض .. لم هو يقصد أنها ترافقه بروحها ؟
واستمر الرجل فى حديثه قائلا :

— فى كل دقيقة .. بل فى كل ثانية .. أجدها بجوارى لانفارقنى لحظة
ولحظة .. حتى الآن أراها قد وقفت خلفنا تنصت لحديثنا .

وودت لو أدركت رأسى بسرعة الى الخلف لأؤكد من أنه ليس هناك من
يقف وراءنا .. لكنى كنت أحس بشيء من الخوف جعلنى لا أحول بصرى
عن الرجل الذى استطرده يقول :

— انا أعرف فيم تفكر .. فلا مراة فى انك تتهمنى بالجنون ، أو تظننى
أقوم برؤية الأشباح .

— أبدا .. أبدا .. كل ما فى الأمر أن لديك قوة تخيل عجيبة !

— قوة تخيل ؟ موظف يقضى أربعين سنة فى ظلمات وزارة الأوقاف
تكون لديه قوة تخيل ؟ لا .. لا ياسيدى أنى أراها تماما كما كنت أراها فى
الدار ، وأخاطبها وتخاطبنى .

لقد ضقت ذرعا بالبناء .. حتى لقد فقدت أعصابى منذ لحظات عندما
انتابتنى نوبة من الغضب ، فأنبأتها أنى لن أستمر فى هذه العملية المرهقة ،
ولنى قانع بحى البغالة ، ولكنى رأيتها تبكى .. فندمت على ما فرط منى ،
واعترفت لها عن حماقتى .

والثفت خلفه قائلا :

- لا أظنك غاضبة على الآن يا حبيبتي ؟

وهنا أحسست أنى لم أعد أحتمل .. فقد شعلنى خوف شديد من الرجل المعتوه وامراته الموهومة .

وسادت بيننا فترة صمت كنت خلالها أحدى البصر فيما حولى .. وأنا لا أكاد أصدق ما أسمع .

وغادرت الرجل دون ان الثفت خلفى ، فقد كان بى خوف شديد .

وعدت الى الدار ولم أحاول بعد ذلك أن أطرق المكان أو أقابل الرجل .

والى هنا انتهت قصة الرجل .. أو على الأصح كانت تنتهى .. فقد بقى منها جزء قصير .. يتعلق بالصورة التى التقطتها له . فعندما انتهيت من تحميلض (الفيلم) وطبعه .. رأيت شيئا عجيبا .

ان الرجل لم يكن وحيدا فى الصورة ، فقد كان بجواره امرأة فى منتصف العمر ، متوسطة الحال ، قد اتشحت بشال من الحرير الأسود ، ولم يكن بالمرأة كثير من فتنة أو أنوثة ، ولكن كان يبدو عليها الكثير من حدة الذكاء وقوة المزيمة !

★ ★ ★

سُجُنَةٌ كَبِيرَةٌ

ولم أشك أن الدواء الذى كتبه
الطبيب لم يكن الا مجرد (سد خائى)
ومع ذلك فقد انطلقت لاحضاره ،
باحثا عنه فى الصيدليات التى
وجدتها مفتوحة وقتذاك ، ولكنى لم
أجد له أثرا .

سيدى العزيز نرددت كثيرا ، قبل أن أكتب اليك . أولا لأنك لاتعرفنى ،
وثانيا لأنى لا أستطيع أن أحدد بالضبط مطلبى منك ، ورجائى من الكتابة
اليك ، لأننى لست فى حاجة الى شيء .. حتى هذا العزاء الذى تعودت أن
تهبه لقرائك المحزونين .. لست أرائى فى حاجة اليه ، فقد انصرم العمر ،
فشفت الأيام قرحى وبرأت جرحى .. اللهم الا أثرا لا أظنه بزائل حتى أزول
أنا وتزول الحياة .

ولكن شيئا واحدا هو الذى اقلهف عليه .. وهو تفسير لأمر أعيانى
تفسيره .. تفسير عملى لا يتعارض مع اعتقاداتنا فى هذه الحياة .. ولا يجعلها
تتطاير من رؤوسنا فتذهب مع الريح .. وتتركنا حائرين بين الشك واليقين ..
تفسير يقنع كهلا مثلى قد اشرف على الهزيع الأخير من عمره ، ولم تعد لديه
القدرة على تعلم طرق جديدة للتفكير .. هل فهمت ياسيدى ؟

لنعد القهقري إلى أيام خلعت وزمن ولى .. عندما كنت فى مقتبل العمر
وفى أول عهد بالزواج .. أن مجرد الذكرى تبعث فى رأسى نشوة ، وفى
جسمى هزة كأنها أغنية تطوف بأننى فيخفق لها القلب ، أو شذى عطر ينفذ
الى أنفى فيهبو له القواد .. عندما أنجبنا طفلتنا الأولى .. نادية .. وعندما
ظننا أن أختا سيتبعها أو أختا .. ولكن السنة مرت تلو السنة دون أن نرزق
سواها ، ويخيل الى أن ذلك قد دفعنا الى الشغف بالطفلة وتخليها الى حد
«الانلاف» .. أو هذا على الأقل ما يتهم به أبوان ملأتهما اللهفة على ابنة
وحيدة .. ولكنى لم أك أفهم قط معنى أن «يتلف» الطفل أو كيف «يتلف» ، لأننى
من نوع مرهف الحس .. لا أعتقد أن تلف الطفل يمكن أن يتأتى الا بضربة
أو نهره أو أيلام نفسه أو تحطيم روحه أو حرمانه ، أو أرهاقه .. أما بحبه ،
أو الاسراف فى حبه .. فلا أظن .. بل لئننى لا أفهم معنى أن يقال «اسراف
فى الحب» .. بينما الحب لا يمكن أن يكون الا اسرافا .. والا ما كان حبا .

اننا فلما أحبيناهما أكثر مما نحب أى شيء آخر فى الحياة .. أكثر من
نفسنا .. ولما أحاول أن أصفها لك .. فلا أظننى أستطيع أن أرسم فى ذهنك
صورة صادقة عن عذوبتها وحلاوتها .. ولكن ثقب يأسدى بأنها كانت مخلوقا
محبوبا ، ببراعتها ، وطهارتها وبتفكيرها الساذج ، ومطالبها القافية ..
بضحكتها وركائها .. ومرحها ولهوها .. بمينها الخضراوين ، وشعرها
الأصفر المتلف فى حلقات ذهبية .. بأنفها القصير الدقيق ، وشفتيها
الرفيقتين .. كل شيء فيها كان جميلا محببا .

وأضحت الطفلة محور حياتنا .. وكنت إذ ذاك موظفا فى السكة
الحديدية فى إحدى بلدان الوجه البحرى ، وكنا نطمن بيتا صغيرا ذا حديقة غناء
فياحة . وكانت حياتنا هائلة ناعمة . فلا أكاد أنتهى من العمل حتى أعود الى
الدار .. وبى شوق الى كل ما فيها .. ويمر بنا الوقت وقد غمر ثلاثتنا فيض
من السعادة .. نلهو بالطفلة وتلهو بنا .. أقص عليها قصصا عن «القبيل أبو
زلمة» وعن «أبو طرطور» .. وتصيح هى لأخطائى أن أخطأت .. وتذكرنى
أن نسيت .. وتستفسر عن أشياء لم تفهمها بعد .. ثم تمتلئى كتنفى .. وتذهب

الى اللعب فى الحديقة .. أبة حياة هائلة كنت أحيها وقتذاك ! ما تكرت سحابة واحدة خيمت فى سماءنا .. ولا شاب صفونا كدر ولا شائبة .

كنت وقتذاك موظفا صغيرا .. ولكن مرتبى كان يفى بكل حاجتنا .. بل كان يزيد حتى يفى بالكثير من الكماليات . ففى يوم الميلاد الرابع للطفلة أقبلت على الدار وفى يدي لفافة كبيرة .. وكانت قد تعودت أن تلقانى بلهفة وفرح .. وبسؤال يقفز على شفتيها مجبت لى أبه ؟ . ولذا فقد كنت دائما أحضر شيئا .. أى شيء .. قطعة من «الشيكولاته» «بان انجليزى» .. «مصاصة» .. أى شيء كان يرضيها .. ما دمت قد تذكرتها وأحضرتها .. وفى ذلك اليوم أردت أن أفاجئها مفاجأة سارة .. فابتعت لها «عروسة» كبيرة تغمض عينيها حينما ترقد .. وابتعت لها فراشا كاملا مزركشا ، وكلفنى ذلك ما يقرب من الثلاثة جنيهات كنت قد استطعت أن أوفرها منذ بضعة أشهر استعدادا لهذا اليوم . ولاشك أنك تعرف ياسيدى قيمة الثلاثة جنيهات فى ذلك الزمن .. وقيمتها بالنسبة لمرتب موظف صغير مثلى .

كانت فرحة الطفلة «بالعروسة والفراش» فرحة أشعرتنى بأن الجنيهات الثلاثة لم تذهب سدى .. ثلاثة جنيهات ؟ .. ما أنفها ! إن العالم كله لا يساوى عندى فرحتها حينذاك .. لقد أمسكتها برفق . ثم ربتت عليها بحنان .. ووضعت فوقها الغطاء .. ثم قالت لى همامة : «لندعها الآن تستريح .. فهى لاشك متعبة» .

ولم أكن أظن قط أن «العروسة» الجديدة - أو «صومو» كما سميتها - ستشغلها الى هذا الحد .. وتكلفها كل هذا الاهتمام الجدى .. فقد اعتبرتها مخلوقا حيا .. فى حاجة الى كل ما تحتاجه هى .. وكانت ترقدها فى الليل بجوارها .. وكم كان يطربنى أن أرقبها .. وهى تتصرف مع اللعبة .. تماما كما تتصرف أمها معها .. مقلدة أياها فى كل شيء .. وفى كل كلمة .. تحملها على كتفها ، وتمثل كأنها تغسل لها وجهها ، وتغير ملابسها وتطعمها ، وعندما أوى فى الظهيرة الى الفراش كنت أبصرها وهى تشير اليها بسبابقتها محذرة : صومو بابا نام .. أياك والبكاء .

وفي ذات يوم سألتني «نادية» أن أحضر لها فراشا آخر صغيرا ..
فسألته مداعبا : «فراشا وعروسه ؟» .. ولكنها هزت رأسها قائلة :
- لا .. لا .. فراشا فقط .

ثم اقتربت مني وهممت في أننى انها تريد الفراش للطفل الجديد «لين
سوسو» .

ولم أتمالك من الضحك .. وفي اليوم التالي أحضرت لها فراشا
صغيرا .. فوضعتة بجوار الأول .. وفي الصباح وجدتة تضع أصبعها على
شفثيها لكيلا أحدث حركة توقف «الننوء» ثم مسحنتى من يدي حتى وقفنا أمام
الفراش الصغير ورفعت الغطاء عنه بخفة ثم قالت بصوت خفيض : «انه بنت»
وبعد أن ابتديت اصجابه سألتها عن اسمها فأجابت انها ليست بحاجة الى اسم
فهى مجرد «نونو» .

وكنا نظن أنها سرعان ما تنسى ذلك المخلوق الوهمى وتطالب باحضار
ملفلة صغيرة لتضعها في الفراش الصغير بجوار «سوسو» ، ولكنها لم تفعل ،
بل استمرت تعامله على أنه شيء ملموس توقفه وتدله وتحمله تماما كما تفعل
بأمه .

وفي ذات يوم - أظنه في شهر سبتمبر - خيم علينا الظلام ونحن نلهو
في الحديقة ، وأحسنا بالجو شبيها من الرطوبة ، فدخلنا الدار .. وفي الصباح
التالى شكت الطفلة ألما خفيفا فى حلقها .. وبدأت عليها تلك «الدعبله» التى تبدو
على الأطفال اذا غشيهم مرض أوهم .. واستمرت مستلقية فى الفراش . وبدأ
لى أن الأمر لايزيد على برد خفيف لايبعث على القلق ، اذ لم يكن بها أى
ارتفاع فى درجة الحرارة .

ولم يدر بخلدنا قط أن الطفلة مريضة .. أو أن المسألة تستوجب استدعاء
طبيب ، خاصة وأن التحسن بدا عليها فى نهاية اليوم عندما أخذت تستمع الى
القصص التى أخذت أقصها عليها ، وتشاهد الرسوم التى رسمتها لها ، ولكن
عندما أقبل المساء بدا عليها شيء من التعب وارتفعت حرارتها قليلا وتقايأت
كوب اللبن الذى أعطيناها اياه ، وبدأت تشكو من ألم فى الصدر .

وحتى ذلك الوقت لم يكن هناك ما يدعو الى الفزع ، فقد كانت فى تمام صحتها ، وكانت تضحك عندما أحاول أضحاكها . ولولا ذلك الألم البسيط ، الذى كان يذهب ويجىء لما كان هناك ما تشكو منه . ولكن لم تمض فترة من الوقت حتى بدأت أحس تغييرا طرأ عليها ، ورأيت جفنيها يتأفان وخبا بريق عينيها .

وأصابنا الفزع .. وخيل الى أن قلبى يهوى فى جوفى .. وقلت لزوجتى : إن نظراتها لا تعجبني ، ومأذهب لاحضار الطبيب ، وحتى حينذاك لم أكن أحس بعد أن المسألة قد بلغت دور الخطورة .



تصور ياميدى بعد كل تلك المنين التى انصرفت والتى كانت كفيلة بأن تضع بيننا وبين الماضى جدارا سميكاً من النسيان .. وبعد أربعين عاماً تغير فيها كل شيء .. ما زلت أحس بقلبي يعصره الألم .. وبدمع عيني يرادها على الانهمار كلما تذكرت تلك الساعات القلائل التى قضيناها بعد أن حضر الطبيب .. وعندما نهبنا من نظراته مدى ما فى المسألة من خطورة .

لا أكثر عليك القول ياميدى .. لأنى ما قصدت بكتابتى اليك أن أحملك آلاماً ، أدعرك الله من قلبى الا يصاب بها انسان .. لقد ماتت الطفلة قبيل الفجر .. ولم أصدق أنها ماتت فى بادئ الأمر .. اذ كان يبدو لى موتها بعيداً .. ولم يستطع ذهنى المرهق المكثود أن يسلّم بأنها ذهبت الى غير رجعة .. فهذا شيء لا يمكن أن يكون حقيقة ، وحتى بعد أن رقدت فى جنبها وعدنا الى الدار الموحشة الصامتة لم نكن نصدق أنها ماتت .. وقع اقدامها .. صوتها .. ضحكاتها .. ما زلت أحس بكل ذلك يملأ الدار الخرساء .. وما زلت أتوقع بين آن وآخر أن أراها مقبلة على بلهفة واشتياق ، وعلى شفيتها مؤالها التقليدى الطريف : مجبت لى أبه ؟ .

وحتى يومنا هذا ما زالت تطاردنى مرارة الأسابيع والأشهر التى أعقبت موتها .. ماذا تستطيع أن تفعل كلمات العزاء بقلوب كليلة مجروحة .. وأنى لقطرات الدمع أن تطفىء نارا تستعر فى الجوانح وتتأجج بين الضلوع .

وبعد فترة نقلت الى القاهرة .. ثم مضى العام تلو العام ولم أعد بعد موظفا صغيرا .. بل أصبحت ذا مرتب محترم .. وبعد أربع سنوات رزقت بابنتى الثانية سامية .. وسرعان ما نمت حتى أضحت طفلة جميلة كأختها الراحلة .. وان كان جمالها من نوع آخر .. نوع رقيق الجسد ، دقيق التقاطيع ، أسود العينين ، حالك الشعر .

وقد اتفقت وأما على الا نذكر لها شيئا عن مناديه ، معقدين أن من للخير أن نبعد عنها أمثال تلك الحقائق الكريهة ، ولاشك أننا كنا مخطئين فان الموت ليس أكثر من نتيجة .. نتيجة طبيعية محتومة .. قد تكون آجلة أو عاجلة .. ولكنها لا بد واقعة .. فلم نرتاع منها ومن التفكير فيها ؟ لاتواخذنى ياسيدى .. هذه فلسفة عقيمة .. لا يمكن وضعها الا على أطراف الألسن .. أما فى قرارات النفوس فلا موضع لها .

وهكذا مرت الأيام والطفلة لاتشعر الا أنها أول من أنجبنا .. وعندما بلغت الرابعة وأقبل عيد ميلادها سألتنى أن أحضر لها عروسا تغمض عينيها وفراشا ترقد فيها ، فأحضرت لها ما طلبت .. وخیل الى أن الأيام تعيد نفسها .. فقد أقبلت سامية على العروس تنومها وتدلها وتغنى لها .. تماما كما كانت تفعل أختها .. من قبل .

وبعد بضعة أيام وجدتها تسألنى أن أحضر لها عروسا أخرى .. ولست أدري ما الذى جعلنى أسألها عما اذا كانت تقصد فراشا آخر ، ولكنها هزت رأسها وأفهمتني أنها تريد عروسا وفراشا حتى تؤنس عروستها الأولى .

ولم أكن أستطيع أن أرفض لها طلبا فأحضرت عروسا وفراشا آخرين وضعتهما بجانب الأولين .. ولم تمض بضعة أيام حتى لاحظت أنها بدأت تضع دميتها فى فراش واحد وتترك الفراش الآخر خاليا .. وتكرر منها ذلك .. فسألتها ضاحكا عما يدعوها لذلك الأمر ، فأوضحت لى أنها تعد الفراش للطفل الذى يوشك أن يولد .. وفى الصباح التالى وجدتها تضع مبابتها على شفتيها آمرة إياى الا أحدث منجاة لئلا أوقظ والنوم ، ثم سحبتنى من يدى وأوقعتنى أمام الفراش الصغير الخالى وأزاحت الستار هامة : «انه بنت» .

أية تكريات هاجعة أيقظتها الطفلة في قلبي ، وأى أحساس بالخوف سرى وقتذاك في نفسي .. لقد صمت برهة ثم قلت لها في رفق : جميلة جدا يا حبيبتي .. ما اسمها ؟ . واجابتني الطفلة بسرعة دون كثير تفكير : منادية .. اليس اسما جميلا ولم أحب ، فقد كنت في حال لا تسمح لي بالكلام .. لقد قلت لك اني رجل مرهف الحس .. وكان الأمر أكثر مما أتوقع ومما أحتمل .

ومضت بضعة أشهر ثم مرضت الطفلة .. وبعد دقائق معدودات كان الطبيب بجوارها .. وقد أمرنا بالأنا نتركها تغادر الفراش وأن نعطيها من اللبن قدر ما تستطيع أن تشرب وأخبرنا أنه سينبتنا بالنتيجة بعد التحليل ، وفي المساء أخبرنا أنها مصابة بالدفترية .

وسأمر عابرا بالأيام الثقيلة التي تلت ذلك .. فاست أنكر الكثير عما حدث بها .. إذ كان يذبل لي أنني كنت أعيش وسط ضباب كثيف اشاهد تلك المعركة التي كانت تدور بين ابنتي وبين الموت .. وأنا مكثوف اليدين لا أملك سوى الصبر والانتظار .. حتى كان ذات يوم بدا لي فيه أن الطفلة العزيزة على وشك أن تخسر المعركة .. وحضر الطبيب في ذلك المساء .. وبعد أن مكث ربع ساعة انتحى بي جانبا وأنياني أنه لم يعد في وسعه شيء .. وأني يجب أن أتوقع الأسوأ . ثم كتب لي اسم دواء وطلب مني احضاره قائلا : إنه مجرد محاولة قد تعيد إلينا بعض الأمل . وانصرف على أن يعود إلينا قبل منتصف الليل .. وأدركت وقتئذ أن الطفلة قد حانت نهايتها .

ولم أشك أن الدواء الذي كتبه الطبيب لم يكن الا مجرد صد خائفة ومع ذلك فقد انطلقت لاحضاره .. باحثا عنه في الصيدليات التي وجدناها مفتوحة وقتذاك ، ولكني لم أجد له أثرا .

وأخيرا عدت أتراجي الى الدار وجمعت وزوجتي في صمت هنيهة وأخرى كنا نتمسك على أطراف أسابعنا لنرقب ملفلتنا طفلتنا في معركتها الخاسرة .

وعندما دقت العاشرة تسللنا الى الحجرة ، ونظرنا الى الفراش وكانت الصغيرة تبدو نائمة على جنبها الأيمن وقد ثنت ركبتيها قليلا .. وفجأة رأينا شيئا ! لم أكن وحدى الذى رأيته .. ولا كانت زوجتى وحدها التى رأيته .. لقد رأينا كلاهما .. رأينا بأعيننا كما تبصر أصابعك فى وضوح النهار .. لا وهما .. ولا شيئا .. لقد رأينا بجوار الطفلة الراقدة طفلة أخرى قد أحاطنها بذراعيها كأنما تحاول أن تقيها الشر ، ونذراً عنها غائلة السوء . وكانت الطفلة هى نادية ! أجل لقد كانت نادية ترقد بجوار سامية وكلتاها واضحة وضوح الأخرى .. وكأنتا تبدوان كالنائمتين .. ووقفنا نحملق فيهما وكأننا فى حلم .. وأخيراً اختفت نادية فجأة كما ظهرت .. ونقدمنا بخطى وثيدة ونحسبنا سامية فإذا بها نائمة .

ونظرت الى المنضدة فوجدت عليها زجاجة لم تكن موجودة من قبل .. ورفعتها فى يدي فإذا بها الدواء الذى أشار به الطبيب .

قد تتهمنى ياسيدى بأننى لم أر فى الفراش سوى شبح صورته لى الأوهام .. ولكن ما رأيك فى زجاجة الدواء ؟

وعندما حضر الطبيب مرة أخرى قبيل منتصف الليل وانحنى عليها أبصرت فى وجهه دهشة شديدة .

وبعد أن فحصها برهة استدأر وقال فى هدوء وهو يحاول أن يخفى شيئاً من حيرته : هذه معجزة من السماء .. انها الآن بخير .. أعنقد أن الخطر قد زال .

وكان ذلك منذ زمن بعيد وقد مائت زوجتى منذ بضع سنين ، وتزوجت سامية ، وأنجبت طفلة خضراء العينين ، ذهبية الشعر ، هى حفيدتى نادية لشدة ما أراها تشبه نادية الأولى !

هل عندك ياسيدى تفسير لكل هذه الأمور ؟ تفسير يقبله عقل الكهل .. لا أظن ! فأغلب ظنى أن هناك أشياء فى هذه الحياة لا يستطيع تفسيرها .. وليس علينا إلا أن نقبلها على علاقتها .

الحاجج على

خيل الى انه لم يكن هناك من سمع
الصوت سوى ، وبدأت أشعر
بالخوف والحرص وتناولت بمبسم
الشيشة، أشد منها نفسا استعين به
على تمالك نفسي ، وهنا رأيت أعجب
ما يمكن لاتسان أن يراه

الحاج على أبو سريع أو الحاججلى، كما تعودنا أن نسميه مدغمين
الكلمتين ببعضهما كأنهما كلمة واحدة . هو حاج رسمى .. حصل على لقبه
بتأدية فريضة الحج فعلا ، وما زلت أذكر كيف استقبل عند عودته من حجة
المبرور .. استقبال الغزاة الفاتحين .. «بالطبل والمزمار والنقرزان» وقد
اضطجع بجسمه الهائل الضخم فى عربة «حنطور» زينت بالورود وسعف
النخل كأنه «مطهر» .. وعلى باب داره علقت الاعلام الخضراء ، وفرشت
الأرض بالرمل الأصفر .

ولم أر هناك فارقا كبيرا بين الحاج على، قبل الحج وبعده .. فمن ناحية
اللقب لم يزد عليه شيئا .. فقد تعودنا أن نخلعه عليه قبل أن يحج .. فهو حاصل
عليه «من منازلهم» أو هو حاج «عرفى» .. أما من ناحية المظهر ، فكل ما
زاد عليه من «صبغة» يحرك حباتها بين أصابعه .. «ودجلة» فضية حشرها فى

بنصره السمين .. أما من ناحية المخبر أو الجوهر ، فلم يتغير منه شيء البتة .
فهو هو .. نصاب ، محتال ، كذاب ، خداع .

وهو لا ينسى «الفرض» ! ولكن الفرض عنده لا يتعدى ركوع وسجود
وتحريك شفاه بكلام تعود اللسان نطقه دون أن يعيه الذهن أو يفهمه .. ولانعى
بذلك أنه يؤدي الصلاة تظاهرا ، بل عن يقين واعتقاد واقتناع بأن هذا هو واجبه
نحو الله .. وماذا يطلب منه أكثر من الصلاة والصوم وحج البيت ؟

هذا هو واجبه نحو الله ، ولقد قام به خير قيام .. أما واجبه نحو عباد
الله ، فهو يعتقد أنه شيء آخر لا صلة له البتة بواجبه نحو الله ، ولذلك يحرص
على ألا يخلط بينهما .. وقامفته في هذا أن «الشغل شغل» ، وأن «أكل العيش
يحب الحداقة» . ! وأكل العيش يعنى لديه ابتزاز أقصى ما يمكن ابتزازه من
أموال عباد الله .. أما «الحداقة» فهي عنده وسيلة واسعة مطاطة ، تستطيع أن
تحوى كل ما يخطر على البال من ضروب المكر والدهاء والنصب ،
والاحتيال .

كان هذا هو مذهب «الحاجلي» قبل الحج لا يخلط أبدا بين الله وعباد
الله .. ! ويعتقد اعتقادا راسخا .. أن الله راض عنه كل الرضا .. أما عباد
الله .. فبينه وبينهم حساب ، ليس لأمر الدين به شأن ، فهي مسألة مشطارة
وحداقة .

ولقد ظل مذهبه كما هو ، لم يغير فيه الحج شيئا .. بل لقد زاده نمسكا
به خاصة وأنه يعتقد أن حجة لبيت الله قد رفع شأنه عند الله وزاد من رضى
الله عليه ، وغفر له ما تقدم من ذنوبه وما تأخر ، ولذلك فهو مقبل على عباد
الله ولديه من الغفران رصيد كبير ، ويستطيع اعتمادا على هذا الرصيد أن
يفعل بهم ما يشاء وأن يغشهم ، ويحتال عليهم ، دون أن يخشى غضب الله .
هذا هو رأى الحاج في واجبه نحو الله وواجبه نحو عباد الله . أما رأيه في
الواجب الثالث ، واجبه نحو نفسه .. فقد كان لا يحب أن يناقشه فيه أحد ..
فقد كان لابد له أن يعطى نفسه حقها .. من الحشيش .. ومن النساء .

و «الحاج على» رجل خفيف الدم كغيره من «السمان» الذين يعرضهم الله عن الثقل في أجسامهم خفة في دمهم .. فهو سريع التكنة .. حاضِر البديهة .. حلو الفكاهة .. ولست أشك في أن هذا هو السبب الذي جعل عباد الله يغفرون له ما يرتكبه معهم من غش ونصب ، وفي الوقت نفسه يقبلون عليه وعلى بضائعه ، حتى لزحم بهم حائوته ، رغم تأكدهم أنه «مغلواني» وأنه من الغشاشين المخادعين .. والمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون .

كان الرجل تاجر (ياميش ، بشارع بين الصوريين .. يزخر دكانه بغرارات الجوز واللوز والبندق .. ولغات قمر الدين وصناديق التين .. وزجاجات الشرابات ، وعلب الحلاوة الطحينية والملبن .. وصفائح الملابس ، وكان يتخذ مركزه في وسط الحائوت على مسطبة مكونة من أربعة صناديق متجاورة غطى سطحها بحصير وتربع فوقه بجسمه السمين المنتفخ وقد تدلى «كرشه» أمامه كأنه شيء منفصل عنه .. وانبسط على جسمه قفطان حريري مخطط كشف ذيله عن جزء من ساقيه الضخمتين ، كأن بهما داء الفيل .. وقد التفت حول سمائتيهما محملة الشراب» وبدأ طرف خذاته الأصفر ذي الرقبة الطويلة واللاستك يطل من تحت أكداش اللحم المحملة فوقه ، فإذا صعدنا البصر إلى أعلى وجدنا ، الحزام الكشميري وقد لف حول محيط الكرة الأرضية .. لا تكاد تبدو له بداية ولا نهاية . فإذا تجاوزنا الحزام صادفنا صدر الرجل «المنختر» كأنه صدر امرأة بدينة وقد تهدل فوقه شيء يبدو كأنه كرش آخر .

فإذا أمعنا البصر في ذلك الشيء الذي ظنناه كرشا .. اتضح لنا أنه بداية ذقن أو طغده تعلوه ذقن الرجل الأصلية وقد توسطها طابع الحسن ، أو قل طابع القبح ، وفوق الذقنين : الذقن السفلى والذقن العليا شفتيه الغليظتين ، وقد وضع بينهما مبسم الشبيشة تندفع خلالها أنفاس الرجل كأنها أنفاس الواهور فتحدث في الشبيشة (كركبة) و (بقلة) .

فإذا تجاوزنا القم صادفنا أنفا يبدو صغيرا نسبيا .. بجوار كتلتى اللحم اللتين يتكون منهما خذا الرجل ، أما العينان فليست ادرى كيف كان الرجل

يبصر بهما من فرط ضيقهما ، فهما تبدو أن فى وجهه كأنهما
تقبان .

وأخيرا تبدو رأس الرجل صلعاء جرداء .. تعتمد اليها يده بين آونه
وأخرى بالمنديل المحلاوى لتجفف قطرات العرق التى لا تفتأ تتصبب منها ،
بصرف النظر عن حرارة الجو أو برودته !

و «الحاج على» فى جلسته هذه يفعل كل شيء .. يبيع ويشترى ويشرب
الشيشة ، ويلقى النكات والمغازلات .. فلسانه لا يكف عن الحركة بين
شذقيه .. وسيل الحديث لا ينقطع عن التدفق .. ولو حاولنا أن نسجل له حديثه
فى لحظة من اللحظات على سبيل (العينة) لما وجدنا فيها أكثر مما يلى :

«ياميت حلاوة .. ياميت ندامة على اللى حب ولا طالشى» «أبوك ..
قول اسمعنى .. بمسكوه بورقة» .. «يانور العيون أنمت» .. «انتي يابت يا اللى
زى القشطة» ..

وقد تأخذه الحماسة فيصفق بيده ، وقد يملكه الطرب فيندفع فى الرقص
وهو جالس على مصطبة يحرك كرشه ويهز كتفيه ويتمايل ذات اليمين وذات
اليسار .

فإذا ما أذن المؤذن بالصلاة هبط من على مصطبة سائحا بقوله المأثور
«ساعة لقلبك وساعة لربك» ، ثم يعطى لربه نصيبه من الركعات والسجادات .
هذا هو «الحاج على» ، المرح المهازر .. رجل زبائنه من غواة
الضحك .. يضحكهم ويضحك عليهم ، ويغترون له غشه وخداعه من أجل
خفة لمة .. !

وكنيت للرجل صديقا حميما .. فقد كان يقطن بجوارنا فى درب
الجماميز ، وكنا كثيرا ما نقضى سهرتنا سويا فى مقهى «عكاشه» على ناصية
الشارع نلهو بلعب الطاولة والتنخين والمسر وحيث يتناول هو «قصاء» أو
«قصين» يزن بهما رأسه ..

ومرت بى فترة من الوقت شغلت خلالها عن رؤية الرجل حتى كانت ذات ليلة ذهبت الى المقهى لأقضى السهرة معه ، فلم أجده وسألت عنه فعلمت أن به وعكة ، وأنه راقد فى داره .. ورأيت الواجب يحتم على أن أزور الحاج ، وأطمئن عليه ، ولم يكن الأمر يكلفنى كثير مشقة ، فقد كانت دار الرجل على قرد خطوات من المقهى .

وتوجهت الى الدار ، وقرعت الباب بالمقاطعة الحديدية المدلاة عليه ، ولم تمض لحظة قصيرة حتى فتح الباب ، ووجدت أمامى خادما يسألنى عما أريد ..

وافلت نظرى فى الخادم جلاببه .. فقد وجدته من قماش مخطط خطوطا حمراء وخضراء .. كأنه إحدى فانلات لكرة القدم .

ولم آيه كثيرا لجلابب الخادم .. رغم غرابة منظره ، لأنه خادم ولا حرج عليه فى أن يلبس ما يشاء ، وأجبت على سؤاله بأننى أريد الحاجلى . فعاد يسأل :

— نقول له مين ؟

وتكرت له اسمى فاختفى ، وعاد بعد برهة ليقول :
— اتفضل ..

وتفضلت ، ودخلت الى الصالة ، فوجدت ما يقرب من السبعة أطفال ، ما بين بنين وبنات ، تتراوح أعمارهم بين الثانية والثانية عشرة وقفوا فى الصالة يتطلعون بأبصارهم الى .

وتماكنتنى من رؤيتهم الدهشة ، لا لكثرة عددهم ، فقد كنت أعلم أن لدى الحاجلى من الأولاد ما يربو على هذا العدد ولكن الذى أدهشنى هو أنى وجدتهم جميعا البنات منهم والبنين قد ارتدوا جلابيب من نفس القماش الأحمر والأخضر المخطط الذى يرتديه الخادم .

وسرت فى طريقى متجاوزا قديم الكرة الذى يتطلع ببصره الى .. واتجهت الى حجرة الاستقبال حيث قاعدنى الخادم .

لا .. هذا كثير ! .. لابد أن أهل الدار قد أصيبوا بلوثة !
من يصدق أنني وجدت بياضات الأرائك والكراسي من نفس القماش ؟
ودخلت على «الحاجلي» ، فإذا بي أجده مستلقيا على الفراش وقد تكرر
كرشه وبدا كأنه قبة جامع .. لا فرق بينهما سوى أن قبة الجامع بيضاء ، أما
كرش «الحاجلي» فقد كان مخططا بخطوط حمراء وخضراء .
أجل ، فقد كان الرجل نفسه يرتدى جلبابا من القماش اياه !
وقلت للحاج :
- لابس عليك يا حاج ، انت انكسرت من الماتش ؟

وفهم الرجل ما أعنيه ، وأنى أقصد «التريقه» على جلبابه فأجاب
مبتسما :

- اجلس .. أنك لم تر البقية بعد ..
- هل ما زالت هناك بقية ؟
وهز رأسه ببساطة وأجاب بالإيجاب ..
ثم رفع ذيل جلبابه قليلا وكشف عن صدره فوجدته يرتدى قميصا
ومروالا من نفس القماش .. !
واندفعت أفهقه ، والرجل ينظر الى في استكانة ، حتى تماكنت نفسي
وسألته :

- ايه الحكاية .. ؟ عليكو عفريت اسمه «التيتش» ؟
وهز الرجل رأسه بالنفي فعدت أسأله في دهش :
- أمال ايه ؟
فأجابني :

- عسى أن يكون الآن مستريحا في قبره ! .
- من هو ؟
- صاحب القماش ..

وازدادت حيرتى ، وعدت اتساءل عن حقيقة المسألة هل هو فذر ، من «الحاجعلى» أن بليس هذا القماش اذا ما توفى صاحبه ؟ أم أن هناك «أسياده» يركبون الرجل وأن «الكودية» قد أشارت عليه بلبس هذه الثياب لمحاولة ارضائهم ؟

ولكن «الحاج» عاد يهز رأسه بالنفى ، ثم صمت برهة وبدأ يقص على حقيقة الأمر قائلا :

- ياسيدى .. المسألة بسيطة .. ذهبت منذ بضعة أيام لأقضى سهرتى فى المقهى ، واتخذت مجلسى على «الدكة اياها» التى تعودت أن أجلس عليها ، وطلبت من «دقيق» الشيشة ، ووضعت فيها الدخان «والذى منه» ولم أكد أشد منها نفسا أو نفسين حتى حضر المعلم «بطنجها» كعادته .. ثم قال : «السلام عليكم» .. «السلام عليكم» .. «اتفضل يا معلم» .. قعد المعلم .. تلعب عشرة .. يا حاجعلى .. «العب .. ما ألعيش ليه .. هو انت صغير !» .. وصفق المعلم «بطنجها» وطلب من «دقيق» أن يحضر للطاولة .

وبدأنا اللعب .. شيش جهار .. شيش باك .. «سعلش يا زهر» . وحمى اللعب ، فتركت الشيشة جانبا .. وأقبلت على الزهر .

وهنا حدث أمر عجيب .. فرغم أننى كنت أجلس وحدى على «الدكة» .. ورغم انهما كى الشديد فى اللعب .. فقد بدأت أحس أن هناك شخصا يجلس بجوارى .. شخصا أستطيع أن أراه بطرف عيني ، وأنا منصرف الى الطاولة .

وحولت بصرى فجأة لأرى هذا الشخص الذى جلس بجوارى ولكنى لم أجد أحدا ، فعدت الى الاتهماك فى اللعب ، ومع ذلك فقد استمر بى الاحساس بأن هناك شخصا يجلس بجوارى وأنى أستطيع أن ألمحه بطرف عيني .. واستمر هذا الاحساس متسلطا على حتى حضر المعلم «رجب» واقترب ليجلس بجانبى ، وهممت بأن أصيح به محذرا حتى لايجلس على الرجل الذى أراه بجوارى ، ولكنى خشيت أن أكون واهما .. فتهموننى بالجنون .

وعدت الى اللعب وأنا أحس قلقا ، فقد اعتقدت اعتقادا جازما بأن المعلم
«رجب» يجلس على حجر الرجل الذى جلس على «الذكة» بجوارى ، وأن
الرجل لاشك فى ضيق شديد .

وقذفت بالزهر ، وقلت : «شيش ياك» .. وتمهلت برهة افكر فى كيفية
تحريك الحجارة . ثم هممت بأن أرفع حجرا من إحدى الخانات عندما سمعت
صوتا يقول لى : «سيب ده واحبس فى الياك يا غبى» .

وتملكنى الدهش فقد كان الصوت غريبا عنى ، لم يكن صوت «بطنجها»
ولا «رجب» ، بل صوتا آخر ، وأحمست بالفضيب وهم دمس بأن يفور ، لولا
أننى وجدت أن اللعبة التى أشار بها على الصوت هى اللعبة «الصبح» فلم أجد
بدا من احتمال الاهانة وتنفيذ اللعبة .

وخيل الى أنه لم يكن هناك من سمع الصوت سوى ، وبدأت أشعر
بالخوف ، والخرج ، وتناولت مبسم الشيشة أشد منها نفسا استعين به على
تمالك نفسى ، وهنا رأيت أعجب ما يمكن لانسان أن يراه .

لقد نفثت الدخان من فمى فلم يتصاعد فى الهواء ، بل أخذ يتكثل ويتجسد
حتى ظهر من خلاله صاحب الصوت .

أجل لقد رأيت أخيرا ذلك الرجل الذى كان يجلس بجوارى وقد وقف
ينظر الى الطاولة مرتديا جلبابا طويلا وطربوشا .. والتفت حولى خلسة أرقب
وجوه الموجودين وأرى أثر ظهور الرجل عليهم ، فأتضح لى أنهم لم يميزوه ،
والى أنا وحدى الذى رأيته .

ويدأ الرجل ، أو قل الشبح ، يرشدنى فى كل لعبة ، «فك الجواهر»
ياحمار .. «أحبس فى الدو ياتيس» «سيب الحجر ده يا طور» . لقد كان الشبح
قليل الأدب بعض الشيء ولكنى احتملته فى سبيل نصائحه .

وكيف لا أحتمله ! وقد انتهى بى الأمر الى أن أغلب المعلم «بطنجها»
أربع عشرات ، وأنا الذى لم أغلبه فى حياتى مرة واحدة .. حتى كاد الرجل
أن يصاب «بنقطة» .

وأخذ الناس ينصرفون من المعهى الواحد تلو الآخر حتى «صصصصصصصصصص»
على وعلى صاحبي الشبح .

وجلس الشبح بجوارى وهممت بأن اطلب له شايًا أو قهوة ولكنه أفهمنى
أن الأرواح لا تستطيع الأكل أو الشرب .. وبدأنا فى «الدرشة» والحديث عن
هزيمة «بطنجها» التى لم يسمح التاريخ بمثلها .

ولاحظت على الشبح دلائل هم وعلامات ضيق وقلق ، فسألته عما به
فهز رأسه قائلاً : «لاشىء» ، ولكنى الححت عليه فراح الشبح يسرد حكايته
قائلاً :

— ان مصيبتى كبرى لأن روحى معلقة بين السماء والأرض فلا أنا حى
أسعى وأعيش مع الأحياء ، ولا أنا ميت فتصعد روحى الى السماء مع بقية
الأرواح !

ونظرت اليه فى دهش وسألته كيف يمكن أن يحدث هذا ! فأجاب :

— ان قصتى تبدأ منذ عشرين عاما عندما كنت أعمل مع أبى فى تجارته
فى الغورية ، وكنا نلجأ فى الأقمشة ، وفى يوم نحس اصابتنا سوء الحظ
فضاعت علينا صفقة كبيرة ، واتهمنى أبى بأنى أنا الذى أضعتها ، وانى خائب
لا أصلح للتجارة ، وانى سأعيش طول عمرى عالة عليه .

وأثارنى قوله ، واشتد بيننا النقاش وقلت له أنه هو الخائب وأنه يفسد
بتدخله معظم الصفقات ، وانى لو كنت وحدى لأريته كيف تكون التجارة .

واندفعت فى ثورتى الى بعض أثواب من القماش فحملتها على كتفى
وقلت له انى سأسرح بالأثواب وسأريه كيف يكون البيع ، وأقسمت إيمانا
مغلظة انى لن أعود حتى أبيعها .. وأن تحل لعنة الله على فلا يهدأ جسدى
فى أرض أو تستقر روحى فى سماء حتى أبيع آخر قطعة منها .

ولكنى لم أكد أشاءر الحائوت وأسير فى الطريق بضع خطوات وأنا
أحمل الأثواب حتى دهمتنى عربة فقتلت لساعى .

وحملنى رفاقى الى القبر وسط النحيب والبكاء وانتظرت أن تصعد
روحي الى السماء ، ولكنها لم تصعد ! فلقد حلت لى اللعنة ووجدت نفسى
أتجول فى الطرقات وأنا أحمل الأثواب أحاول بيعها فلا يرانى أحد ولا يحس
بى انسان .. عشرون عاما وأنا أهيم على وجهى فى الطرقات محاولا بيع
الأقمشة دون جدوى . وأخيرا عثرت على أول شخص استطاع سماعى
ورؤيتى وهو انت .. ان فى يدك خلاصى ، وكل ما أريده منك هو أن تبتاع
منى الأقمشة ان سعرها رخيص جدا بالنسبة لاسعار هذه الأيام .. فهى
بالتراب .. ان الثوب لايزيد ثمنه عن ثلاثة جنيهات .

وأخذت أفكر فى قول الشبح فرأيت أنى استطيع أن أصيب عصفورين
بحجر . اذ أستطيع بشراء الأثواب أن أنقذ روح الرجل .. ثم ان الصفقة نفسها
صفقة هائلة فمن ذا الذى يستطيع أن يشتري الآن قماشا بأسعار ما قبل
الحرب .

ولم أتردد كثيرا ونسيت النقود فى يد الشبح وسرعان ما سلمنى
«الأثواب» الثلاثة .

لأننى كنت واهما ، وأن ما رأيته لم يكن سوى أضغاث أحلام ..
فلا أظن هناك دليلا على أن الأمر كان حقيقة واضحة أكثر من هاته الجلايب
التي يرتديها كل من فى الدار .

وانتهى «الحاجلى» من قصته ، وأخذت أفكر جيدا .. وتذكرت رجلا
عرض على ذات ليلة عينة من قماش لديه منه بضعة أثواب بسعر رخيص
وتذكرت أن عينة القماش لم تكن تختلف كثيرا عن هذا القماش .. ولم أشك وقتذاك ان
القماش الذى لدى الرجل مسروق ، وأنه يبيعه خفية ولذلك أعرضت عنه .

ترى هل كان الرجل شبحا.. أم أن «الحاجلى» الذى خدع الناس جميعا
قد استطاع الرجل أن يخدعه أخيرا فجعله «يطلب» ويبتاع الثلاثة أثواب
المسروقة ! .

علم ذلك عند ربي ، وعند «التعميرة» التى كان «الحاج» يشد منها نفسا
بعد نفس .

حَيَاةٌ ، رُوحٌ

... فلظننت أمامي لفتلكني دهش
شديد لقد وجدت تغييرا كاملا في كل
ما يحيط بي ، وتبدل ما كنت أبصره
أمامي تبديلا تاما .. اني لم أجد نفسي
في مكان آخر لحسب .. بل في زمان
الخر .

ما الروح وما الحياة .. وما الموت .. وما الدنيا .. وما الآخرة .. وما
الزمن ؟ أهو ذلك الشيء الذي يبدو لنا كمسيل دائم التدفق ينبع من المستقبل
المجهول ، ويجري في وهاد الحاضر الذي نعيش فيه .. ثم يصب في الماضي
الخفي ليذهب الى غير عودة أو أن أقسام الزمن الثلاثة : المستقبل والحاضر
والماضي يمكن تشبيهها بأشياء مجسدة ، ويمكنها التحرك في أي اتجاه كما
يتحرك أي كائن ملموس .. فأى حدث من أحداث الحياة بأوضاعه الثلاث :
مستقبله ، وماضيه ، وحاضره .. يمكن أن يتحرك في أي اتجاه في محيط
الزمن .

أوضح قولي .. أم تراني لا أحسن التعبير ؟

لكي أوضح أكثر .. هل يمكن للماضي أن يصبح حاضر وللحاضر أن
يصبح مستقبلا ؟ .. لاتعجلوا الرد فتقولون : لا .. لاني أستطيع أن أؤكد أن
ذلك شيء دائم الحدوث .

وفيما لا تعلقون الاحلام .. بم تعلقون الفترة التي يحيها النائم في ماضيه ؟ وبم تعلقون تلك الاحلام التي تنبئنا عن المستقبل والتي تعرض علينا في نومنا .. وهو حاضر .. أحداث لن نتخذ مكانها في ميدان الزمن الا بعد أيام أو أشهر .

ليس هذا هو تحرك عكسي للأحداث في محيط الزمن من المستقبل الى الحاضر ، ومن الحاضر الى الماضي .

هذا شيء دائم للحدث في الأحلام .. ليس فيه ما يثير الدهشة ، ولكن ما رأيكم اذا ما حدث هذا في اليقظة ، فعاش الانسان فترة من الماضي وهو يقظان .

أمر عجيب .. أعينى تفسيره ! .. فقد حدث لصاحب لى كان يحيا حياتين : حياة حاضرة ، وحياة ماضية .

اليكم قصته ، سأسردها كما هي .. ان ذهنى البشرى اعجز من أن يكشف غوامضها أو يجد لها تعليلا .

وقع التبا على وقع الصاعقة .. فما خطر لى على بال قط أن صاحبه توفيق المهندس، يمكن أن يقدم على جريمة قتل ! . ولست أشك - اذا ما وصفته لكم كما عرفته منذ عشرات السنين - أن الدهشة مستملكم ، كما تملكتنى ، وأنكم ستتساءلون معى .. كيف أقدم على ارتكابها ؟ وتحت أية ظروف ؟

هو انسان عاقل متزن ، أميل إلى الصمت .. مسالم بطبيعته يصعب عليك أن تثيره ، أو قل يستحيل اثارته أو اغضابه .. فما رأيته قط غاضبا أو ثائرا .. بل يوافقك على كل ما تقول نجبا منه للنقاش والحديث .. اذا سأله أجابك بقدر ما يمكن من الاختصار .. ان لم يكن بهزة من رأسه .

عرفته خلال الطفولة والصبا والشباب .. فلم أجد مرة واحدة يخرج من حلمه وهذونه وصمته .. فقد كانت تلك هي طريقة خلقه وتكوينه .. ولم تكن شيئا مكتسبا من السن أو التجربة .. أو نتيجة لصدمة من صدمات الحياة .

عشرون سنة .. لم أفارقه خلالها ، وهو هو ، ما أغضبته غباوة خادم .. أو امانة رئيس ، ولا ضيق بمزحة ثقيل أو ثرثرة ماجن .. بل تعينه سعة صدره على أن يلقى الحياة وسخاقتها بإبتسامة هائلة ونفس قريرة .

تصوروا بعد كل ما أعرفه عنه .. أسمع فجأة أنه قد ارتكب جريمة قتل ! وقتل من ؟ خادمه المعجوز وعم محمد الرجل الطيب الهادئ .. المخاض الأمين .. الذى اصطحبه منذ أن حضر من بلنته الى القاهرة للدراسة ، والذى أمضى السنين الطويلة فى خدمته دون أن أسمع به يشكو منه قط .. بل كان أشبه بالأب ، والأم ، والزوجة ، وكان يقوم له بكل ما يلزمه ويقضى كل حوائجه .

لقد كان القتل آخر ما يمكن أن ينتظر من صاحبه .. ومع ذلك فقد تجبر الظروف أى انسان مهما بلغ من الهدوء والائتزان على أن يقدم على القتل .. قتل لمن هاجمه فى الليل وارغمه على أن يرد العدوان عن نفسه بقتله .. أو قتل فى ثورة غضب لشرف مظلوم .. أو أى ظرف من الظروف الطارئة التى قد تؤدي بنا جميعا الى ارتكاب القتل .

أقول ان العذر قد يلتمس لصاحبه المتزن العاقل لو انه أقدم على جريمة قتل من هذا النوع .. الذى لا تجدى فى دفعه حكمة ولا عقل .. ولكن أى عذر هناك .. فى أن يقدم على قتل الخادم المعجوز المسكين .

ولقد بدا لى فى أول الأمر .. أن الحادث قد يكون فيه سوء لهم أو التباس . وأن صاحبه قد يكون بريئا من كل ما اتهم به . ولكنى عندما عرفت تفاصيل الحادث أدركت أن الأدلة كلها تكاد تجزم بأنه القاتل .

كانت الواقعة تتلخص فى أن بواب البيت الذى يقطن فيه صاحبه أطلقه قبيل الظهر الا يجد أثرا للخادم المعجوز وهو الذى تعود أن يهبط اليه كل صباح ليبتاع الفول والبطار لسبده ، ثم يخرج بعد ذلك للسوق لشراء الخضروات واللحم لتجهيز الغذاء .. وقد يجد من وقته فسحة للدرشة معه وشرب فنجان من القهوة ما بين الفطار والغداء .

وتذكر البواب أنه قد شاهد متوفيق افندى يهبط الدرج مسرعا فى حوالى الساعة الحادية عشر مساء عندما كان يوشك أن يستلقى فى فراشه فى غرفته الخشبية الكائنة أسفل السلم . ولم ينكر بعد ذلك أنه أحس بعودته .

واستنتج أن متوفيق افندى ربما قد قضى الليل خارج الدار ، وأن عم محمد قد طال نومه فلم يجد بدا من أن يطرق الباب ليوقظه .

وطرق الرجل الباب فلم يسمع الا صدى طرقاته . واشتد الطرق بلا جدوى . فتملكه القلق .. وأحس بأن شيئا غير عادى لابد أن يكون قد حدث وأوجس فى نفسه خيفة .

ونظر من ثقب الباب فسمعت فى جسده رجفة . اذ بدا له كأن هناك جسدا مسجى بجوار الحائط فى أقصى الغرفة .. وتراجع فى ذعر ثم انطلق من الدار صالحا وأبلغ أول من صادفه من سكان الدور المجاورة وأصحاب الحوالميت . وبعد برفة كانت الشرطة والناس قد تكأكأوا حول البيت .

وفتح باب الدار ، فاذا بالخادم ملقى على الأرض جثة هامدة ، وقد هضمت رأسه بضربة من عصا غليظة ملقاة بجواره بدت عليها آثار دماء . وكانت ملامح القتل بدا عليها دهش شديد .

واستطاع البواب أن يحزم أن العصا هى عصا متوفيق افندى ، وأدلى بشهادته التى تتلخص فى أنه لم يشاهد من السيد والخادم الا كل ما تعود أن يشاهد يوميا ، وأن كليهما آوى الى الدار قبيل العشاء ، وأنه شاهد السيد بعد ساعتين ، أو ثلاثة يهبط الدرج وقد اندفع من الباب فى عجلة شديدة ، ولكنه لم يخطر بباله قط أن هناك جريمة قتل قد ارتكبت .. فما حدث ما يثير ربهته أو يوقظ شكوكه وهو لا يعرف هناك سببا يستدعى أن يقتل السيد خادمه ، فقد كان الرجل طيبا وكانت العلاقات بين الاثنين على خير ما يرام .

وقرر الطبيب الشرعى أن القتل حدث قبيل الحادية عشر اى فى الساعة التى شوهد فيها متوفيق ، يندفع من الدار ، ولم يستطع المحقق أن يستدل على أن أحدا دخل البيت غير الرجل والخادم .. وهكذا ثبتت التهمة على متوفيق ،

ولم يبق هناك مجال للشك فى أحد غيره ، خاصة وأنه قد ولى فرارا ولم يظهر له أثر بعد ارتكاب الجريمة ١ ..

أمر عجيب 11

إن التحقيق قد أثبت أن «توفيق» هو القاتل . وأنه ضرب الخادم بعصاه ضربة أفضت الى موته ثم هاربا .

ولكن لم يقتله ؟ .. أين هو الآن ؟ ..

إن المسألة رغم أن التحقيق استطاع إثباتها بسهولة .. تبدو عويصة محيرة . فلأنا أدرى الناس بصاحبى . انه لا يستطيع أن يقدم على قتل حشرة ، وهو ليس بالإنسان الأحمق الذى يثيره خطأ خادم الى حد أن يتهور فى ضربه ضربة ترديه صريعا .

لا .. لا .. انى أقسم إن «توفيق» لا يمكن أن يكون القاتل .. فلا بد أن تكون هناك ظروفًا خفية احاطت بالجريمة .. ظروفًا يعرفها هو ، ويستطيع لو أظهرها أن يبرىء نفسه مما اتهموه به .

ولكن أين هو ؟ ولم اختفى ؟ . وماذا يخشى اذا كان لم يرتكب الجريمة ؟ انى موقن أو التفتيت به لا اعترف لى بكل ما حدث . فهو يثق بى ثقة عمياء ، ولا يركن الى أحد سواى ، ولا يستطيع أن يخفى عنى شيئا .

ونشر الحادث فى الصحف تحت عنوان «مهندس يقتل خادمه ويفر هاربا» وأعلن أن البوليس جاد فى البحث عن القاتل الهارب .

وعدت الى البيت ورأسى يصطخب بتلك المسألة المحيرة . ومضى اليوم وأنا أحاول عبثا أن أجِد تحليلًا منطقيًا معقولا لشيء مما حدث .

انى أجزم أن «توفيق» ليس القاتل ؟ من هو القاتل اذا ؟ .. ولم لاذ «توفيق» بالهرب ؟ واى انسان على وجه الأرض يمكن أن يكون له مصلحة فى قتل العجوز المسكين ؟

وبتلك الأفكار الحائرة والأسئلة التي لاتجد جوابا شافيا . آويت الى مضجعي .. ولم أك أتوقع بالطبع أن يتسلل النوم الى عيني بسهولة ولكنى فقط كنت أريد أن أريح جسدى .. وهكذا رقدت على الفراش وقد انتابنى أرق شديد وتنبهت كل حواسى . عندما سمعت فجأة طرقا على الباب .

وكان الطارق من الخفة بحيث تخيلت اننى واهم فيما سمعت . ومضت برهة ليست بالقصيرة دون أن أسمع شيئا حتى كنت أجزم أن الطرقات لم تكن سوى خداع سمع .

ولكن .. مرة ثانية ، عادت الطرقات . خفيفة مترددة .. كأن صاحبها يسترق الطرق .. أو كأنه يخشى أن يسمعه احد سواى .

ونهضت فى حذر ، واقتربت من الباب ببطء ووقفت وراءه لحظة وحاولت جهدى أن أتغلب على تلك الرجفة التي أصابتنى . فقد كانت أعصابى متعبة مكدودة . وتساءلت فى صوت لا يخلو من الفزع :

- من ؟

وأجابنى صوت خفيض :

- أنا .. افتح ..

انه هو ! هو بعينه ! . صوت توفيق . الهادى الأجش العميق وأنصت برهة .. وتلفت حولى .. فلم أجد احدا فى الدار قد استيقظ على صوت الطرقات سواى .. وتقدمت خطوة الى الباب ومددت يدى الى المزلاج فرفعته وفتحت الباب وهمست :

- ادخل .

ودخل صاحبى . واستطعت أن أميز وجهه على ضوء المصباح «السهارى» الباهت . فهالنى ما وجدت به من شحوب وانهاك ووجدته يترنح فى مشيته كأن ساقيه لاتستطيعان حمله ، فأمسكت بذراعه وقتته الى حجرنى .. فارتعى فى اعياء على احدى الأرائك .

وأغلقت باب الحجرة بهدوء . ووقفت أمامه وقد أغمض عينيهِ وتلاحفت أنفاسه وأخذ صدره يعلو ويهبط ، وأمسكت بيده وسألته :

- ما بك .. بماذا تشعر ؟

- لا شيء .. فقط متعب وجائع .. ومحطم الأعصاب .

وتركته وذهبت الى المطبخ لآتي له بشيء يمد رمقه .. وتوافرت الأفكار على رأسي في سرعة البرق .

اني واثق انه بريء مما اتهم به . ولقد آتني الى لآتي ملجأ الوحيد .. ولأنه ليس له صديق يعتمد عليه سراي .. ولا شك أنني يجب أن أعاونه على اثبات براءته .. ولكن هب أنه ليس بريئاً ؟ .. وأنه القاتل فعلاً ، وأنه آتني الى فاراً من وجه العدالة .. وأنه يطلب مني أن أخفيه عن أعين البوليس .. ماذا يكون موقعي حياله ؟

هل من العقل أن نعاون قاتلاً على الهرب من وجه العدالة ؟ ثم الى متى أستطيع اخفائه ؟ . وماذا يكون موقعي اذا ما ضبط وثبت أنني عاونته على الاختباء ؟

ولكني كيف تطاوعني نفسي على أن أبلغ عنه ؟ .. وكيف أستطيع أن أتخلى عنه وقد ركن الى وطلب معارفتي ؟

ولكن لم كل هذه الفروض ، وأنا أكاد أجزم أنه بريء .

وعدت اليه ببعض الطعام وكوب من الماء .. فتناول الماء مني بلهفة وجرع الكوب مرة واحدة ، وكان قد هدأ بعض الشيء .. وجلست أرقبه في صمت وهو يزدرد الطعام حتى انتهى منه ، وسألته في قلق :

- قص على ما حدث .. انك بالطبع لم تقتل الرجل .

وأطرق برأسه .. ومضت برهة طويلة وقد بدت عليه الحيرة والفرد ، ووجدته يجيني ، وهو يهز رأسه في يأس شديد :

- لا أستطيع أن أجيبك بمثل هذه السهولة .. ان المسألة ليست من البساطة كما يمكن أن تتصور .. أنا لا أستطيع أن أجيب بأنى قتلت أو لم أقتل . ولا أكاد أعرف أنا نفسى اذا كنت بريئا أم مذنباً .. انها مسألة معقدة ملتوية ، وقيل أن أجيب عن سؤالك عما اذا كنت قتلت الرجل أم لا ، يلزم أن أوضح لك جلية الأمر .. وأروى لك الظروف الملائمة له ، ثم أسألك عما اذا كنت قاتلاً أم لا . أنت تعرف مبلغ ثقى بك ، وأنى أعترف كنفسى .. سأروى لك كل شيء بالتفصيل . وكل ما أرجوه منك أن تصدقنى .. ولاتتهمنى أنتى وأهم أو مجنون .. لقد كنت أود أن أقص عليك الأمر عند بدء حديثه ، ولكنى خشيت الا تصدقنى .. وفضلت أن أطويه فى صدرى ما دام ليس هناك ضرر فى ذلك . فقد كنت أجد فيه شيئاً خاصاً لن يتعدى دائرة نفسى .. ولا مبرر لأن أفصح عنه لأحد ، خاصة وأنه شيء لا يقره العقل .

ولو أنى سمعت هذا القول من انسان آخر غيره فى مثل ظروفه .. لشككت كثيراً فى سلامة عقله .. ولظننت به اضطراباً فى الذهن والأعصاب .. ولوجدت فى قوله تخبلاً منشأه ذلك الاجهاد الذى حطم قواه .

أجل لقد كنت أتوقع أن تكون اجابته لى قاطعة جازمة بأنه لم يقتل الرجل .. ثم يأخذ بعد ذلك فى سرد الظروف المحيطة .. لا أن يقول لى أنه لا يدري هو نفسه أن كان قتل الرجل أم لم يقتله ولا يعلم اذا كان بريئاً أم مذنباً ، وأنه يسألنى أنا لكى أجيب عنه .

أقول انى لو كنت سمعت هذا القول من اى انسان لاتهمته بالجنون .. ولكن «توفيق» لم يكن الشخص الذى يسهل على اتهامه بالجنون .. فقد ألقى الى قوله بطريقته الهائلة المتزنة التى توحى الى السامع بالثقة فى كل ما يقال له بحيث لا يدع له مجالاً لريبة أو موضعاً لشك .

وقلت له متسائلاً :

- عجب ! انك لاتعرف اذا كنت قتله أم لا !

- انى فى الواقع قد قتلت .. ولكنى لم أقتله هو .. بل قتلت انسانا لا أعاقب على قتله .. أو على الأقل ، لا يمكن أن أعاقب على قتله فى زمننا هذا .. اللهم الا اذا كان الانسان يمكن أن يعاقب على قتل الأموات .. وأى أموات ؟ .. أموات تواروا فى باطن الأرض منذ مئات الأعوام .. ولم يبق منهم الا رماد عظام لا تكاد تميزه من أديم الأرض ؟ ..

وصمت برهة يفكر .. ثم رفع رأسه وسألنى فجأة :

- اسمع .. هل يمكن أن يعاقبك أحد فى أيامنا هذه على أن قتلت كليبر ، أو نابليون بونابرت ؟

- نابليون بونابرت ؟ .. أنا أعاقب على قتل نابليون بونابرت ؟

- أنت ، أو أنا .. أو أى انسان ؟

- طبعا لا .. لسبب بسيط ، هو أنه ليس هناك من يستطيع قتل نابليون بونابرت .. ولا أحقر جندى من جنود بونابرت .. لأنهم قد أضحوا شيئا غير كائن .

- انتهينا .. اذا فليس هناك من يستطيع معاقبتى على الجريمة التى ارتكبت .

- ولكن القتل ليس بونابرت .. وليس كليبر .. بل هو وعم محمد ، الخادم الذى كان بالأمس انسانا يتحرك من دم ولحم .. لا عظام فى باطن الأرض ، ولا أديم ولا رماد .

- ولكنى لم أقتل وعم محمد فليس هناك قط ما يدعونى الى قتله .. انه أكثر الناس نفعا لى .. ولست أتصور كيف يمكن أن تجرى حياتى بدون .. كيف آكل .. كيف ألبس .. أنا أقتل وعم محمد .. لما ..

- أنا لم أقتل إنك قتلت وعم محمد .. ولكنى قلت أن القتل .. الذى أرىق دمه .. والذى طرحت جثته مسجاة على الأرض بلا حراك .. هو وعم محمد .

- القتل هو وعم محمد .. هذا هو المصائب .. وتلك هي العقدة .. ان الذى قتله لم يكن وعم محمد .. ولكن الذى قتل فعلا هو وعم محمد .
وأطرق صاحبي برأسه ، واستغرق فى تفكير عميق .. ثم قال بعد لحظة :

- حسنا .. دعنى أروى لك المسألة من أولها .. خبرنى عن رأيك فى النهاية ، وقل اذا ما كنت برينا أم مختبا .

بدأ الأمر ذات يوم قبيل الغروب ، وقد جلست فى شرفة الدار مستلقيا فى أحد المقاعد الطويلة المريحة أرقب قرص الشمس الملتهب يهبط فى الأفق البعيد رويدا رويدا ، وقد خلف وراءه نبول الشفق الأحمر تبعث بأشعتها الأرجوانية متخللة أوراق الأشجار المتراصة فى حديقة الدار وفى حدائق الدور المجاورة .

وأخذت أحملق فى رؤوس الأشجار الملتهبة كأنها فوهات براكين .. وبدأ لى كأن بصرى قد ثبت فيها لا يستطيع عنها حولا .. وأحسست بتبدل فى الذهن ، واسترخاء فى الأعضاء .. وانتابنى شعور الذى يقع تحت تأثير مخدر .. وبدأت لى المناظر التى أمامى تتلاشى رويدا رويدا .. وفجأة أحسست ببقطة تماما .. ووضح كل شيء أمامى تماما ، كما يحدث عندما تكون فى ظلمة دامسة ، ثم تضغط زر كهربائى فيخمرنا النور مرة واحدة ، ونظرت أمامى فتملكنى دهش شديد .. لقد وجدت تخيرا كاملا فى كل ما يحيط بى .. وتبدل كل ما كنت أبصره أمامى تبديلا تاما .. لنى لم أجد نفسى فى مكان آخر فحسب .. بل فى زمان آخر .

لجل ان ما أبصرته لا يمكن أن يكون فى زمننا هذا .

لقد وجدت نفسى أجلس فى مشربية ملونة بالزجاج بديمة الزخارف تدلى من سقفها - لامصباح كهربائى - بل قنديل زيتى دقيق الصنع .

وبدت لى الدور المقابلة لا يكاد يفصل بينى وبينها الا بضع خطوات وقد ضاق للطريق بيننا ، وأطللت من نافذة المشربية ، فإذا بالطريق يغص بالمارة ، وقد قامت على جانبيه الحوائط المزدهمة .

هل تعرف تلك الطرقات الضيقة التى تحيط بمدرسة «المنية» فى حى «السيدة» ، أو تلك التى تتفرع من «باب الفتوح» ؟ .. أو «بوابة المتولى» ؟ .

كان المكان يشبه الى حد كبير تلك الطرقات .. مع فارق فى ازياء الناس الذين يعيشون فيه . وأبصرت المارة وأصحاب الحوانيت يرتدون العمام الضخمة ، «القفاطين» ذات المراويل والمراكيب الحمراء المدببة .

وأوحى الى ذلك المنظر الذى رأيته - منظر الدور ، والطريق والناس .. ثم منظرى أنا نفسى .. وقد لمحت ساقى تنتعلان «المركوب اياه» و «المروال الفضفاض» بأنى أعيش فى زمن غابر ، غير ذلك الزمن الذى تعودت أن أحيا فيه .

هبطت الدرج الحجرى بعد أن وضعت «العمامة» على رأسى ، وسرت بين الناس فى الطرقات .. فلم أجد أثرا لتزام ، أو سيارة .. بل خيل مطهمة . وعربات ، وحمير .

ورأيت الناس يتحدثون : بأن الوالى قد أمر بأن يعلق على كل باب ، مصباح ، ووجدت بينهم حالة من التذمر ، ولا أطيل عليك الحديث . فقد أدركت بسهولة مما أبصرت من مناظر وسمعت من أحاديث أننى أعيش فى عهد محمد على الكبير .

وأنى أذكر أن ما كان يشغل الناس يومذاك هو أنباء الحملة التى ينوى للوالى توجيهها الى «الوهابيين» تحت إمرة ابنه «طوسون» .. وكان يتحدثون عن السفن التى تم بناؤها والجيوش التى تم حشدتها ، وتمويلها بالمهمات والأسلحة والذخائر .

وعدت الى الدار عقب جولة فى الطرق المجاورة ، وجلست مرة أخرى فى مقعدى حيث كنت أجلس ، وبعد لحظة أحسست بنفس التبدل ، والامتزخاء ، وأخذت المناظر تتلاشى بالتدرج . ومرة واحدة أضيت الأنوار ، فإذا بى حيث كنت .

★ ★ ★

.. وصمتت صاحبي برهة .. ووجدته يجيب على نظراتي المتشككة قائلا :

- حسنا .. قد يبدو لك هذا مجرد حلم .. واننى أغفيت اغفاءة طويلة وأنا جالس فى مقعدى .. ولقد كان هذا فعلا هو ما تصورته .. حتى حدث بعد بضعة أيام أن تكرر الأمر مرة ثانية بنفس الطريقة ، واذا به أجد نفسى مرة أخرى : اعيش فى قرن مضى .

لا أظننى أستطيع اقناعك بمجرد أن أطلب منك أن تثق فى صحة قولى .. وأن تصدق ان ما كان يحدث لى هو شيء أكثر من الأحلام .. هو انتقال فعلى من حياة الى حياة .. وأن الحوادث كانت تمر به فى الحياة الأخرى بنفس الترتيب المنتظم الذى يتبع مرور الأيام .. بمعنى أننى اذا انتقلت اليها لليوم مثلا .. ثم انتقلت اليها بعد ذلك بيومين ، فاننى أجد أنه قد حدث بها من الحوادث ما يقع فى يومين ، وذلك يؤكد ان ما كنت أبصره فيها هو حياة مستمرة ، وابست مجرد مناظر متقطعة . قد يداخلك الشك فى صحة قولى ، ولكننى أستطيع أن أذكر لك من التفاصيل ما يثبت لك بوجه قاطع لئننى عشت فعلا فى ذلك العصر .. أنت تعلم أننى مهندس ، وأننى لم أدرس من التاريخ الا ما درسه سويلا فى مدرسة الخديوية ، والذي لا يبدو أن يكون مرادا سطحيا لنولية محمد على ، الحكم وفترحاته واصلاحياته ، أما التفاصيل الدقيقة عن الحياة فى ذلك العصر .. والتي قد تعرف انت عنها الشيء الكثير بحكم مهنتك كمدرس للتاريخ ، فاننى أجهل الناس بها .

وهزئت رأسى بالموافقة ، ووجدت نفسى أنصت اليه فى لهفة .. وأطلب منه أن يذكر لى تلك التفاصيل ، وبدا يصف لى الطرقات والناس ، ويذكر لى كيف أبصر شاطئ النيل فى المكان الذى تقوم فيه بولاق ، والمطبعة الأميرية ، وقد تحول الى ترسانة لصنع السفن .. وذكر لى أن أطراف المدينة كانت تقوم عند العباسية وأن المكان المفروض فيه أنه القبة الآن .. كان ميدانا للتعبة ، وحشد الجنود ، وأخذ يصف لى تفاصيل دقيقة عن الحياة فى ذلك الوقت ، ويصف لى الطرقات ، والميادين ، والدور ، والحوادث .. وكيف أبصر ميدان السيدة ، والحسين .

ونظرت اليه مشدوها مأخوذا .. فأنا أدرى الناس بصحة كل ما قال ..
فلقد درست ذلك العهد جيدا وقرأت الكثير عنه ، وكان كل ما قال صحيحا مائة
في المائة .. كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ وفجأة خطر لى خاطر خلت أنه كشف
لى عن جلية الأمر .

وهزئت رأسى وقلت لصاحبى كأننى قد حالت اللغز !

- هل قرأت تاريخ الجبرتى ؟

فنظر الى فى غبطة وأجاب متعجبا :

- جبرتى ؟ .. أنا أقرأ تاريخ الجبرتى ؟ .. أئدى وقت لى أقرأ

الجبرتى .

- ولا تاريخ الحركة القومية للرافعى ؟

- لا داعى لهذه الأسئلة .. يجب عليك أن تتق بى ، وتصديق كل ما

أقول .

- أنى أثق بك وأصدق ما تقول .. ولكنى أريد أن أجد تعليلا لما حدث

لك .. ومبررا لأن تعرف فى غيبوبة كل هذه المعلومات الدقيقة . اذا كنت
لم تقرأ شيئا من هذا .. فان المسألة لاشك خارقة للعادة .

وساد الصمت بيننا برهة .. ووجدتنى استغرق فى التفكير .

هذا الرجل الجالس أمامى .. قد أمكنه أن يعيش فى قرن مضى .. ان

معلوماته لاشك أدق من الجبرتى ، ومن أى مؤرخ كتب عن عصر محمد
على .. أنه أبصر محمد على ، أو يستطيع إبصاره .

وسألته فى لهفة :

- هل رأيت محمد على ؟

- رأيت مرة يمر بعربته من أحد الطرق ولمحت بجانب وجهه .

- والنقيب عمر مكرم ؟

- رأيت خارجا من سيدنا الحسين فى جمهرة من الناس .

- ومن رأيت من رجال التاريخ غير هؤلاء .. حدثني بالتفصيل كيف وحيثهم .

ولكنه هز رأسه .. ولم يبد عليه أنه يهتم كثيرا برجال التاريخ وأجاب بعد برهة صمت :

- يجب أن تذكر أنني لم أعش في حياتي تلك كمؤرخ .. ولم أكن أهتم كثيرا بأن أعدو وراء هؤلاء المشاهير لأبصرهم كيف يبدون ، ولا ماذا يرتدون .. لقد كنت فردا عاديا وكانت لي حياتي الخاصة التي أهتم بها .

- ولكن هل كان من حولك يحسون بك ؟

- طبعاً .. هل تظنني كنت بينهم مثبجاً ؟

- وكيف كانت علاقتك بهم ؟ ..

- هذا ما أنوى قصه عليك .. ان تلك العلاقات هي التي أدت الى المشكلة التي أغرقت نفسي فيها .. سأقص عليك كيف بدأت .. لقد تعودت أن اجلس عندما أندفع في حياتي الأخرى على مقهى بجوار باب الفتوح ، وصاحبت من رواد المقهى رجلين من كبار التجار محسن الخيمي ، و عبد الرؤوف الدخاخي ، وفي ذات يوم ، وقد اندمجت في حياتي الغابرة ، وجلست على المقهى بينهم دعائي والخيمي الى تناول الغذاء معه .. وترددت برهة ولكنه ألح على فقبلت . وذهبت الى داره .. دار فخمة البناء ، فاخرة الرياش ، ومد السماط . فتناولنا من الطعام ما لذ وطاب ثم تمددنا على المراتب نحتمى القهوة .

وانتهينا من القهوة .. وسألني مضيفي ان كنت أود أن أرى مستقبلتي في الفنجان .. فأجبتة بالموافقة .. فنأدى على الساقى وطلب منه أن يرسل عائشة ثم التفت الى قائلا :

ان ابنتي «عائشة» خير من أن يقرأ الفنجان .. لقد علمتها القراءة جارية عجوز تولت تربيته بعد أن ماتت أمها .
وبعد برهة أقبلت عائشة !

أجل .. أقبلت ، عائشة فأحسست أن قلبى يكاد يقفز من بين أضلعي .
لقد أحببت بضع مرات فى حياتى هذه .. ورأيت كثيرات من أنواع
النساء .. ولكنى لا أذكر قط أن مخلوقا استطاع أن يفعل بى كما فعلت عائشة .

لا أريد أن أضيع الوقت فى وصفها لك . فليس هذا مجال غزل
وتشبيب ، ولكن ما تكون .. المهم .. هو ما تركته من أثر فى نفسى .. لقد
أحسست أنها سبرت فى دمى وأنى قد أصابنى من سحرها نشوة عجيبة .
وقرات لى الفئجان .. ولم أسمع بالطبع مما قالت شيئا .. وعدت الى
الدار وأنا شبه ثمل .

وعندما عدت الى حياتى هذه .. وجدت أن الشيء الوحيد الذى استطاع
أن يعلق فى نفسى من حياتى الأخرى ، هو : عائشة .

وتعدت بعد ذلك أن أراها فى كل مرة أعود فيها الى حياتى الماضية ..
بل لقد أخذت أتعجل العودة الى تلك الحياة وأفضلها عن هذه الحياة .

وتطور الأمر الى حب متبادل بيننا .. واستطعت ذات مرة أن أخلو
وأياها وأعترف كل منا بحبه للآخر .

وصممت على أن أتقدم لخطبتها ، عندما فوجئت ذات يوم بأن عيد
الرغوف الدخاخنى قد خطبها .

وأحسست كأنما مستنى صاعقة .. وعلمت أن أباه قد رضى به لأنه
سينقذه من الافلاس .. ووجدت أن الطير قد أفلت من يدى .. أو هو يوشك
أن يفلت .

وتملكنى ما يشبه الجنون ، وصممت على أن أفوز بها بأية طريقة ..
حتى ولو كلفنى الحصول عليها .. حياتى .. ما قيمة الحياة بدونها !

والتقيت بها خفية فى حديقة الدار .. فوجدتها قد أنزلها الحزن ..
وانبأتنى أنها لن ترضى بمخلوق سواى ، وأنهم لن يزفوها الى خطيبها الآخر

الا جثة هامدة ، واقتربنا فى تلك الليلة بعد أن سمعنا على أن نهرب سرياً قبل أن يتم الزفاف .

وتركتها وتسللت فى جناح الظلام وهممت بأن أقفز من سور الحديقة عندما أبصرنى الحارس ، وظننى الرجل لصاً .. وصرخ يطلب النجدة .. وعدا خلفى بعصاه للحاق بى .. وأخذت أعدو فى الظلمة حتى تعثرت بحجر فوقعت على الأرض ووجدته قد لحق ورفع عصاه ليهوى بها على .. ولكنى نهضت بسرعة ، وأسكت بالعصا فالتزعتها منه وهويت بها على رأسه فخر على الأرض صريعاً .

★ ★ ★

وصمت صاحبى برهة طويلة ، ثم رفع رأسه وقد زاغ بصره ، وقال :

- هذا هو الرجل الذى قتلته .. رجل كان يعيش منذ مائة عام حاول قتلنى .. فدافعت عن نفسى بقتله .. ولكنى عندما عدت لحياتى هذه ، وجدت أن القاتل لم يكن سوى وعم محمد .

ولم يكن أمامى خيار من الفرار .. لا لأننى أخشى أن أنهم بقتله .. بل لأننى لأريد أن يشغلنى شيء عن انتقامها .. أجل .. لقد أضعت المسألة .. مسألة حياتها أو موتها .. فهى مصممة على ألا تزف إليه الا وهى جثة هامدة ولا بد لى من انتقامها .

ومرة أخرى عاد الى صمته ، ووجدت ذهنى مضطرب بما فيه .

ان صاحبى فى حالة عجيبة لم يسبق لها مثيل .. انه يريد ان ينقذ حياة امرأة ماتت منذ مائة سنة .. ويريد أن ينقذها من زوج لاشك أنها قد تزوجته .. أو تزوجت غيره ، فهو ان يشير فى التاريخ الواقع شيئاً .. لأن ما حدث لاشك قد حدث .

لقد حاول أن يعيد الماضى .. وأراد أن يفعل شيئاً مستحيل فعله .. وينقذ تلك المرأة مهما بذل من حول وقوة .. ولكن اتى له ذلك .

ثم أخذ يهذى كالمحموم الذى تغلبت عليه وطأة المرض ..
وحاولت تهدئته وافهامه أنه مهما كان من صحة قوله فهو يعشق انسانية
غير كائنة ، وأن حالته تلك قد سببت له أن يرتكب فى الحياة الأخرى حوادث
وهمية .. تظهر نتيجتها الفعلية فى حياته هذه .. وأن القانون لا يمكن أن يعفيه
من تهمة قتل عم محمد الا تحت ظرف .. وهو أنه مجنون .

وطلبت منه أن يكف عن حياته الأخرى ، لأنه فى محاولته انقاذ صاحبتة
مرة أخرى قد يرتكب جريمة قتل أخرى أو من يدرى .. قد يقتله الحراس
فى الحياة الأخرى فماذا تكون النتيجة فى حياته هذه !

وأخيرا طلبت منه أن يهدأ ويستريح .. وأن يترك المسألة للصباح ..
فعسى أن يهبنا الله من لدنه رحمة .. ويهيىء لنا من أمرنا رشدا .

★ ★ ★

ولكنى عندما استيقظت فى الصباح لم أجده .. وبعد برهة علمت أنه قد
عاد الى داره .. وأتنبئت أن البواب لم يشعر به الا وهو يهوى من الشرفة فيهبط
الى الطريق جثة هامدة .

وظهرت الصفحة ، لدرى خاتمة الحادث تحت عنوان :
«المهندس الذى قتل خادمه ولاذ بالفرار ، ينتحر بالقاء نفسه من الشرفة» .
ولم يدر انسان ماذا يمكن أن تحوى تلك الأسطر من حوادث خارقة ..
وانطوت بموته حياته المزدوجة .. التى لم يعرف عنها احد سواى وسواه .
ترى كيف كانت خاتمته فى الحياة الأخرى .. هل استطاع انقاذ
صاحبتة ؟ ..

★ ★ ★

كَاْنَتْ هُنَاكَ

ولقد عادت لى بعد ذلك ، لتطاردنى
لى كل مكان ، حتى بت أحس أنى
على وشك الجنون .. ان لم أكن قد
أصبحت بالفعل مجنوناً ..

شيخان .. سيد وخادم .. شدهما الزمن برباط من الود متين . والفت
الأيام بين نفسيهما فأصبحا لا غنى لأحدهما عن الآخر .. فهما أشبه بآسان
وظله ..

أما السيد فهو الأستاذ ، الدكتور عبد الله الشنوانى ، .. أستاذ علم النفس
بالجامعة . عالم من كبار العلماء .. المشهود لهم بالعبقرية والنبوغ ووفرة
العلم .. يحيطه عارفوه ومريدوه بهالة من الاجلال والتقدير والاكبار ، ويحيط
هو نفسه بهالة من الشهادات ذات الأحرف الأفرنجية المتعددة .. التى قل أن
يفكر فى فك رموزها آسان .. وهالة أخرى من المؤلفات والمحاضرات التى
غمر بها المكتبات والمعاهد .. وهالة ثالثة من الشنوذ والشرود والذهول الذى
يلذ للآسان العادى أن يراه فيمن يتخيلهم أرقى منه .. ولست أظننى مهما
حاولت أن أتهمك على الرجل أو أكتب عنه بلهجة ساخرة ، بمستطيع أن أنكر
فيه فضلاً هو السبب فى كل ما وصل اليه .. وهو فرط الذكاء المقترن بطيب
الخلق ، وكرم النفس ، والميل الى فعل الخير .

ويخيل لى أن الرجل قد وجد أن علم النفس اضمحى (مودة) هذا الجبل وأن الانسان من فرط ولعه بنفسه قد أقبل عليها يحللها ، ويشرحها ، ويقتلها بحثا وتمحيصا .. فأتجه الى دراسة ، علم النفس ، وبرع فيه ، كما كان لا شك سيبرع فى أى شىء آخر يوليه نفس الانهماك والاقبال . وقفز الرجل من درجة الى درجة .. ونال الشهادة تلو الشهادة .. وبين عشية وضحاها ، وجد نفسه أستاذًا شهيرًا ، وعالما جليلا .

فإذا ما غرضنا الطرف عن الرجل كعالم وأستاذ ودكتور وتركنا جانباً مؤلفاته ، ومحاضراته ، وشهاداته ، وتلاميذه ، ومقدراته ، وعارفى فضله .. وحاولنا أن نصفه كأنسان عادى ... وتعقبناه فى عقر داره .. وجدناه قد جلس فى حجرة نومه لينضو عنه ملابسه .

الساعة الثانية بعد الظهر ، والرجل قد عاد من الخارج .. بعد أن انتهى من حضور أحد المؤتمرات .. التى تعقد وتنفض دون أن يفهم هو منها شئنا .. فهو اما متكلم أو (سرحان) .. ولا تظن بقية الأعضاء خيرا منه ، فكثيرا ما يحدث النقاش بينهم فى أمرهم متفقون عليه .. أو يحاولون اقناع بعضهم بعضا برأى لم يختلف عليه أحد .

ويبدأ الرجل فى خلع ملابسه وقد وقف بباب الحجرة ، عم على اللبثى ، ، خاتمه الأمين أو ، الفردة الأخرى ، كما كان يحلو لبعض الناس أن يطلقوا عليه .. فهو يكاد يكون صنو سيده .. بين أحدهما والآخر شبه عجيب .. ولو حلا لأحدهما مرة أن يلبس ثياب الآخر فخرج ، عم على ، مثلا من الدار مرتديا بدلة سيده البرمنجوت وياقته المنشأة اللتين لا يغيرهما حتى فى هجير بؤونة ، وأمسك بعصاه وتأبط حافظته ، وكبس طربوشه حتى أنتبه .. ووضع على عينيه منظاره السميك .. لما شك أحد فى أن الرجل هو الدكتور ، عبد الله ، نفسه .. أو لو خطر ببال امرئ أن يجردهما من الثياب ووضع كلا منهما أمام أخيه عاريا لتسبب فى مشكلة كبرى .. إذ يصعب أى نميز الخادم من السيد .. ويزيد المشكلة صعوبة أن الأمر لابد سيختلط عليهما فلا يعرف أحدهما من يكون ، اللبثى ، ، ومن يكون ، الشنوائى ، .

خلق الأستاذ مقرته ، وقذف بها على الفراش ، ثم بدأ يفتك أزرار
البنطلون وتركه يسقط على الأرض ، ثم خلع القميص ورماه على أحد
المقاعد .. ووقف فى أرض الحجرة مرنديا مبروالا من الفائلة الصوف غطى
ساقيه الرفيعتين حتى القدمين ، وفائلة صوف ذات أكمام طويلة ، ولف وسطه
بحزام صوف خمس أو ست مرات ، وحلى رأسه استقر الطربوش ثابتا على
أذنيه .

وكان الشهر وقتذاك شهر يونية ، والساعة - كما قلنا - الثانية ظهرا ..
ولست أظننى فى حاجة بعد ذلك الى أن أصف النار الموقدة التى كان يستعر
أوارها ، ولا ، الشرود ، الذى كان يهب من النوافذ فيلغح الأجساد .

ووقف ، السيد عبد الله ، فى وسط الحجرة وبدأ عليه التأفف ، فقد كان
الصوف يخر جسمه ، ومد ، عم على ، يده بالجلباب الكستور الثقيل ، وسأله
الأستاذ مترددا :

- الممت ترى ان الجو قد دفى بعض الشيء .. ما رأبك فى أن أخلع
الحزام ؟

ولم يجبه ، عم على ، ولا ظهر عليه حتى أنه قد سمع سؤاله بل دفع
اليه بالجلباب وقال له بلهجة حازمة :

- البس بسرعة .. والا تستهوى .

وأمرع الأستاذ بوضع الجلباب على جسمه بسرعة .. فقد خاف فعلا
، أن يستهوى ، .. فقد كان فى مسائل والبرد والحرارة .. وكل ما يمكن أن
يؤثر على الصحة يعتمد اعتمادا كليا على ، عم على ، .. ويثق فيه كل الثقة .

ولم يكن صاحبا قد خلق بعد طربوشه .. فقد كان رأسه هو نقطة
الضعف فيه .. ولم يكن يجسر أن يتركه عاريا لحظة واحدة .. وظل الطربوش
جائما عليه حتى تعطف ، عم على ، ومد له يده ، بالطاقيّة الصوف ، فنزع
الطربوش ، وكبسها ، بسرعة على رأسه .

وبدا الخادم الهرم يعلق الثياب على المشجب .. وجلس الأستاذ يفرك أصابع قدميه ، ويدفع عصاه في قفاه فيحك بها ظهره .. ثم سأل الخادم فجأة :

- عم على .

ورفع الخادم اليه عينيه دون أن يجيبه .. واعتبر السيد هذا بمثابة الرد ، وأردف يتم حديثه :

- ألم تسبح منذ شهرين ؟

- آه .. لقد نسيت .

ولم يكن الرجل قد نسى .. ولكن لم يجد ردا أسلم عاقبة من هذا .. وعاد فضأله بعلا برهة :

- ماذا طبخت اليوم ؟

- قرع .

وبدا الانزعاج الشديد على وجهه .. وقال في استياء :

- قرع ؟ أنا لا أحب القرع .

ونظر اليه ، عم على ، نظرة رادعة :

- القرع خفيف على معنك .. القرع المسلوق .

وازداد انزعاج السيد وعاد يكرر :

- قرع مسلوق ؟ ولكن معننى بخير .

- ليست بخير .

- ولكنى لا أحسن بها ألما .. انها بخير .

- وأنا أعلى أنها ليست بخير ، لقد كنت ، تنكرع ، كثيرا فى الليلة

الماضية .

وهز الأستاذ رأسه وأدرك أنه لا فائدة من المناقشة ، فأتخذ الجانب الآمن .. وأجاب الإجابة التي تقيه الشر :

- آه .. لقد نسييت .. معك حق ، وماذا صنعت حلوا ؟
- بلوظه .

وبدأ الأستاذ على وجه السيد .. وقال بلهجة المغلوب على أمره :
- كنت أفضل البطاطا .. بطاطا مغمسة في العسل النحل .. أنها تماما كالمارون جلاسيه .. بل وخير منه .
- هذه أشياء ثقيلة على المعدة .. هذه رمرمة .

- معك حق .. ان شاء الله عندما تصبح معدتي منجرب هذه الأكلة ..
عندما تخف معدتي تماما .

ولم يجب ، عم على ، فقد تحرك خارج الحجرة بعد أن أتم عملية تعليق الملابس وتفرishها .

وجلس الأستاذ يتناول طعامه .. ويدفع بالقرع المسلوق في جوفه متقرزا متأنيا ، وهو يرقب ، عم على ، الواقف على باب الحجرة بنصف عين .. وقد تملكه منه حنق شديد .. وطافت برأسه صحبتهما القديمة .. وتذكر صباهما وكيف أرسله أبوه معه من البلاد لخدمته والعناية بأمره .. كان ذلك منذ أربعين عاما .. وذهب الاثنان الى القاهرة .. فاستقر بهما المقام في إحدى حجرات شارع ، ممتاز ، بالبغالة .. منذ ذلك اليوم لم يفارق أحدهما الآخر لحظة واحدة .

هل من الانصاف بعد كل هذا ان يوصف ، عم على ، بأنه كان خادما

له ؟

طبعاً لا . وهو ليس من الضعة وانكار الجميل بحيث يعتبر الرجل خادما فقد كان له كل شيء : كان الأب ، وكان الأم ، وكان الزوجة .. وكان الشيء الذي لولاه لما كان هو نفسه .. ولما وصل الى ما وصل اليه .. لقد كان المشجع ، وكان النصير .

أربعون عاما .. تقلب كلاهما بين يدي الزمن في رفع وخفض ، وسراء
وضراء .. وهما متلازمان متماسكان .

كم سهر بجواره يعينه على الاستنكار تحت ضوء المصباح الغازي
الخافت .. وكم أرق لمرضه ، وجاع ليطعمه .. كم تحمل في سبيله الأذى
والضرر .

وبدأت الحياة تنقسم وأخذ يرتقى الدرج شيئا فشيئا وبدأ يسطع نجمه ..
وكان « عم علي » يعرف واجبه تماما ويعرف كيف يدبر أموره ، ويرتقى
بالمسكن والملبس ووسائل العيش حتى يجعلها تتناسب دائما مع مركزه في
الحياة .

ولم يكن هو نفسه له دخل في هذه الأمور .. بل كان له « عم علي »
سميحا مطيعا .. فهو يعتبر أن الرجل ولي أمره .

وهكذا وجد نفسه ينتقل من « البغالة » إلى « جنينة ناميش » إلى « جنينة
رشيد » إلى « المنيرة » .. ولو كان الأمر بيده ، لظل كما كان ، في حجرته
بالبغالة .. ولظل مداوما على الفول والطعمية ، والعمل والطحينة - وفي
حالات اليسر - البيض والعجوة .

أربعون عاما .. لا يستطيع أن يتصور كيف كانت تمر به لولا « عم
علي » .

وازدرد الرجل آخر قطعة من القرع المسلوقة . وأمسك بالمعلقة يدفع
بها في « طبق البالوظة » بمنتهى التبرم والاشمئزاز .

ورفع عينيه إلى الرجل الواقف بجوار الباب كأنه تمثال لا يتحرك
ورمقه بنظرة حنق وغضب ، وعاد يحدث نفسه :

لقد أضحي الرجل لا بطاق ، وأنه ليكاد يضيق به ذرعا وينسى له فضل
الأربعين سنة من فرط ما يسبب له من مضايقات ، ما ضره لو استبدل بالقرع
بطاطس أو باذنجان ، ثم ما الداعي لهذا الإصرار منه على الحزام الصرغ
الذي يتقل به بطنه .

ولكن الذئب نذبه هو .. فهو المستكين المستسلم ، وهو الجاهل الذى لا يعرف من شؤون الحياة شيئا .. لم لا يحضر له طباشير ويحضر له بضعة خدم اخرين .. لقد كبر ، عم على ، ومن الحق ان يفرض نفسه عليه مدى الحياة .. انه قد أضحى هو نفسه فى حاجة الى من يخدمه ، لقد أضحى متعبا .. ومتعبا . وزاد الطين بلة هذا الصمم الذى أصيب به أخيرا مما يضطره الى الصياح به بضع مرات حتى يستجيب لندائه .. ولقد تعود الرجل أيضا أن يحدث نفسه ، وأن يرى أشياء لا يراها سواه ، أشباحا أو أرواحا أو شيئا من هذا القبيل .. ربما خيالات وأوهاما .. وهو يسبب له بذلك ازعاجا شديدا .. حتى أنه ليخشى أن ينتهى الأمر بأحدهما الى الجنون .

وسمع ، عم على ، يتمتم لنفسه ببضع كلمات .. فأصابته الامتاز رجفة شديدة ، ولم يجد خيرا من أن يكلم الرجل حتى يمنعه من الحديث الى نفسه ، فصاح به :

.. عم على ...

ورفع الرجل بصره ولم يجب .. واستمر الأستاذ :

- سيزورنى اليوم ضيف فى حوالى الخامسة بعد الظهر ، أرجو أن تجهز لنا شايًا .

وصمت لحظة ثم أرفف :

.. ضيف عزيز ورجل محترم من عليّة القوم .. فأرجوك أن تخرج الطقم الصينى المذهب .

وأشار الرجل برأسه علامة الموافقة .

وعاد الأستاذ يؤكد :

- الطقم الصينى المذهب .. سامع ؟ لا أريد أن تخجلنى أمام الرجل بالفناجين الفخار الصفراء .

وقام ، الأستاذ ، ليغسل يديه ، ثم اتجه الى حجرتة ليضطجع ومر بالخادم وهو يزيل بقايا الطعام من فوق المائدة فقال له للمرة الرابعة :

- الطقم الصينى يا ، عم على ، .. لا تنس .

وأشار الرجل بالموافقة دون أن يصيبه أى ضيق من الحاج سيده ،
والواقع أن هذا الالحاح من جانب الأستاذ لم يكن فى غير موضعه .. فقد كانت
مسألة ، طقم الشاى ، من المسائل التى ظلت معلقة بينهما لم يحسما نقاش أو
نزاع .

ف ، عم على ، يتخذ من طقمى الشاى معيارا يزن به أقدار الناس .
فتراه قد قسم الضيوف والصحاب الى قسمين : قسم مرغوب فيه ، وقسم غير
مرغوب فيه .. أو كما يقول هو : الأشرار والأبرار ، وهو يصر على الا
يشرب الأشرار الا فى الفخار .. أما الطقم الصينى فهو يحتفظ به للذين يود
أن يخصصهم برضائه ، ويشعرهم باعزازه وإكرامه .. وهو يعتبر نفسه فى هذه
المسألة .. مسألة الفخار والصينى دكتاتورا مطلقا .. الذى يقرر أهل الصينى
وأهل الفخار .

وكان من المحتمل الا تزعج ، الأستاذ ، هذه المسألة ، وأن يقبل تحكم
الرجل فيها كما قبل تحكمه فى غيرها ، لولا أنه يحس أن ، عم على ، يخلط
بين أقدار الناس ، فيقدم الصينى لم لا يستحقه ويقدم الفخار لم يستحقون
الصينى . فلم يجد بدا من أن يحذر ، عم على ، فى كل مرة ويفهمه عن الطقم
الذى يجب أن يقدم ورغم هذا التحذير والتفهم .. كان ، عم على ، لا يفعل
الا ما فى رأسه .

واليوم سيزوره رجل من كبار الرجال ذوى الشأن والمكانة ليستشير
فى مشكلة ألمت به .. وليسأله العون والنصح باعتباره من كبار علماء
التفكير .. وهو يخشى جدا أن يخجله ، عم على ، كعاقبة ، فيقدم ، الشاى ،
للرجل فى الطقم الفخار .. فلم يجد بدا من تحذيره والالحاح عليه .

ودقت الساعة الخامسة ، ودق معها جرس الباب ، وكان الأستاذ قد
انتهى من ارتداء ملابسه ، وسمع ، عم على ، بفتح الباب ، ويدخل الضيف
فى سكون الى حجرة الاستقبال فوضع المنظار على عينيه ، وكبس الطربوش

على رأسه ، وهروا لتحية الرجل ، وصانف ، عم على ، خارجا من
الحجرة ، فعاد يكرر عليه للمرة الأخيرة :

الطقم الصينى يا ، عم على ، .

وهز ، عم على ، رأسه موافقا كعادته دون أن ينبس ببنت شفة .

وجلس ، الأستاذ ، يحيى ضيفه ، ويحيطه بما يليق بمكانته ومركزه من
آيات الاحترام والاجلال . وجرت بين الاثنين أحاديث سطحية عابرة .. عن
الجو .. وعن السياسة .. والغلاء .

وبعد فترة دق الباب ، ثم دلف ، عم على ، الى الحجرة متحركا ببطء
وتؤدة حاملا صينية رصت عليها الفناجين وبراد الشاي وبقيت الأدوات ، وكان
الأستاذ موليا ظهره لباب الحجرة فلم ير الرجل حتى لف حوله ووضع الصينية
فوق المنضدة .

ونظر ، الأستاذ ، الى الصينية ، وأحس بخيبة أمل شديدة ! ان الرجل
الغنى اللعين قد ركب رأسه وضرب برجائه عرض الحائط .. فلقد أبصر على
المنضدة الثلاثة فناجين الفخار ! . وعلام الفناجان الثالث ؟ .. ترى هل ينوى
الأحمق أن يجلس فيشاركهما الشاي ؟ من يدري ؟ قد يفعلها .. فقد تطور فى
السنوات الأخيرة فأضحى لا يستبعد عليه أى شيء .

ورفع السيد بصره الى خادمه الذى وقف فى صمت بجوار المنضدة
والتفت الأبصار ، وكان كل منهما يستطيع ان يقرأ ما فى رأس الآخر
بسهولة .. ولكن فى هذه المرة لم يجد فى عينى خادمه ما يقرأ .. فقد بدا عليه
شيء من الشرود .. الشرود الذى يبدى وكأنه يرى أشياء غير مرئية ولا
لموسة .. ولشد ما كان ذلك يزعج ، الأستاذ ، ، ويخيفه ، فأمر خادمه أن
يغادر الحجرة لأنه سيصيب الشاي بنفسه .

وأخذ الأستاذ يصيب الشاي ، وبدأ صاحبه يقص قصته .

قال الرجل : ان مسألته من المسائل التى يصعب على العقل البشرى

نصديقها ، فهو مصاب بشيء لا يحس به مواء ، وهو يخشى أن يقصه على الناس فيتهموه بالجنون ، ولذا فقد لجأ اليه لأنه يعتقد فيه سعة العقل وهو لا شك يستطيع أن يفهمه جيدا . كان الرجل يعرف في صباه امرأة من بنات الهوى .. وحملت منه المرأة فحاول اجهاضها عبثا .. وحان وقت ولادتها فنقلها الى احدى المستشفيات ، وكانت ولادتها عسيرة مضنية .. وأخيرا وضعت الجنين .. وماتت هي ، وأوصته بإبنها خيرا وهي تلفظ آخر أنفاسها .

ورشف الرجل من فنجانه الأصفر رشفة طويلة وعاد يقول :

- لتتصور يا سيدي موقفى وأنا فى السنة النهائية من الدراسة .. وأنا أعيش فى بيت والذى الرجل القاسى الصارم .. وقد اتجبت ابنا ، لا أم له .. ولا انسان يحمل عنى عبئه .. لقد حملته الى أحد الفنادق .. واستأجرت واياء غرفة .. آويه فيها .. حتى أستطيع ان أكبر أمرى وأمره .

وكانت ليلة عاصفة شديدة البرد ، والريح تعوى فى الخارج عواء ذئاب ضارية . وينفذ فحيحها الى الحجرة من خلال النوافذ كأنه فحيح الأقاعي .. وأجهنت رأسى لكى اجد لى مخرجاً من مأزقى . وأخيرا مر بذهنى خاطر عجيب .. استطعت بواسطته أن أتخلص من حملى الى الأبد .

لقد خطر لى أن هذه الريح العاوية خير من يحمل عنى عبئى .. فلو فتحت لها النافذة وسمحت لها بالدخول لحظة وأطلقت قراها على الطفل .. فانها لا شك ستكون القاضية .. وسيموت الطفل دون أن يكون هناك أى مظهر مظاهر الجريمة .

وبعد لحظة كانت الريح تزار فى الحجرة .. والطفل يرتجف ويرتعد .. وفى الصباح قضى الأمر .. وذهبت الى الدار بعد أن القيت عنى ما أثقل كاهلى !

وصمت الرجل برهة شرد فيها ذهنه وعاد يتمتم :

- لقد ظننت أنني تخلصت من العبء نهائيا .. فلقد ذهبت الأم .. وذهب الطفل ، وأصبحت حرا طليقا من كل قيد .. ومرت بى الأيام وأنا أغترف من

ملذات الحياة حتى شبعت وارتويت .. ثم شعرت اخيرا بحنين الى الاستقرار
والى أن يكون لى زوجة وبيت وأولاد . وفلا تزوجت .. ووضعت امرأتى
أول طفل .

وفى ذات ليلة .. ليلة ليلاء سوداء .. أحسست بالنافذة تفتح على
مصراعها وبالريح تتدفق من النافذة وبعد بضعة أيام مات أبنى .

وقد تقل أن الحادث مجرد صدفة .. وقد كنت أستطيع أن أقنع نفسى
بذلك . لو لم أرها بعينى رأسى تعدو منطقة من الحجرة بعد أن فتحت النافذة .

من هى ؟ .. المرأة القديمة ، التى قتلت ابنها . لقد عدوت خلفها وهى
تعدو الى الباب بعد أن فعلت ما فعلت وحاولت أن أهوى على رأسها بعصاى
هذه .. وذهلت زوجتى وحاولت أن تمسك بى .. لأنها لم تستطيع أن تبصرها
كما أبصرتها .. وظننتى أتخيل خيالات ..

ولقد عادت لى بعد ذلك . لتطاربنى فى كل مكان ، حتى بت أحس أنى
على وشك الجنون .. أن لم أكن قد أصبحت بالفعل مجنوناً .

وصمت الرجل وبدأ الأستاذ يهدى من روعه ويوهمه أن ما به عقد
نفسية ناتجة عما يحسه من تأنيب الضمير على الجرم الذى ارتكبه .. وأنه ليس
هناك أية امرأة تطارده .. وأن النافذة قد فتحتها الريح .

وأخيرا خرج الرجل بعد أن هدأت نفسه بعض الشيء وأقبل « عم على »
ليحمل صينية الشاى .. وتذكر الأستاذ مسألة الفنانين وكيف أخجله « عم
على » مع الرجل بالفنانين القفار فضغط على أسنانه وصاح به ناهرا لأول
مرة فى حياته :

- ألم أقل لك أن تقدم الطقم الصينى .. لقد كررت عليك الرجاء مائة
مرة .. ماذا أصنع بك ؟

ونظر « عم على » اليه وقال بهدوء :

- الطقم الصينى ليس به سوى فنانين ! .

- ومن قال لك أننا نريد أكثر من فتجانين ؟

وصمت ، عم على ، برهة وهز رأسه وقال وهو يحمل الصينية ويغادر
الغرفة ببطء وثقل ، وفي عينيه النظرات المارقة التي تظهره كأنه يرى أشياء
خفية :

- لم أكن أظن أن المرأة التي تبعت الرجل .. مستصرف دون أن
تحتسب الشاى .

★ ★ ★

صِرْتُ بِمِثْلِهِ

... ولم استطع أن أقول غير
ذلك .. أأقول مات من الذعر ؟ من
الحديث التيلهونسي ؟ من كان
المتحدث ؟ .. وماذا قال ؟ .. ولم ؟

كنا صحبة لسمر ذات ليلة .. وتشعب بنا الحديث ذو الشجون ، فإذا
به يخوض بنا في العالم المجهول ، عالم الأرواح ذي اللجج العميقة والمجاهل
والمضال وألقى كل منا بما يعرف .. وما لا يعرف .. وهذا حديثنا أقرب إلى
القرمات والأباطيل .. والأقاويل والأضاليل .. ولم أجد في كل ما قيل أكثر
من خبطات عشواء في غياهب شك ، وظلمات ترجيم .

وتتابع الحديث ، واحتدم الجدل .. كل يسوق الأدلة ويضرب الأمثال ..
وكان بيننا زميل طبيب لزم الصمت فما فاه ببنت شفة .. واستمر بنصت ولا
يتحدث حتى أفرغنا ما في جعبتنا من هراء ولغو وهذيان .. ثم رأيته يهز رأسه
ببطء كأن هناك ما يحيره ويشتغل ذهنه مما لا يود قوله .. وقلت له متسائلا :

- ما بالك ؟

- لاشيء .. خير لنا أن نكف عن الحديث في الموضوع .. فنحن
أعجز من أن نستطيع فهم حقيقته ، أو ادراك كنهه .. وخير لنا أن نقتع
بظواهره من خفاياه ولا نحاول كشف غياهبه .. فكلما ازددنا توغلا فيه ازداد

علينا حلقة وتعقيدا .. لنُدع العالم المجهول .. مجهول كما هو .. ولتلق أنفسنا
خطر علمه .. فلقد صادفتني حادثة .. لها بهذا العالم صلة . حاولت أن أفحص
فيها وأبحث وأجد في التعليل والتفسير .. ولكنى لم أفر بطلائل .. ونأيت بذهنى
عنها خشية الجنون وقبلتها على علاقتها .. وفزت من العلم بسلامة العقل .
وصمت الطبيب برهة استعاد فيها الحوادث الى ذهنه .. ثم قال :

- لست أدري .. لم كنت أول من لجأ اليه خادمه عندما وجده ميتا فى
مقعده .. ولكن أغلب ظنى أن الخادم نفسه لم يخطر على باله أن سيده مات
فعلا ، عندما اقتحم عليه غرفته بعد أن وجده قد تأخر فى الاستيقاظ على غير
عادته .. ففوجيء بأن يراه قد تمدد على مقعده الضخم بجوار آلة التليفون وهو
بكامل ملابسه .. ولم تخطر على بال الرجل فكرة الموت .. بل ظن أن المسألة
لاتعدو اغماص بسيطاً فأسرع فى استدعائى .

وبدت وفاة الرجل للمستولين وفاة طبيعية .. لا دخان حولها ولا غبار
عليها .. فقد مات الرجل بالمسكنة القلبية .. ولم يكن هناك أى احتمال لأن يقال
شئ غير هذا .. ومع ذلك فقد كنت احس فى قرارة نفسى بما ينبئنى أن فى
وفاة الرجل شيئاً خفياً .. لقد كنت أعلم أكثر من غيرى .. أن الرجل ذو قلب
مليم قوى .. فقد كشفت عليه منذ بضعة أيام ، ولم أجد به ما يبعث على
القلق .. ثم ما معنى تلك التعابير العجيبة التى ارتسمت على وجهه الميت ؟

كنت أعرف الرجل منذ سنين خلت .. فقد كنا جيرانا فى المعادى ..
ولم تكن داره لتبعد عن دارى الا مسيرة دقائق معدودات .. وعرفته فى أول
الأمر كرفيق قطار .. تشابهت مواعيدنا .. فتكرر لقائنا فى القطار ذهابا
وعودة .. حتى كنت لا يكاد يمر على يوم دون أن أبصره .. ولم يكن هناك
بد .. والأمر كذلك - خاصة وإن الرجل لم تكن تبدو عليه سيماء شر .. ولا
مخائل سوء - من أن تنشأ بيننا صداقة عابرة لايزيد مظهرها عن ايماء
بالرأس ، وتبادل بضع كلمات عن الجو ، والسؤال عن الصحة .

كان للرجل اسمر الوجه خليفه .. على شئ من البدانة والترهل وثقل
الحركة .. وكان يبدو فى الحلقة الخامسة من عمره أبرز ما فيه مظاهر الطيبة

التي تبدو في قسماته ، والتي تعززها تلك المسبحة التي لا تفنأ حباتها تنزلق بين أصابعه .. وتلك الهمسات غير المسموعة التي تتمتع بها شفتاه .

وازدادت بيننا أواصر الصداقة .. فعلمت أنه رئيس قلم في إحدى المصالح ، وأنه يملك فوق مرتبه دخلا ثابتا من أرض لزوجته مما يجعلها في بسطة من العيش .. خاصة وأنهما لم ينجبا أبناء .. ويمر الأيام بدأت أتبادل مع الرجل الزيارات المنزلية فوجدته وزوجته مثلا لزوجين راضيين قانعين ، يجد كل منهما في قناعته بصاحبه أقصى متعته في الحياة .

وعندما أقول زوجان راضيان قانعان قد يبدو ذلك الوصف طبيعيا بالنسبة لأي زوجين .. لأن المفروض في الزوجين قناعة كل منهما بصاحبه .. ولكني من جانبى أرى أن الوصف على شيء من الغرابة .. لأنى لا أعتقد أن القناعة شيء طبيعي من جانب الرجل - وليعذرني الرجال على هذه الصراحة ، فكلنا في الهوى مواء - لأن الرجل خلق بطبعه شديد التعطش الى النساء .. لا تروى غلته امرأة واحدة .. ولا اثنتان .. ولا عشرة .. ولا مائة .. فهو دائم التطلع الى كل حسناء يقع عليها بصره .. قد يختلف الرجال في قدرتهم على كبت ذلك التشوق وإخفاء تلك اللفة .. وقد يتفاوتون في مدى مهارتهم أو السيطرة على نفوسهم .. ولكن ما من شك في أنهم في بطونهم رجل واحد بمعنى أن يرمى في أحضان أول حسناء تصادفه .. حتى ولو كانت له مائة زوجة .

وعلى ذلك فقد كنت أرى في قناعة الرجل بزوجته .. وفي رغبته عن سواها وزهده في غيرها .. حتى ولو بمجرد التطلع أو الحديث شيئا يستدعى منى التقدير والاعجاب .. وكنت أدهش من ذلك الامعان منه في النأى عن كل ما يتصل بالنساء وبمسيرتهن .

وعندما زادتني الأيام معرفة بالرجل وبزوجته بدأت أسائل نفسي :

ترى أن ذلك الاخلاص منه والوفاء مبعثهما شعور صادق بالقناعة والرضا .. أم أن مبعثها ليس سوى خشية المرأة والخوف منها ؟ لقد كانت الاجابة عن ذلك أمرا عسيرا .. فالرجل ممثل جيد .. لا يستطيع الانسان

بسهولة أن يسبر غوره .. ولكنى كنت أميل الى الاعتقاد الأخير - لا لأنى من أنصار المبدأ القائل بأنه لا يوجد فى الدنيا رجل قنوع بامرأته قناعة حقيقية غير مكره عليها - بل لأن المرأة فعلا كانت من نوع شديد السيطرة ، قوى المشيكة .. تتحكم فى كل شيء ، وتتصرف فى كل نafهة .. وكان هو مسميها مطيعا ، راضيا قانعا .. أو هكذا كان يبدو .. فقد كان كما قلت ممثلا جيدا .

وفى ذات يوم أصيبت المرأة فجأة بنزيف فى الرئة .. وأخذ مرور الأيام ينهش من حياتها حتى تركها جسدا طريح الفراش هزيلا نحिला .. وعندما ماتت لم يكن فى موتها أية مفاجأة .. فقد كانت نتيجة منتظرة محتومة .. ولا أظن الرجل الا قد حزن عليها ، وان كان قد حاول جهده أن يبدو متمالكا متماسكا وبأن يتذرع بالصبر والايمان وبـ "انا لله وانا اليه راجعون" وبدا عليه هزال شديد فى الفترة التى أعقبت الوفاة .. وكان دائم الوجوم والأطراق .. وخيل الى أنه يقاسى الم الفرة والوحدة .. حتى وجدته بعد فترة من الوقت يسند نفسه .. ويعود الى سابق حالته .. لانهول ولا نبول .. ولا وجوم ولا أطراق .

ولم أجد فى أمر الرجل شيئا من الغرابة .. لأنى أعلم أنه ما من نعمة من الله بها على عبده خير من نعمة النسيان .. وأنه ما من حزن أصاب الانسان الا وكان الزمن كفيلا بمحوه .. كل شيء فى الحياة الى الزوال مصيره .. حتى الأحزان ، والأشجان .

أقول أننى لم أدهش فى أن يعود الرجل الى نفسه .. ولكنى دهشت كثيرا عندما وجدته قد عاد الى أكثر من نفسه .. لقد لمحت به كثير تحول وتبدل .. فما عاد يعرض عن سير النساء أو يتجنب الحديث عنهن كما كان يفعل قبل وفاة زوجته .. وما عاد يخشى أن يبدي إعجابه بهذه أو بتلك .. وذهب عنه قديم زهده ، وسابق تعففه .. وبالطبع لست أقصد بقولى هذا أن الرجل قد تحول فصار زير نساء .. أو أنه قد بات صائد غوان أو مطارذ ظباء .. فانه مازال كما هو بطيبته وحيائه .. ولكنى تبينت ذلك التحول من طريقة حديثه .. فقد بدأ يكشف الحجاب عن نفسه ، ووضح لى أنه مخلوق مثلنا يستمتع ويتمنى

ويشتمى ، ولم أشك وقتئذ فى أننى كنت على حق عندما ظننت أن مبعث زهده وعفته كان خشية من امرأته التى كانت شديدة السيطرة عليه .

وصادفت فى بضعة مرات امرأة من أصدقاء زوجته تزوره فى داره .. امرأة لا أظن هناك أصدق من وصفها من بنت حنته ولم يكن من العسير أن أكتشف أن صاحبنا مفتون بها .. فقد كانت توجد فى نفسه حالة سرور ونشوة ، ولم يكن يتورع من أن يخلع عليها ألفاظ المديح والثناء .

وفى ذات يوم - ولم يمض على وفاة الزوجة الا أشهر معدودات - بدا لى من حديث الرجل أن به رغبة فى زواج المرأة .. لولا أنه يخشى بعض أقاربه الذين سيعارضون فى ذلك .. ولست أدري أى شيطان جعلنى أتمنى فى ذلك الوقت أن أرى زوجته فى قبرها حتى أخرج لسانى لها ولغيرها من المخدوعات فى مسألة الوفاء الزوجى وفى قناعة للرجل وزهده .

ومرت الأيام ، وأنا أحس أن الفكرة قد اختمرت فى نفسه ، وأنه قد يقدم عليها فى أية لحظة رغم معارضة أقربائه حتى وجدته يقبل على ذات مرة فى دارى وقد بدا عليه قلق ظاهر .. وجلس يتحدث الى وهو يحاول أن يبدو طبيعيا الى أن قال فجأة :

- اسمع .. وقع لى اليوم حادث غريب يحيرنى أشد الحيرة .. لقد غادرت مكتبى فى هذا الصباح لفترة قصيرة وعندما عدت لتبأنى حاجب المكتب ان سيدة طلبتنى فى التليفون وطلبت منه بأن يتكرونى بأن أحضر الفنان من التنتلرى فقد مضت عليه مدة طويلة .. وأدهشنى قول الرجل دهشا شديدا .. فان زوجتى قبل وفاتها قد أرسلت أحد ثيابها لتنظيفه ، وما زال الثوب هناك حتى الآن .. ولا أظن أن هناك من يعرف أمره الا أنا ، وهى ، وصاحب المحل .

مسألة غريبة ! ولست أنكر أن دهشى لم يكن أقل من دهشه .. ولكنى حاولت أن أجد تفسيراً لأخفف من قلقه فقلت له أن المتحدثة لابد قد أخطأت الرقم ، وأنها قد تكون زوجة موظف آخر لها فستان تريد من زوجها لحضاره وأن المسألة قد حدث فيها التباس .

وبدا لى أن الرجل يحاول جهده أن يقنع نفسه بما قلت .

وفى اليوم التالى أقبل على الرجل وهو أشد تجهما وأكثر قلقا وأنبانى أن المحادثة تكررت .. وأنه لم يجد بدا من الذهاب لاحتضار الثوب .. وعندما عاد به الى الدار أقبل عليه الخادم ، وقد بدا عليه الانزعاج وانباه أن سيدة تحدثت فى التليفون وقالت انها ، المرحومة ، وطلبت منه عندما يحضر سيده القستان أن يعلقه فى الدولاب الأوسط .

ولولا ما كان يبدو على الرجل من ذعر شديد لانطلقت مقهقه فانى لم أشك أن المسألة عبث عابث .. وإن ماجنا يحاول أن يهزل مع الرجل هزلا ثقيلًا .. واخذت أهدى روعه وأفهمه أن الأمر لا يمكن أن يكون الا مزحة بلهاء ..

وعلمت ان الرجل متعب الأعصاب . وأن تلك المزحة الخبيثة قد صادفت من نفسه مرتعا خصبا للازعاج .. فنصحته أن يأخذ اجازة وأن يخلد الى الراحة التامة .

وصرفتنى عنه ظروف العمل ثم لقيته بعد ذلك بأسبوع .. فها لنى امره .. اذ وجدته قد أصابه هزال شديد وبدا شاحب الوجه غائر العينين .. وسألته فى نهش عما أصابه .. فأجاب لاشيء .. وعدت ألج عليه فى السؤال قائلا :

- لا بد أن يكون هناك شيء .. أما زالت تقع تلك المحادثات التليفونية ؟

وتتهد الرجل تنهيدة طويلة كمن يرزح تحت عبء ثقيل ، ثم قال فى ذهول :

- فى كل مكان أذهب اليه .. أجد منها رسالة تليفونية تنتظرنى .. فى المقهى .. وفى النادى .. وفى المكتب .. وفى المنزل .. وأؤكد لك ياسيدى أن المحادثات لا يمكن أن تكون مزحة مازح .. ففى معظم الأحيان أجد فيها أشياء عن الماضى لا يعرفها الا هى ، وأنا ..

- قد تكون المسألة مجرد توارد خواطر .

- مع من ؟ انها تذكرنى أحيانا بأشياء أكون قد نسيتها تماما .

- ولكن هذه الأشياء لاشك موجودة فى عقلك الباطن .

- ياسيدى ! لاتدعنى اتهمك بالسخف ! من نظن ذلك الذى يظل يطاربنى بين القاهرة والمعادى لينقب عما فى عقلى الباطن لكى ينقله الى فى التليفون بعد ذلك ؟ . ثم هناك أمر آخر ، هل تصدق أننى ذهبت لزيارة بعض الأقارب فوجدتهم فى حالة ذعر مخيف وأخبرونى أنها قد طلبتنى قبل ذلك بلحظات وأن من ردت عليها استطاعت أن تميز صوتها تمام التمييز . انها تعرف كل مكان أذهب اليه ، حتى ولو ذهبت اليه فجأة .

ولم أدر بم أجيب الرجل .. فقد كانت أعصابه محطمة ، ولم يكن هناك فائدة من الحديث معه .. وعندما فحصته طبيباً وجدته سليماً معافى ليس به الا اجهاد جسمانى ناتج عن الأرق .

وهدأت روعه بعض الشيء وحاولت أن أفحص المسألة معه فى هدوء ... قلت له :

- هب أن ذلك الذى يطلبك حقاً زوجتك .. ماذا تظنها تريد منك ؟

قلت ذلك وأنا أتوقع منه أن يجيب بأنها تريد الا يتزوج .. ولكنه هز رأسه قائلاً :

- لاشيء .. انها لم تذكر ذلك الشيء الذى قد خطر ببالك .. كل ما تطلبه أشياء بسيطة تافهة كاللتي كانت تطلبها فى حياتها .. أو تذكرنى بأن أفعل كذا وكذا .. ولاشيء أكثر من ذلك .. ويخيل لى أنها بذلك تحاول أن تقحم نفسها فى حياتى مرة أخرى وأن تستعيد نفوذها على .

- وماذا يخيفك من ذلك .. فدعها تفعل كما تشاء .. حتى تمل من تلقاء نفسها وتتركك .

- ياسيدى العزيز .. ان أكثر ما أخشاه أمر واحد .. ان محادثاتها تقترب منى شيئاً فشيئاً .. أعنى أننى لا أكاد أذهب الى مكان حتى يخبرونى

أنها تحدثت منذ دقيقة أو دقيقتين .. ولست أدري والله ماذا يمكن أن يحدث لي إذا ما رفعت السماعة ذات مرة .. فسمعت صوتها ..

أجل لشد ما يخيفنى ذلك فما أظن أن هناك امرءا قد خاطب الموتى قبل ذلك .. إن ذلك الأمر يسبب لى ذعرا شديدا .

وكانت هذه هي المرة الأخيرة التى أبصره فيها الرجل على قيد الحياة . فقد رأيته بعد ذلك عندما استدعانى الخادم . فوجدته ممددا على مقعد بجوار التليفون وقد تلبت السماعة بجواره .. وارتسمت على وجهه علامات ذعر شديد .. وقال الخادم أنه سمع جرس التليفون يدق فى السماء .. ثم سكن الرنين فأدرك أن سيده لابد أن يكون قد أجاب عليه .

وفى الصباح وجده على حاله تلك وقالوا ان الرجل قد مات بالمسكنة .. ولم أستطع أن أقول غير ذلك .. أأقول مات من الذعر ؟ من الحديث التليفونى ؟ من كان المتحدث ؟ .. وماذا قال ؟ . ولم ؟

★ ★ ★

وصمت الطبيب وارتسمت على وجوهنا علامات دهش شديد .. ورأيتنى أفكر فى كل ما قال .. وأحاول أن أجده له تفسيراً .. اننى شخصيا لا أؤمن بالأرواح ولا بالعالم المجهول .. ولكنى أؤمن بالبشر ، وب عقل البشر ، ورداءة للبشر .. لست أدري لم ذهب ذهنى .. الى أقارب للرجل الذين كانوا يكرهون زواجه فى المرأة التى كانت على وشك أن يتزوج بها ثانية .. الا يمكن ان يكونوا هم الذين دبروا تلك المحادثات التليفونية لاختافة الرجل حتى حطموا أعصابه .. الا يمكن أن تكون واحدة منهم هى صاحبة المحادثة التى تسببت فى قتله ؟ أم ترى أن الصوت كان حقا من العالم المجهول ؟ . من يدري ؟

★ ★ ★

فَدْرُ الْبَيْتِ إِلَى

كم أود الانطلاق من هذه الدار ..
أن روحي حبيسة فيها . انى أود
الانطلاق الى ما هو أكثر رحابة
وسعة .

استقر بهم المقام أخيرا فى هذه الدار الرحبة الواسعة بحلمية الزيتون ..
ولم يكن صاحبنا ليصدق انه يستطيع الحصول فى هذا الوقت الذى استبدت
فيه أزمة المساكن وارتفع ايجارها على مثل هذا المسكن بمثل هذا الأجر ..

من يصدق هذا ؟ فيلاء من بابها .. خمس حجرات متسعة وبدروم
وحديقة مترامية الأطراف بخمسة جنيهاً وبلا بخلو رجله .. لقد كانت
بلاشك صفقة عجيبة .. أغلب الظن أن أحدا لا يعلم بخلو الدار ، والا لما
استطاع الحصول عليها بمثل هذه السهولة .. انها مسألة حظ لا أكثر ولا أقل .

ومضت الأيام القلائل الأولى ، والزوجة منهمكة فى تنظيف الدار
وتنظيم الأثاث بمساعدة الخدم .. أما هو فقد جعل الحديقة من نصيبه ، فانهمك
هو وابنته فى تشذيبها وتهذيبها واصلاحها بعد طول اهمال ..

وانصرم الأسبوع الأول وهم فى حركة دائبة حتى أعادوا الى الدار
رونقها وجمال مظهرها فأحسوا بالهدوء والسكينة والاستقرار .

ومرت بهم الأيام ، قريرين هائنين . وجلس الأربعة ذات مساء فى الشرفة الواسعة المطلّة على الحديقة ، وقد اضطجع الأب على أحد المقاعد المريحة ومد ساقيه على حافة الشرفة ، وجلست الأم وبينيها ابنتين وقطعة من الصوف وبكرة من الخيط تنسج له صديريا ، وبجوارهما ركب الابن والابنة - فى الثانية عشرة والثامنة من عمرهما - يلهوان بأحدى اللعب ..

وندت عن الأب تنهيدة ملوّا الارتياح ، وقال فى لهجة راضية :

- هذا مكان نموذجى للكتابة .. ان حجرة المكتب بذلك المنظر الذى تطل عليه .. والهدوء الذى يملأها .. لاتصلح الا لأن تكون مهبط وحى .. ولشد ما أخشى الا ينسب الفضل بعد ذلك فيما أكتب لى .. بل للمكان الذى اكتب فيه .. اذ يبدو لى أن أى انسان يحل به سينقلب نابغة عبقريا .

ولم يكن صاحبنا بالكاتب المقل أو المرفه الذى لا يستطيع أن يكتب الا فى أجواء معينة ، ولكنه مع ذلك كان يصاب فى بعض الأحيان بفحط ذهنى .. يجعله فى حالة ركود تام .. ولم يكن يخشى بذلك أن يموتوا جوعا .. فقد كان له دخل ثابت يقيهم شر العوز .. ومع ذلك فقد كان يكره أن يتوقف عن الكتابة .. اولا : لأنه يجد فيها متعة .. وثانيا .. لأن المزبد من الكتابة يعنى المزيد من النقود .. وما من انسان - كائننا من كان - لا يريد مزبدا من نقود .

وضحكت امرأته وقالت :

- أجل .. ان المرء ليحس فيه هدوءا عجيبا . بعد هذا الضجيج الذى قاسيناه سنينا فى بيت «العباسية» .. ضجيج الترام وضحك العربات والأوتوبيسات ، وصياح الباعة ، أن ما نحس به لاشك رد فعل لطول ما ملأ آذاننا من ضجة دائمة لاتهدأ .

وصمتت لحظة ثم أردفت وهى تتنهد فى ارتياح عجيب ، ومازالت أصابعها دائبة فى عمل التريكو :

- هذا البيت كان لى أمنية العمر .. كنت أتمنى أن أسكن فى «فيلا» ذات حديقة غناء .. لا يشاركنا فيها انسان .. كنت أتوق الى هذه الكينة وهذا الخلاء

وتلك الشمس التي تسطع في كل مكان من أنحاء الدار .. والهواء الطلق الذي يمرى في أنحائها ، والى تلك الخضرة والنظرة التي تمتد على مدى البصر .. كل هذا كان منتهى أملى ..

ومد الأب يده فتناول مئجارة من علبة على منضدة بجوارها واشعلها ، ثم أخذ منها نفعا طويلا وقال معلقا :

- وأعجب ما فى الدار أنك لاتحبين بها وحشة أمثالها من الدور العتيقة الواسعة .. أو المنازل الخلوية ، فهذه الحجرات الرحبة والجدران الضخمة والأسقف العالية .. وهذا الفضاء من حولنا .. كان يجب أن يكون له وحشته .. ومع ذلك فما أحسست له وحشة قط .

- هذا نفس ماأحس به .. أمر عجيب ! انه دائما (ونس) ماشعرت بالوحدة فيه قط .. وماأحسست وأنا فى حجرته أن الحجره خاليه .. واننى وحدى .. رغم انه قد لا يكون بها سوى ان جدرانها السميكة لا تمنع الضوء .. فليس به تلك الأركان المعلمه التى تعودناها فى الدور القديمه ، انى ما أحببت بيتا كهذا وما أحسست بالاستقرار كما أحسست فيه .. انه كأنما قد بنى من اجلنا .. حتى الأثاث يبدو فى الحجرات كأنه قد عمل خصيصا له .. لقد منحنا الله به نعمه كبرى .

وران الصمت ، وسادت السكينة ، لا تقطعها الا هبات من نسيم الصيف تبعث بأطراف الشجر ، أو سيحات تنبعث من الطفلين الراكعين المنهمكين فى اللعب بين أونه وأخرى .

وشردت الام بذهنها .. واستعادت لنفسها قولها :

ما أحسست وأنا فى حجراته أن الحجره خاليه .

وكيف يحس انسان بالوحدة فى هذه الدار .. ؟

انها تذكر ذات مرة .. أو مرتين .. وقد وقفت أمام دولاب القضيه تلمع ما به من أوان .. انها أحسست أن زوجها أو أحد الأطفال يجلس على

المنضدة .. واستمرت منهمكة فيما تقوم به .. وهى لا تشك أن هناك انسانا معها فى الحجرة حتى التفت فجأة .. فأدهشها الا تجد هناك أحد .

ومرة اخرى وقد هبطت الى الحديقة .. ثم عادت الى الدار فوجدت زوجها يقف بالباب وقد حملق فيها دهشا .. وسألها :

- متى هبطت الى الحديقة ؟ لقد خيل الى أنك تجلسين فى الصالة .. !
وهكذا .. دائما .. لا يكاد الانسان يشعر أنه وحده .. بل يحس دائما أن هناك .. من يجلس هناك .

وتنبهت السيدة من شرودها على صوت الخادمة تقول :
- العشاء جاهز .

وجلس الأربعة على المائدة ، وبدأ الابن والابنة عراكهما الطبيعى على من يجلس على الكرسي ، أو ذاك .. أو على من يأكل هذه القطعة ، أو تلك .
وصاحت بهما الأم بانذارها التقليدى الذى لم يكن لها بد عنه :
- هس .. ويعدين .. ؟

وجرى الحديث خلال العشاء بين الأربعة ناعما لطيفا لا يخلو من الضحك والنهر والزجر والشكوى والمطالب حديث نمونجى لعائلة قريبة .

وصاح عمر - الابن - مبلغا احدى شكواه لابييه :

- باباء .. كوتره كسرت سن القلم الذى أعطيته لى .

واندفعت كوتر - الابنة - مدافعة عن نفسها :

- أبدا باباء هو الذى كسره .

- كذابه .

وقال الأب مهذنا :

- لا بأس سأحضر لك بدله .

ومضت فترة صمت قصيرة .

بدأ عمره كأنما قد سرح بذهنه فى مسألة عويصة ، ثم سأل فجأة :

- بابا ..

- نعم .. ؟

- أليس أسوأ من الوحدة .. الا تستطيع الوحدة .. عند ما تريد الوحدة .. ؟

- لا أفهم ما تعنى .. ؟

- ألم تقل «ماما» أن البيت «ونس» وأنتا لاتحس بالوحدة أبدا .. ؟

- أجل ..

- هذا شيء مضائق .. فأحيانا يريد الانسان أن يكون وحده .. ولكن هذا البيت لاتستطيع .. لابد أن يكون هناك أحد معنا ..

- لم تقصد «ماما» أن هناك أحدا معنا فعلا . بل هو مجرد شعور «بالونس» .. مجرد احساس بالراحة لأننا لسنا وحيدين .

- ولكنى أحس بأن هناك أحدا معنا فعلا .

- ماذا تعنى أيها «الحمار الصغير» .. ؟ هذا وهم ..

- ليس وهما .. لقد وضعت بالأمس علبة نودة القز على الدولاب فوجدتها فى الصباح ملقاة من النافذة .. ووجدت العلبة فارغة فى الحديقة ولم أجد الدود .. وأول أمس وجدت كارتش الدراجة ممزقا .. ووجدت زجاجة الحبر قد سكبت على كراسة الرسم .

ونظر الأب الى «كوثر» بعين الاتهام .. ولكنها قالت بصوت فيه رنة بكاء :

- والله يا «بابا» مانا ..

وقال عمره مؤكدا :

- ليست هي .. انى متأكد .

وتدخلت الأم :

- قد يكون أحد من الخدم .. لم لم تخبرنى حتى أعرف من منهم فعل ذلك ؟

- أنا متأكد أن أحدا منهم لم يفعل .. ان الذى فعل .. هو ذلك الذى لا يتركنا منفردين .. انه ذلك الذى يسبب لنا هونساء ، والذى نحس به أنه دائما هناك .. انها هي لاشك فيها .. فانى أحس أنها تكرهنى .

وصاح به الأب ضاحكا فى سخرية :

- من هـى هـذه التى تتحدث عنها ؟ ثم ماذا يجعلك تظن انها هـى وليس هو .. ؟ هل تظن أن بالدار عفرينا .. أيتها الأبله ؟ هذه أو هام عجائز .. ! ليس هناك شىء اسمه عفاريت .. هل أنباك أحد من الخدم ان الدار مسكونة ؟

وأجابت كوثر :

- لقد سمعنا بائع اللبن ينبىء وأم على أن البيت به عفرينة .

- الحمار ابن الحمار .. ! لا تصدقا كلمة واحدة مما قال .. هذه كلها خرافات .

ونهب الأطفال للنوم ، ولم ينس الأب أن ينادى وأم على ويزجرها بشدة ، وينهاها عن أن تخيف الأطفال مرة ثانية بهذه الخزعبلات التى يسمونها عفاريت .. وأجابت الخادمة :

- وأنا مالى .. دا بتاع اللبن .

وفى اليوم التالى روعت الأم وهى فى المطبخ بصرخة استغاثة ، وهرولت الأم فإذا بابنها معلق فى فروع إحدى الأشجار ، وإذا بالسلم الخشبي ملقى على الأرض .

ورفعت له الملم ، وهبط الصبى وجلا خائفا ، وأمسكت الأم يده
تعرکها فى غیظ قائلة وهى تلهث من فرط الخوف :

- هذه المرة كان عنقك يوشك ان يندق .. ألم أقل لك مائة مرة .. كف
عن هذه الشقاوة والشعبطة على الأشجار !

وجرت دمعتان على خد الطفل محدثتين مجريين فى وجهه المقرب
وقال وهو ينشج :

- لقد قللك أنها تكرهنى ، انها هى لاشك التى دفعت السلم من أسفل
قسمى .. !

وأحسست الأم برجفة تسرى فى جسدها ، وسألت فى ذعر :

- من هى التى تكرهك ؟ لابد أن السلم قد انزلق من تلقاء نفسه .

- أبدا .. جربى .. لقد كان مثبتا فى الأرض جيدا .. انها هى .. دائما
تلاحقنى بهذا العبث .

وعندما سمع الأب بما حدث هذه المرة كان أقل سخرية .. ونظرت اليه
الأم فى دهشة وهو يتلقى النبأ فى صمت واطراق .
وأخيرا رفع رأسه قائلا :

- لاشك أن هذا بله منا . اننا سعداء جدا .. وإن البيت نموذجى ..
فكيف نحاول أن نفسده بهذه الأوهام .. مارأيك ؟ هل نترك البيت ؟ هل نعتدين
حقا أنه مسكون ؟ وأن به عفريئة تكره الولد ؟

- لا أستطيع أن أصدق مثل هذا القول .. وإن كان ذلك لا يمنع من أنه
يسبب لنا قلقا ذهنيا .. يجعل راحتنا مهدوئا موضع الشك .. من ناحيتك أنت ،
أريد أن أسألك هل كتبت كما تود ؟ هل أعانك على الكتابة ؟ هذه نقطة هامة
يجب الا نغفلها اذا كنا ننوى التفكير فى المسألة جديا .

- حتى الآن .. لا .. لأننى لم اتو الكتابة فعلا .. ولم اجرى بعد ..
ولكنى سأحاول اليوم الكتابة .

.. وفى هذا اليوم أغلق الأب على نفسه حجرة المكتب .. ولم يغادرها الا فى منتصف الليل . وعندما فتحت الأم عينيها لتبصره بأوى الى فراشه .. بدا لها متعبا مكدودا .. فلم تشك فى انه استطاع أن يقضى وقتا مفيدا ، وأنه لابد قد أنتج شيئا .

وقضى اليوم الثانى بأكمله فى مكتبه .. لم يغادره الا لتناول الطعام . وكان يبدو عليه الارهاق ، وبدأ متثاقلا خايب العينين ولم يكن منظره يبعث كثيرا على الاطمئنان والسعادة .. كان شبه محموم .

وفى اليوم الثالث لم يغادر المكتب حتى الطعام .. ولم يتناول سوى فنجان من القهوة ، وفى المساء ترك الحجرة وسار الى امراته محطما مهدما كأن على كتفيه ما أنقض ظهره . ومد يده اليها فى سكون بورقه مكتوبة ، وقال فى صوت ضعيف خافت :

... هذا كل ما استطعت كتابته .. الحمد لله .. لقد انزاح العبء .

وبعد لحظات كان يخط فى نومه .

وفحصت المرأة الورقة فى دهشة . كانت مكتوبة بخط يده وكانت الكتابة متناثرة على الورقة يمينا ويسارا ، وكان الخط ردينا كأنما كتبه ببده اليسرى أو كأنه كان يكتبه وهو يرتجف محموما .

وبدأت المرأة فى القراءة :

وهذا البيت لى .. هذا البيت لى .. لى وحدى .. لقد كان دائما لى .. لو استطاع أبى لوهبه لى .. ولما ساء أخى هذا .. فما كان البيت يهمه كثيرا ، فقد قضى حياته بعيدا عنه .. انى لم أكره أخى قط ، رغم أنه ورثه دونى ، فقد سمح لى بالبقاء فيه ، ولقد أسفت على موته .. ولم أحاول أن أكره امرأته كذلك .. اذ كانت امرأة نافهة لاتستحق الكره .. وكانت تقوى أن تغادر الدار بعد موته ، ولكنها بقيت من أجل ابنها الذى آلت اليه الدار بعد موت أخى .. لقد كنت أكرمه .. كان طفلا مقلقا .. مزعجا ، وكنت أتمنى أن أهدأ وحدى فى الدار وأنعم بمسكنتها .. وأخذت انتظر وأنتظر حتى آلت الى أخيرا ..

بعد أن سقط الصبى من السلم ودق عنقه .. وبقيت فى الدار وحدى .. كما كنت أتمنى دائما .. ومع ذلك فما أحسست بأية متعة .. انى قلقه حائرة .. انى ضالة شاردة .. انى لم أقصد قتله .. لقد دفعت السلم من أسفله ولكنى لم أقصد قتله .. لقد أخذ الندم بحرقنى بعد ذلك حتى أقمت على الانتحار .. ولكنى مع ذلك لم أحس راحة ولا استقرار .. كم أود الانطلاق من الدار .. أن روحى حبيسة فيها .. أود الانطلاق الى ما هو أكثر منها رحابة وسعة .. رب خلص روحى من هذا الأسر . هذا السجن الذى طالما تمنيت البقاء فيه .. انى أحس الآن بشيء من الراحة بعد أن اعترفت بجرمى .. وبعد أن لفظت تلك الجمرات التى تحرق نفسى . الرحمة يارب .

وأحسست الأم بيدها تمزق الورقة اربا .. وهبت نسمة ذرتها فى الهواء .. وعندما استيقظ الزوج بدا كأنه قد أبل من مرض طويل وداء عضال .. والتصقت به الأم وهى ترتجف وسألته فى صوت خافت :

- هل تغادر الدار ؟

- لا داعى .. لقد انطلقت هى ..

ومنذ ذلك اليوم لم يعد يحس أحد من أهل الدار بأن هناك دائما من يجلس هناك .



خزنتك معي

فالتفت اليها مشدوها . ووضعت
العلبة على المنضدة .. واقتربت من
الفتاة وهمست بها «ما بك ؟»
فأجابتنى «أنفدنى . خذنى معك» !

دعاني صديق فنان ذات يوم لزيارة احدى الدور القديمة فى حي
«طولون» لنشاهد بعض آيات الفن القديم . واتفقنا على أن أمر بداره فى الساعة
الرابعة بعد الظهر . وناولت الغداء فى ذلك اليوم ثم استلقيت فى غرفة قصيرة
استيقظت على أثرها فإذا بالساعة قد بلغت الرابعة .

وارتديت ملابسى على عجل ، وأسرعت الى دار صاحبنى . ولكنى
أبنت أنه ينتظرنى ملويلا فلما طال تأخرى اضطر للخروج .. فلم أشك فى
أنه قد سبقنى الى الدار التى تقصدها فأخذت طريقى اليها .

ووصلت الى الدار .. ووقفت على درجها الحجرى المتمتع .. أتأمل
جدرانها الضخمة الشاهقة المبنية على الطراز العربى القديم .. وقد علت
الأتربة حجارتها وكساها القم لونا داكنا موحشا ، فبنت كأنها احدى القلاع
الحصينة .

وصعدت الدرجات المؤدية الى الباب ووقفت برهة مترددا وقد تملكتنى
رهبة وخشية ، ثم مددت يدى فطرقت الباب الخشبى الضخم بالمقبض الحديدى

المتبث فيه .. ووصل الى أننى صدى الطرقات ثم ساد بعد ذلك مكون عميق .. جعلنى أجزم أنه ما من أحد بالدار .. وإن صاحبى لاشك لم يصل بعد ، وهممت بأن أعود أدراجى عندما وصل الى أننى من الداخل صوت أقدام تقترب ، وفتح الباب .. وبدأ لى من خلاله عبد أسود .. قد وضع على رأسه عمامة ضخمة بيضاء ، وارتدى سروالا واسعا ومثيرة مطرزة بالقصب .. وبدأ لى كخدم القصور فى العصور الغابرة .

ونظر الى العبد نظرة فاحصة ثم وجدته ينحنى فى احترام بالغ ويطلب منى التفضل ..

دلفت الى الداخل فانا بى فى صالة رحبة متسعة الأرجاء عالية السقف قد شاعت فيها الظلمة ، لا يكاد يصل اليها الضوء الا من خلال النوافذ العالية ذات الزجاج الملون .

واستطعت أن ألمح على الضوء الباهت النقوش العجيبة والزخارف الرائعة التى نقشت على السقف والجدران . وعبرنا الصالة التى لم يبد لى فيها شيء من الأثاث الى ممر ضيق طويل حيث وجدت عبدا آخر شديد الشبه بالخدام الأول وقد انحنى لى عندما مررت به حتى كاد رأسه يلامس ركبتيه .

وتملكنى دهش شديد .. فما كنت أتوقع أن أرى فى الدار آثارا حية .. كهؤلاء الخدم الذين يبدون لى كأنهم جزء من الدار بل كنت أتوقع أن أرى أحد موظفى الآثار يتولى إرشادنا والشرح لنا .

وأدهشنى أكثر من ذلك الا أجد فى الدار أى أثاث أو أى مظهر من مظاهر الحياة يستدعى وجود هؤلاء الخدم والأرستقراطيين، بل كانت الدار خاوية ، حتى بدا لى الخدم كأنهم بعض العمد أو بعض التماثيل .

وانتهيت من هذا الدهليز الى حجرة أخرى.. وجدت فيها أول مظهر من مظاهر الحياة .

وتلفت حولى فى شيء من التردد والخشية .. فوجدت الحجرة قد رص بها أحد تلك الأطعم المذهبة الدقيقة الصنع .. وقد غطيت أرضها بسجاجيد

عجمية فاخرة تغوص القدم فيها . وعلفت على النوافذ والأبواب منائر فخمة
زرقاء .

ووقفت في منتصف الغرفة حائرا لأدري ماذا فعل ، فلقد تركنى الخادم
الأسود الذى كان يتولى فيانتى .

وبعد فترة أحسست بوقع أقدام تقترب .. وفوجئت بصوت نسائي يهتف
من ورائى :
- أهلا .. وسهلا .

وتلفت في دهشة .. فوقع بصرى على امرأة فى منتصف العمر ، وفئة
لا تتجاوز العشرين .

وتماكنتى ذهول شديد .. فما كنت أتوقع قط أن أرى فى الدار نساء ..
وبدا الأمر يختلط على .. فلم أشك فى أننى قد أخطأت الدار .

وهمت بأن أقول شيئا للسيدة أوضح به ما يحتمل أن يكون قد حدث
من خطأ ، ولكنى وجدتها تقترب منى فتشد على يدى مرحبة ، وتقول باسمه :
- لم أشك فى أنى سأعرفك لأول وهلة .. فإن بك شبها شديدا من أبيك .

ولقد كان بى حقا شديد شبه بوالدى .. ولكن كيف عرفتنى السيدة وكيف
عرفت والدى .. لقد أوشكت أن أجن من فرط الدهش .

وجلست السيدة والفئة واتخذت مجلسى بجوارهما واخذت افحصهما
بنظرات سريعة فوجدت السيدة نصفا فى العمر وفى الشكل وفى الحجم ، ولكن
آثار الارستقراطية تبدو عليها واضحة فى كل حركة لها ولغة ، أما الفئة فقد
استرعت منى التفاتا أكثر ، إذ كانت جميلة حقا .. وإن كان جمالها من نوع
حزين صامت ، ففى جسدها نحول ، وفى وجهها شحوب ، وقد تهطل شعرها
الحالك على كتفها ، وبدت عيناها تشعان بسحر عجيب .

ولم تكد تمضى لحظة قصيرة تبادلنا خلالها بضع كلمات ترحيب حتى
أقبل خادم يدعونا للشاي ، ووجدت السيدة تنهض وتتقدمنا الى حيث أعد
الشاي .

وبلغنا من حجرة الى أخرى حتى وصلنا فى النهاية الى شرفة فسيحة من النوع القديم المسمى «بالمشربية» ، تتكون من خشب دقيق الصنع كأنه الخشب ، وبالشرفة أريكة متسعة قد فرشت بالحشايا والوسائد المغطاة بالأطلس ، وفى وسطها منضدة مستديرة من المرمر ثلثة القوائم قد وضع عليها غطاء رقيق مشغول بالبرودريه ، وصفت عليها ادوات الشاى من أطباق مذهبة وأكواب فضية منقوشة ، وفناجين رسمت عليها رسوم دقيقة .

وجلسنا حول المنضدة وبدأ الخدم يحضرون الشاى فى إبريق فضى جميل ثم بدأوا يحضرون الفطائر والأطباق الملأى بأنواع الفاكهة الفاخرة .

وخيل الى أن المسألة انما هى أضغاث أحلام .. فقد ذكرنى كل هذا بما سبق أن قرأته فى ألف ليلة وليلة .. وقلت لنفسى ماذا يضيرك أن يكون حتماً أو غير حلم أقبل على المتع التى أمامك وانكر قول الخيام «ولنا أن ضاع يومى من يدي» .

وبدأت السيدة الحديث ففهمت منها أن بين أسرتينا ودا قديما .. وأنا كنا نوشك أن نكون أنسباء ، فقد كان جدى عى وشك الزواج من أمها .. لولا أن حدث سوء تفاهم بين أبويهما أدى الى نزاع شديد ..

وفهمت كذلك أن الفتاة ليست ابنتها ، كما كنت أعتقد ، بل ابنة أخيها وهى تتكفل بها بعد أن مات أبوها وأمها .

وانتهينا من تناول الشاى عندما حضر أحد الخدم فاتحنى أمام السيدة ثم اقترب منها وهمس فى أذنها بضع كلمات فوجدتها تنهض مستأننة قائلة أنها ستعود بعد بضع دقائق .

وانصرفت السيدة .. ووجدت نفسى قد خلوت الى الفتاة الحزينة الشاحبة التى تبدو فى رقتها كأنها طيف .. وأحسست بدافع قوى يدفعنى الى الحنو عليها والى أخذها بين ذراعى واسناد رأسها على صدرى .. ولكن الحياء كان يمنعنى .. وبدأ الارتباك يملكنى .. وأخرجت من جيبي علبة سجايرى محاولا التشاغل بالتدخين .

ولم أكد أفتح العلبة حتى سمعت الفتاة تهتف باسمي هامسة في لهجة ملؤها المرارة والحزن ، فالتفت اليها مشدوها .. ووضعت العلبة على المنضدة .. واقتربت من الفتاة وهمست بها مما بك ؟ ، فأجابتنى وألقننى .. خذنى معك ! .

ومددت يدي فضغطت على يدها .. ووجدتها قد نهضت وسارت بى خارج الشرفة هابطتين بضع الدرجات المؤدية الى الحديقة ..

ونفذ الى أنفى عقب الزهور فملأنى نشوة وزاد مشاعري ارتخا ، وجلست والفتاة على مقعد تحت إحدى الخمائل .

وتحدثت الفتاة فلنبأتنى أن عمتها سترغمها على الزواج من عشيق لها - للعمة - نخشى أن يهجرها فهي ترد ان تربطه بالفتاة الصغيرة حتى تضمن بقاءه الى جوارها .. وانها تلقى من عمتها عذابا ألما .

وأحسست والفتاة تبتنى شكواها .. كأن هناك مغناطيسا يشدنى اليها ، وبدأ لى كلفنى لم ألقها منذ لحظات فقط .. بل كأننا أحباء العمر .. ووجدتنى أملك بيدها فأضعها على شفتى ثم احتويت جسدها الرقيق بين ذراعى .. وضممتها الى فى رفق وأسندت رأسها الى صدرى ، ودققت وجهى فى شعرها . ومضت لحظة والفتاة هائلة فى صدرى .. ثم رفعت الى عينيها العجيبتين وقد كسبتهما عبرات تترقرق .. ووجدت شفتى تقتربان من شفتيها فتضغطان عليهما .. ثم أغمض كلانا عينيهِ ورحنا فى نشوة .

وفجأة سمعت صوت العمة ينادى الفتاة ووجدتها تقف منا على قيد خطوات .

وفزعت الفتاة .. ورأيتها تنظر الى المرأة نظرة متوسلة .. كأنها تسألها شيئا ، ولكن السيدة هزت رأسها فى جمود وقسوة وأجابت فى اقتضاب : - اذهبى ..

وسارت السيدة ، وبرزنا وراءها حتى وصلنا الى الشرفة فسألتنى أن أتبعها لترينى بقية الحجرات .

وعندنا أخيرا الى الشرفة فلم أجد الفتاة ، بل أنبأني أحد الخدم أنها تعتذر الى لاصابتها بوعكة مفاجئة ، وأنها كلفتها أن يحمل الى سلامها .

وأحسست بلوعة شديدة ، وتمنيت لو أذفع نصف عمري لأرى الفتاة الحزينة الجريحة القلب .. ولكن السيدة مدت الى يدها مودعة سائلة لياي أن أزورها دائما .



وخرجت من الدار .. وسرت في الطرقات .. وأنا أجد نفسي في تمام اليقظة فلا حلم ولا وهم .. وكان أول ما فعلته هو أن ذهبت الى بيت صاحبي فقصصت عليه كل ما حدث .

وفهقه صاحبي عاليا وانبأني أن البيت كانت تسكنه حقا العائلة التي تكرت اسمها ، ولكن ذلك كان منذ سبعين عاما ، ثم أكد لي أن كل ما رأيت إنما كان وهما أو حلما .

وفي اليوم التالي ذهبت ولباه الى الدار ، ووجدنا أحد موظفي الآثار في انتظارنا ودخلنا الدار بعد أن فتح الباب بمفتاح في جيبه .. وأحدث الباب صريحا وكلفه لم يفتح منذ شهور أو أعوام .

وسرت في الدار فوجدت بها شبرا بالدار التي زرتها بالأمس ولكن الأتربة كانت تملأ الأرض والجدران ولم يكن هناك أي أثر للحياة ، لاخدم ، ولا مكان ، ولا حجرة استقبال ولا شرفة .

ونظر الى صاحبي ضاحكا في سخرية .. وهزئت رأسي في دهش شديد وأقمت نفسي أن كل ما رأيت إنما كان أواما ، وانتهينا من التجول في الدار .. وهمنا بالخروج .. عندما سألت الدليل عن حقيقة الدار .. فأنبأنا أنها حقيقة مهمة ليس بها ما يستحق الرؤية .. ثم دلف بنا في عدة ممرات ليقودنا اليها .. وفجأة وجدت نفسي في شرفة الأمس ! .

أجل ! . لقد كانت هي نفس الشرفة .. وقد بدأ منها منظر الحديقة والخميلة والمقعد الذى جلسنا عليه .. وبدت فيها الأريكة ولكنها كانت عارية من الحواشى والوسائد ، وأشرت لصاحبى الى آثار الأقدام المزروجة التى تبدو بالحديقة .. وقلت له : «ما رأيك» .. فأجابنى : «هذه حتما هي آثار الجنائزى الذى يروى الحديقة» .

وأحسست بشيء من الخذلان .. وتلفت فى الشرفة فإذا بالمنضدة المستديرة المصنوعة من المرمر قد توسطتها خالصة من كل شيء . لا مفرش .. ولا أدوات للشاي ولكن شيئا واحدا هو الذى كان عليها وهو علبة السجائر ، علبنى أنا التى نقش عليها اسمى .. والتى أخرجتها بالأمس ثم تركتها على المنضدة .

وتناول صاحبى العلبة فى دهش شديد .. ولم ينبس ببنت شفة .. ماذا حدث ؟ وكيف ؟ من يعلم !

ومر الحادث دون أن أجد له تفسيراً أو تعليلاً .. قد يكون وهما أو حلما ، ولكن شيئا واحدا هو الذى يجعلنى أكاد أوقن بأنه حقيقة .. وهو تلك الصور التى أرانى إياها الليل لأهل الدار .. والتى وجدت واحدة منها صورة طبق الأصل للفناء الشاحبة الحزينة .. التى احتويتها بين ذراعى فى الخميلة .



حَافَتِ قُرْبَرَا

لقد رأيت طفلة ، أو شبح طفلة
بيضاء باهتة ، تنحني على الفتى
الراقد باسمه وتمد يدها فتأخذ منه
القرط .

بدأت دباباتنا سيرها في عجلة تجاه الشمال ، فقد أنبأتنا الرئاسة أن العدو
احتل ببعض عرباته موقعا يشرف على الطريق وأن علينا اجلاءه بكتيبتنا حتى
نظهر الطريق ونعيد المواصلات بيننا وبين القوة الموجودة شمالا .

كان الوقت قبيل الفجر ، ولم نؤخذ بالأمر على غرة ، فقد قضينا الليل
في يقظة دائمة ، اذ كانت المعركة دائرة على أشدها ، وكان الدوى يسمع في
كل مكان ، واللهب يبرق هنا وهناك مبددا حلقة الليل .

كان العدو قد بدأ هجومه الغادر .. واستعر أوار المعركة في شتى
المواقع .. وأخذت مشاتنا ومدفعيتنا تصلياته نيرانهما فتزدانه على أعقابيه ملوما
محسورا .. مخلقا وراءه بساطا ممتدا من جثث القتلى ، تلوكا الأرض وقد بدت
مكدمة بالأجساد كأنها ورقة النياب .

وقضينا الليل نرقب وننتظر .. معدين عرباتنا ودباباتنا للانقضاض في
أية لحظة .. حتى وصلنا الأمر قبيل الفجر بالانطلاق لطرد العدو .. فانطلقنا .

وطلبت من اليوزباشى «محسن» قائد ثاىى الكتىبة أن يأمر السرية الأولى بأن تتخذ مكانها فى المقدمة لكى تستكشف مواقع العدو وتعجم عوده وتستطلع قوته ، على أن يكون قلدها على اتصال دائم بنا لكى ينبئنا أولا بأول بكل ما يعرف .

وبدا عليه التردد ، ثم نساءل قائلا :

- ان السرية الأولى يقودها «قدرى» وهو كما تعلم مريض ويتولى قيادتها بدله الشاويش «قرشى» .. شاويش السرية .. فهل ندعه يقوم وحده بالاستكشاف ؟ .

وفكرت برهة ثم أجبتة :

- دع السرية الثانية تعمل فى المقدمة ، واجعل الأولى فى الاحتياطى . وهم بالانصراف لتنفيذ الأمر ، ولكنه توقف كأنما قد خطر له خاطر جديد وقال متسائلا :

- ولكن لم لا أتقدم أنا مع السرية الأولى للقيام بالاستكشاف ؟ .. هل لديك ما يمنع ؟

- أبدا .. اذهب اذا شئت .

وبعد لحظة كان قد اتخذ مكانه فى لحدى دبابات السرية الأولى متوليا قيادتها ، متقدما بها على رأس الكتىبة لاستطلاع قوة العدو .

ووقفت فى برج دبابتى أرقبه يتباعد بسريته .. وبدأت الدبابات على خط الأفق سوداء قاتمة وقد علا حولها الغبار وأخذ ضجيجها يخف رويدا رويدا .. حتى لم نعد نبصر منها الا أشباحا باهتة ، ولا يصل الى آذاننا من صخبها وضجتها الا ما يشبه الهمهمة والهمس .

وتحركات رياسة الكتىبة وبقيّة المرايا .. ولاحت لنا الشمس تقمّل من وراء الأفق خلف الرىبى والآكام .. حمراء الضوء .. أرجوانية الشعاع .. كأن بها جرحا يدمى .. وكأن اشعتها القاتية دماء تراق على رمال الصحراء .

اية يا شمس ا .. لقد رايت شروقك فيما مضى .. فكنت ابصر فى حمرة لون الورود ولون الخدود .. لشد ما تفكرت وتغيرت واستبدلت بشعاع الورد شعاع الدماء .

أم ترى التغير قد أصاب العين التى تراك .. فلم تعد تبصر منك الا صورة لما حولها من دماء ولهيب ؟

وتحركت رئاسة الكتيبة وبقية السرايا .. وثارت من حولنا الضجة وعلا الفجار وانتشرت بضع دبابات ذات اليمين وذات اليسار لتحصى القوة فى أثناء تقدمها .. وأخذنا نعمن فى السير .. وبين لحظة وأخرى تحمل إلينا رسالة من سرية المقدمة بأن العدو لم يبد بعد .. حتى وصلتنا الاشارة الإيجابية الأولى تحمل فى طياتها بأن العدو قد ظهر ببضع عربات عن يميننا ، ثم رسالة أخرى بضع عربات عن يسارنا ، ورسالة ثالثة تتعامل «هل نشتبك ؟» .

وتناولت سماعة اللامسكى ، وطلبت محمداً على الجهاز واستهتت منه بشيء من التفصيل ، ثم أمرته بالاشتباك .

ووقفنا منتشرين فى أماكننا واتخذت الدبابات بقدر الاستطاعة مترا من ثنيات الأرض .. وحملت الريح الى آذاننا أولى الطلقات تدوى من بعيد .. فعلمنا أن الاشتباك قد بدا .

واستمر الدوى .. يعلو حيناً ويخفت حيناً .. ووصلت إلينا الرسالة بعد الرسالة تنبئنا أن الاشتباك مستمر وأن العدو يجاوب نيراننا بما ملكت نيرانه ، وأن المعركة على أشدها متأججة اللهب مستعرة الأوار .

وفجأة وصلت الى رسالة أحسست منها بهزة فى جسمى كأن هناك مطرقة أصابت مؤخرة رأسى .. ولم يكن ما جاء بها أكثر من «أصيبت دبابتى» .

ولم تمض بضع ثوان حتى تلفتها طرقة أخرى .. أو طعنة أخرى .. أصابت حشائى .. ولم تكن سوى «أنى أموت» .

أجل .. أن «محسن» يموت .

وثوان أخرى وتحدث عامل اللاسلكى يقول أنه قد مات .

انى أبكى وأنا أكتب ما أكتب ، رغم أنه لم يكن لدى وقتذاك فرصة
لبكاء .. فقد سلبتني قسوة الموقف كل ما بهى من حس وشعور .. وكان يخيّل
لى أنى لم أعد من دم ولحم ، بل من حديد وحجارة .. وكنت أشبه بانسان ألقى
به فى بحر من الجليد فجمدت أطرافه حتى فقد حساسيته .

فى ثوان معدودات قضى صاحبه .

أجل .. لقد انتهت فى كلمتين : انى أموت .. ثم .. مات . وكما قلت
لم يكن هناك وقت لحزن أو بكاء .. أو حتى للتفكير فيما مات .. أيا كان ..
حتى ولو كان الميت أنا !

ان كل ماتبقى فىنا من حس هو الاحساس بالواجب .

نحن فى عمل .. ولابد لنا من انهائه .. فلما مات واحد منا أو متنا
جميعا .. فذلك أمر ثانوى .. أو قل أنه أمر مفروض . هل هناك حرب بلا
موتى ؟ .. وما فائدة الطلقات والذخائر والأسلحة .. إذا لم يقتل بها بعضنا
بعضا .

ذلك هو الشعور الذى كان يخيم علينا وقتذاك .. شعور القسوة
والجمود .. أو اللاشعور .. الذى يجعلنا نتجاوز عن الحزن لنستمر فى تأدية
واجبنا .. كأننا لم يكن لنا بموتنا أدنى صلة .

وهكذا اندفعت أتمم واجبه ، أمرا أحدى السرايا بالتقدم لمعاونة سرية
المقدمة فى اشتباكها مع العدو ، متقنما معها .. حتى استجلى الموقف بنفسى .

وبدأنا نقرب من أرض المعركة ، ولاحظنا دبابتنا وقد تشابكت مع
العدو الرابض عن يمينها ويسارها .. وقد بدا لنا أنها قد زجت بنفسها فى مأزق
حرج .. وأن العدو يوشك أن يغتربا جميعا بعد أن حاصرها بنيرانه ، ووجدت
أن من الأفضل أن أحاول تطويق العدو بها ، وأن أمر بحركة التفاف واسعة
للنطاق حول أحد جناحيه .

وأمرت السرية بالتوقف قبل ان تتورط فى مرمى نيران العدو ..
وطلبت من قائدها وهو الملازم على يحيى أن يقوم بحركة الالتفاف
المطلوبة .. وافهمته أن لا فائدة من التقدم الى السرية الأولى لأنه سيتردى
فى المصير ذاته ، وأن خير طريقة لانقاذ من تبقى منها واجبار العدو على
الانسحاب ، هى حركة الالتفاف التى شرحتها له .

ووجدته ينظر الى وقد بدا فى قسماته حزن شديد ولاحت عليه علامات
التردد .. كأنه يعترض على ما قلت ، ويود أن يبدى رأيا آخر ، وسألته فى
عجلة :

ماذا ؟ ..

ووجدته يضغط على نواجذه كأنه يحبس فى جوفه شعورا يوشك أن
ينطلق .. وعنت أسأله :

- ماذا تريد ؟

ورأيت فى عينيه طبقة لامعة من الدمع الحبيب وسألنى فى صوت
مكتوم وهو يشير برأسه الى حيث السرية الأولى مازالت تتبادل الطلقات مع
العدو .

- ومحسن ؟

- ماله محسن ؟

- جثته ؟ .. هل ستترك جثته للعدو ؟ .. لا بد أن نحضرها .

وأحسست بالجمود الذى أصاب مشاعرى يتفتت وينوب . وقفزت
الدموع الى محاجرى وهممت - لولا بقية من تجلد - بأن اندفع فى البكاء .

لقد عدت مرة اخرى انسانا .. وهاج قول صاحبى الصغير حزنى ..
وأثار مشاعرى .. وبدا لى أن من الواجب علينا أن نحضر جثة محسن ..
ولكن كان من الجنون أن نتقدم الى أرض المعركة فى احدى الدبابات .. فقد
كان غرضنا ظاهرا .. وكان العدو لابد مرديها ومصيبها فى الصميم .

وكأنما أدرك «يحيى» ما يجول بخاطرى .. فقال فى اصرار وتأكيد :
- انى على استعداد أن أتسلل على قدمى والزحف الى هناك .. وأؤكد
لك انى سأحضرها فى بضع دقائق .. لن نتأخر .. أؤكد لك ..

ولم يكن به من حاجة لاقناعى .. فقد كنت أنا نفسى متلهفا على احضار
الجنة العزیزة .. وفى غمضة عين حزمت أمرى .. وقلت له أنى سأذهب
معه .

وبدأنا التسلل والزحف .. منتفعين بسواثر الأرض والأعشاب والنباتات
حتى بقنا فى منطقة النيران .

هل يستطيع انسان منكم أن يتصور الجحيم ؟
لقد كنا فيه بلا جدال !

كيف لا .. وقد كدت أوقن أنى لم أعد على قيد الحياة .. وأن ما تبقى
منى ليس الا روحا تطوف بجهنم .. وساءلت نفسى فى دهشة .. انى يارب
مسلم .. فمانا دفع بى الى هذا الحميم ؟

والثقت الى صاحبى الصغير فسمعتنه ييممل .. فلم أشك فى أنه قد خطر
على ياله ما خطر لى .. وأنه قد تخيل أنه ليس سوى روح يصلى صقر !
ووصلنا أخيرا .. والنار من حولنا ومن فوقنا . ووقع بصرنا على دبابة
محسن .

ونظرت اليه .. ونظر الى .

هل تعرفون الجمر .. الجمر الأحمر المتأجج الذى لا تبصر فيه سوادا
ولا بياضا .. بل قطعة حمراء .. صافية الحمرة .
لقد كانت الدبابة كذلك .

لقد حرقّت الدبابة .. ولم يكن بها أثر لدخان .. أو هباب ، بل كانت
جمرة حمراء يشع منها الصهد .. وتلفح وجوهنا منها حرارة لاسعة .

ولم نتكلم .. بل بدأنا العودة واجمين فى صمت واطراق .. وقد شرد
ذهنانا شرودا شديدا .

وبدأنا العودة متمللين ، كما جئنا ، وسط عاصفة النيران .

ولكن العودة لم تكن سليمة اذ أصيب صاحبى الصغير بشظية فى جنبه
أردته على الأرض .. وهو يئن أنينا خافتا .

ووجدت الفتى قد راح ضحية رقة مشاعره ومشاعرى وأنه كان من
الواجب على الا ألين .. وأن أترك الموتى لرحمة ربهم .. وأستمر فى واجبى
حتى لا أضيف الى الموتى ، ضحايا جديدة .

وبهذه المشاعر المتحجرة تركت الفتى ملقى على الأرض منه تنزف
الدماء ، واندفعت الى العرية للواقفة تنتظر فأمرت أحد ضباط الصف أن يحمل
بعض الضمادات الى الجريح ويقوم بعمل الاسعافات الأولية حتى تنتهى من
مهمتنا !

وبدأت أدفع العرية حول ميمنة العدو ، أمرا سرية اخرى بتطويق
ميسرته .

وأحطنا بالعدو .. ودارت بيننا وبينه معركة كبرى .. انتقمنا منه لأنفسنا
شر انتقام ، وبمرنا عددا كبيرا من مصفحاته وأكرهناه على الانسحاب .. تاركا
حطامه وقتلاه ، راضيا من الغنيمة بالاياب .

انتهت المعركة وقد قارب اليوم على الانتهاء ، وأحمست بتعب النهار
ومسر الليل يحط على جعدى .. وبدأنا نلم شعثنا ونعود أدرأجنا للتجمع
والرحيل .

وكان أول ما فعلت هو السؤال عن الصاحب الجريح .. فوجدته قد تمدد
بجوار إحدى العربات .. وهو يلفظ آخر انفاسه .

ركعت بجواره وأنا أحس بأحشائى تتمزق كأن فى جوفى من الشظايا
أضعاف ما بجنبه ، وتمنيت لو استطعت أن أفعل له شيئا .. أى شيء !

لم لاتقوى أمانى الأحياء على أحياء الموتى ؟ .. لقد كانت بنفسى من الرغبة فى اعادته الى الحياة ما أستطيع به أن أحيى جيلا من الموتى ، فلم لم يبعث حيا ؟ .

لقد جلست بجواره .. وأمسكت بيده بين كفى .. وأحس بى ففتح عينيه .. ولاح على شفتيه شبح ابتسامة . ثم قال فى صوت خافت :

- كيف الحال ؟

- انتصرنا وطردهناهم من مواقعهم .

- الحمد لله .

وكانت المرة الأولى فى حياتى التى أجلس فيها الى انسان يموت .. وأى انسان ! .. انسان جاد بروحه فى سبيل جثة صاحبه !

وسمعته يتمتم بصوت خافت :

- انى سعيد .

ولم أدرى ماذا أقول له .. وخفت أن ينطلق دمعى .. فجاهدت حتى كبته ، وقلت له فى رفق وحنان :

- ألا تريد شيئا .. الا أستطيع أن أودى لك أى شيء ؟

- كنت أريد شيئا واحدا لا أظن هناك من يستطيعه ! كنت أريد أن أرى ابنتى مرة واحدة مرة واحدة فقط .. لقد أوصتني بأن أحضر لها هدية عند عودتى .. ولقد ابتعت لها قرطا عندما ذهبت الى بيت لحم .

ومد يده الى جيبه فأخرج قرطا صغيرا ، وأرشف قائلا :

- اعطها هذا القرط .. وقبلها لى .. كم كنت أريد أن اعطيها اياه بنفسى .. فليس هناك أحب الى من أن أحمل لها الهدايا .

وصمت لحظة تمالك فيها أنفاسه وعاد يتمتم فى صوت خافت :

- أريد أن أراها .. مرة واحدة .

وأغمضت عيني .. فقد كان قوله أفسى على نفسي وأشد إيلاما من أفسى
وسائل التعذيب والإيلام .. كيف لا .. وهذا الإنسان الجميل للنفس والقلب ،
لا يطلب أمنية قبل موته الا أن يعطى ابنته الطفلة هديتها للصغيرة !

وفتحت عيني .. فأصابتنى رعدة .. اذ أبصرت أمامي أمرا عجيبا .

لقد رأيت طفلة .. أو شبح طفلة بيضاء باهتة .. تتحنى على الفتى الراقد
باسمة ، وتمد يدها فنأخذ منه القرط ، ورأيت وجهه يتهايل بشرا . ومد ذراعيه
فاحتواها بينهما وقبلها في عطف وحنان . وفي لمح البصر ثلاثت في
الهواء .. ولم أعد أبصر سوى الفتى وقد أغمض عينيه وبدت على وجهه أبلغ
آيات السعادة والهناء .. وأحسست ببرودة تسرى في جمدي .

لقد .. مات .. انتهى .

كيف حضرت الطفلة ؟ .. كيف ذهبت ؟ .. لقد كانت لاشك من بنات
الأوهام .

ان ما رأيت لم يكن الا من فعل الخيال المجهد المكثود .

وبحثت عن القرط في يده .. أو في يدي .. فلم أجده .

أجل لقد كانت المسألة كلها من صنع وهمي وخيالي .

وثوى صاحبي في باطن الأرض .. وغاب فيها .. كما غاب أصحابه
من قبله وكما ستنجب من بعده .

وعدت الى القاهرة بعد ذاك .. وحملتني قدامى لأودى الرسالة .. ولقيت
زوجته .. ولقيت ابنته .

يا لله ! .. لقد كانت نفس الطفلة .. لا تفرق عن الشبح الذي رأيت ،
سوى أنها نموذج حي .

وفي أذننها وجدت القرط ..

كيف وصل اليها ؟ .. لم أجسر على السؤال !

صَفْحَةٌ جَدِيدَةٌ

هذا الرجل العاقل الرزين .. قد
باع عريته لشبح من عصر محمد
على .. وهو يقص القصة بمنتهى
الثقة والاتزان كأنها حقيقة واقعة ..
ماذا أقول له ؟ .

منذ بضعة أيام سافقتنى الصدف الى لقاء متولى افندى عبد الرحيم
مدرس الرسم فى مدرسة شبرا الثانوية . فأقبلت عليه أحبيه فى شوق ولهفة ،
لذ كان أحب المدرسين الى نفسى وأقربهم الى قلبى .. أولا لأننى كنت أجيد
الرسم فكنت أعتبر حصصه أوقاتا للترفيه والتسلية ، وثانيا ، وهم الأهم ، لأنه
كان مخلوقا ما عرفه انسان الا أحبه لطيبة قلبه ووداعة نفسه ، ولما فى أطواره
من غرابة وطرافة .

كان الرجل فنانا أكثر منه أى شىء آخر . ولم يكن ذا كفاءة ظاهرة فى
مهنة التدريس . وهى مهنة تحتاج قبل كل شىء الى «فرداتى» يعرف كيف
يعامل هؤلاء «القردة» الذين يسمونهم «التلاميذ» . أما هذا الرجل الفنان بجسده
للرقيق ، ونهمنه الشارد ، فقد كان أبعد الناس عن أن يكون مدرسا .

كنا نحبه جميعا بلا استثناء .. وكيف لانهب مدرسا لانكاد نحس وجوده
ولا يكاد هو يحس وجودنا رغم ذلك الضجيج الذى كنا نحدثه فيوقف أهل
الكهف ؟

أقول اننى لقيت الرجل منذ بضعة أيام .. لأول مرة منذ سنوات طوال .. وكان اللقاء فى قصر الجوهرة بالقلعة حيث لفتكب لاعادة رسم بعض الزخارف ، ولم أره قد تغير كثيرا عما كلن .. بياقته المنشأة ذات الأطراف المثنية وقد خرج منها عنقه المسروق الرفيع يحمل فى نهايته رأسه الصغير ذا الشعر الأشعث ، وقد لشد منظاره السميك على أرنبة أنفه ، وأغرق جسده فى بخلته ، الأسموكن، السوداء .

وأقبلت عليه أحبيه .. وأستطاع هو أن يميزنى بنظرة من وراء منظاره ، فرد على تحيتى بنفس الشوق والاهفة .. ودار بيننا حديث لم يكف خلاله عن الانهماك فيما يرسم .. ونظرت الى تلك الزخارف اليدوية ، وهو يحرك عليها فرشاته فى مهارة وحقق ، وقلت بصوت ملؤه الاعجاب :
- رائعة .. ان عمالك فى منتهى الدقة والبراعة .

فهز الرجل رأسه فى شيء من الاستخفاف ثم أجابنى قائلا :
- اننى لا أفعل أكثر من أن أعيد رسمها .. فإذا كنت ترائى بارعا لمجرد النقل .. فماذا تقول اذا فيمن خلقها وأوجدما ؟
رسمت الرجل برهة ثم عاد يقول :

- يخيل الى أن الذهن البشرى سائر فى طريق العجز .. فنحن فى كل ما نفعل اليوم لسنا الا ناقلين عن سبقونا من العباقرة ، ولم نزل الى الآن نستوحى أفكارهم ومبتكرات عقولهم .

ونظرت اليه وقد انهمك فى عمله ، وقلت أناقشه فى شيء من الدهش :

- الذهن البشرى سائر فى طريق العجز ؟ . لا . لا . لا بأسيدى قد يكون حقا لننا ننقل عن اسلافنا بعض أفكارهم ومبتكراتهم لنعتمدين بها .. ولكن هذا ليس دليل عجز .. لأن الذهن البشرى قد يأتى الآن بأشياء لو رآها اسلافنا لصرعهم الدهش .. وانى لا أتصور مانا يمكن أن يكون حال صاحبنا الذى رسم هذه الزخارف أول مرة لو بعث الآن من مرقده ليرى ما صنعه الذهن البشرى .. دعك من الذرة .. أو اللاملكى .. أره فقط عربة تجرى فى الطريق .

وهنا رأيت الرجل قد وضع وفرشاته، فجاء ونظر الى بحدة واستغرب ، ثم قال :

- عجيب هذا الذى تقوله عن الرجل ، وعن العربية التى تجرى فى الطريق .. ١

- وأى عجب فيه ؟

وأطرق الرجل ، وساد الصمت برهة ، ثم تكلم أخيراً كأنه يحدث نفسه :
- لو رويت لك الحقيقة لقلت ثمل أو مخبول .. هل يمكن أن تصدق أن الرجل الذى تعنيه قد حضر الى فعلا .. وأنا تحدثنا عن العربات ؟

ويستطيع القارىء طبعاً أن يدرك كيف وقع قول الرجل فى نفسه .. ويستطيع طبعاً أن يدرك مبلغ الجهد الذى بذلته لكى أكمس وجهى مظهر الجدة ، وأن أكنم تلك الضحكة التى كانت تسطخبط فى صدرى .. لقد كان الرجل جاداً فى قوله .. ولم يبد عليه أنه ثمل أو مخبول .. بل كان يتكلم بلهجة ملؤها الصدق والاخلاص .. ثم هو فوق ذلك مدرس ومأزالت أشعر نحوه باحترام التلميذ .. فقلت وقد بدت على أبلغ آيات الدهش :

- شىء عجيب ! ..

- انه لكذلك .. وقد حدث .. رأيته أمامى كما أراك الآن ! ..

- وكيف أتى ؟ .. ومتى ؟ ..

وسمت الرجل برهة استجمع فيها شوارد أفكاره ثم استطرد قائلاً :

- كان ذلك منذ بضعة أيام قبل الغروب .. وقد أنهمكت فى الرسم .. عندما خيل الى أن شخصاً يرفقنى ولم أكن قد سمعت أحداً يدخل .. ولا كنت انتظر زيارة أحد .. والتفت فجاء فإذا بى أجدته أمامى تماماً كما تقف أنت .. وقد أخذ يرفقنى بهدوء .. مرتدياً سرواله الفضفاض وعباءته وصديريته ومركوبه .. ثم رأيته يهز رأسه باعجاب قائلاً :

- شيء بديع .. هل تعلم أن هذا من صنعى ؟ لأظن أن عندكم الآن من يستطيع أن يفعل مثله .

ولست أدري ما الذى جعلنى لا أولى من الرجل - أو من الشيخ - فرارا ولا أصرع منه رعبا .. ولكن الله أنزل المكيئة فى قلبى فوقفت أتحدث اليه كما أتحدث اليك .. بغير خوف أو وجل .. ووجدتني أقول له مجاملا :

- الواقع أنها شيء رائع .

ورأيتك يتلف حولك ثم يتساءل :

- لقد وجدت على القلعة أعلاما وزينات .. ما سرها ؟

- اننا نحتفل بتسليمها .

- تسليمها ؟ .. ماهى ؟

- القلعة .

- تسليمها ممن ؟

- من المحتلين .

- أو قد عاد اليكم بابليون مرة أخرى ؟

- لا .. ليس نابليون .. انهم الانجليز هذه المرة !

وبدا عليه الدهش .. ووجدت أنه شخص متعصب ، وأننى لو أطلعت رغبته فى الامتنعاء على هذا النمط لاضطرنى الى أن أسرد عليه تاريخ مصر منذ أن شيدت القلعة الى يومنا هذا .

وكانت الظلمة قد بدأت تنتشر فلم أجد خيرا من التخلص منه بالانصراف . فبدأت أجمع أدوات الرسم فى حقيبتي وأتھيا للخروج . ونظر الى متسائلا :

- الى أين ؟

- سأنصرف .. فقد أقبل الليل .

- ولم لاتوقد الشموع ؟

وهمت بأن أجيبه بأننا لانتعمل الشموع بل نضيء بالكهرباء ..
ولكنى تصورت أى مازق يمكن أن أضع فيه نفسى اذا سألتنى عن الكهرباء
فلم يكن خيرا من أن أوفر على نفسى الشرح .. فقلت له ببساطة :

- لقد نفذت الشموع .

ونظر الى نظرة رثاء لهذا الفقر الذى سمرنا اليه ، ثم عاد يسأل من جديد
أمثله التافهة :

- ولم ترك الانجليز القلعة .. هل مجتم عليهم ؟

- لا .. لا .. لم تحتج المسألة الى هجوم أو غيره . لقد استيقظ الوعى
القومى ومطالب بالجلاء .. فجلوا .

- لا .. لأظن .. أغلب ظنى أنهم جلوا عنها لأنها قد أصبحت قديمة
غير ذات قيمة .. وأن الفضل فى جلائهم عنها يرجع الى انتشار البقية فيها .
- أنت لاتعرف شيئا . لقد قلت أن الوعى القومى قد استيقظ ، وأن الأمة
كلها قد هبت تطالب بالجلاء ووحدة وادى النيل .

- وحدة وادى النيل ؟ ماذا تقصد .. وممن تطلبون هذه الوحدة ؟

- من الانجليز .

- وما دخلهم ؟

- انهم يسيطرون على السودان ، ويحاولون فصله .

- ولم لاتطردونهم بجيشكم ؟

وهنا وجدتنى أوشك أن أنزلق الى مسألة أشد وعورة من شرح
الكهرباء ، وهى مسألة شرح حالة الجيش المصرى .

فقلت له :

- ان المسألة لا تحتاج الى جيش ، فالسودانيون اخواننا ونحن وهم شعب واحد ، وهم يرغبون في الوحدة كما نرغب فيها .

- اذا فهم الذين سيثورون ويطردون الانجليز ليتحدوا معكم ؟
وأقول الحق أن صبرى كان قد بدا ينفذ من الأسئلة التي أخذ ينهال على بها .

ولم أجد بدا من أن أنبئه أنى في عجلة لأننى على موعد ولابد لى من الانصراف ، ومددت يدى اليه محبباً ، ولكنه أنبأنى أنه سيمير معى ، فقلت له أننى لن أسير بل سأركب ، فسألنى : أعندك حمار ؟

فهزئت رأسى : كلا ..

- لاشك أن عندك عربة .

- أجل عندى عربة بعشرة خيول .

ورفع الى الرجل رأسه فى ذهول ، وظننى أمزح .. ولكن لم يكن فى قولى شيء من المزاح فقد كانت عربتى فعلاً عربة وفورد ١٠ خيول .
ووصلنا الى العربة ، ووقف الرجل أمامها حائراً .. لا يجد أثراً لحصان واحد .. ونظر الى شيء من الاحتقار ، ولكنى ففزت بسرعة داخل العربة حتى أزيل ما بدا عليه من احتقار وأدبرت «المارش» ، وبدأت العربة تحدث صوتاً عالياً ، فقد كانت ما سورة (الشاكمان) مكسورة .. فوجدت الرجل قد قفز من مكانه مرتاعاً وأخذ ينظر الى العربة فى حذر واحترس .. وطلبت منه الصعود فأخذ يدور حول العربة فى حذر ، ثم نجراً على لمسها فلما لم تلحق به أذى أخذ يتحسسها بيديه كأنه يتحسس ضريح أحد الأولياء .. وعلت البشاشة وجهه وبدأت عليه فرحة طفل يلهو بدمية .

وجلس بجانبى واتهال على بسيل جارف من الاسئلة حاولت أن أجيب عنها فى حدود معرفتى بالعربات وعلى الأصح جهلى بها . على أى حال ، لقد كانت أسئلته معقولة حتى وجدته يسألنى فجأة أن أبيعه العربة فإن لديه من الذهب ما يكفى لشرائها .

ونظرت الى الرجل الأحمق فى دهش وقلت :

- ولكنها لن تكون ذات فائدة لك .. حقيقة انه ليست لدى فكرة واضحة عن المكان الذى أتيت منه . ولكنى أعرف أنهم لا ينتقلون هناك فى عربات .

- من أنباك ؟ .. لا تحاول أن تستدرجنى لأشرح كيف يعيشون .. فالواجب على أن ألزم الصمت .. على أنه ليس من شأنك أن تكون ذات فائدة لى أم غير ذات فائدة .. المهم هل تبيع ؟

وهنا أخرج من سرواله كيسا مملوءا بالقطع الذهبية وأفرغ جانبا منها فى حجرة فراعنى بريقها ، وعاد يسأل فى شيء من العظمة :

- كم تريد ثمننا لها ؟

وترددت برهة فقد كنت أعلم قبل كل شيء انه لا يعدو أن يكون شيئا ولم أجد ضيرا من أن أسير فى المزحة الى نهايتها . فقلت له :

- خمسين قطعة .

بدا الرجل يعد القطع .

وأخيرا جمعت النقود فى الكيس ووضعته بجوارى .

★ ★ ★

وصمت الرجل .. وأخذت أحملق فيه دهشا ذاهلا .. هذا الرجل العاقل الرزين .. قد باع عريقته لشبح من عصر محمد على .. وهو يقص القصة بمنتهى الثقة والائزان كأنها حقيقة واقعة .. ماذا أقول له ؟ .. لقد قلت متكهما :

- ثم ماذا .. ماذا حدث بعد أن أعطاك النقود ؟

- لقد حدث بعد ذلك الشيء الغريب حقا فى الموضوع (كأن كل ما قصه على كان شيئا لا غرابة فيه) فلقد رأيتنى فجأة على رصيف الشارع فى المكان الذى سمعت فيه آخر كلمة .. بلا عربة وبلا شبح . لقد أختفى كل ما حولى كلمح البرق .. أو كأنما قد استيقظت من حلم . ولكنه لم يك قط حلما :

— هل أنت متأكد ؟

ولم يجب الرجل بل أخرج من حقيبة بجواره كيسا قد ملئ بالقطع الذهبية وبدأ يفرغه أمامي قائلا :

— لو لم أجد هذا الكيس بجواري لقلت مثلك أنني كنت في حلم أو أن ما رأيته لم يكن سوى خيالات ثمل .

ومناد الصمت .. واستغرقت في تفكير عميق .. أنا شخص سبق لي أن قلت عشرات المرات أنني لا أومن بالأشباح ولا بالأرواح ولذا فقد وجدتني أحاول أن أجد تعليلا لما قاله الرجل .. لقد كان يبدو لي أنه صادق في كل ما قال .. فهو من تلك النوع الذي لا تملك إلا أن تصدقه .. والذي لا يمكن أن يكذب .. إذا فلا بد أن يكون ما قصه قد حدث له .. أو على الأقل قد خيل إليه أنه حدث له .. وعلى ذلك فالمسألة لاتعدو أحد أمرين : أما أنه كان ثملا وسرقت منه العربة ، وهذا غير معقول لأنه قد وجد بجواره النقود . وأما أنه ضحية خدعة محبوكة الأطراف .. وهذا هو الأكثر احتمالا . وخاصة أنني شاهدت ملابس عهد محمد على متوفرة لدى الجنود الذين كانوا يقومون بالحراسة في الاحتفال بتسليم القلعة ، وعلى ذلك فلا يستبعد أن يكون خبيث قد استطاع الحصول على هذه الملابس ، وأنه قد مثل دور الشبح مع الرجل خير تمثيل ، وأن ما أعطاه إياه من النقود ليس الا قطعاً مزيفة ، وأنه قد ضربه ضربة أفقنته رشده ، ثم تركه على افريز الشارع .

وكنت أعلم أن هذا الافتراض لا يخلو من رككة . فإن هناك وسائل لسلب الرجل عربته أسهل بكثير من هذه الوسيلة .. ولكني لم أجد تعليلا لما قصه الرجل خيرا من هذا التعليل .. ولا شك أنني استطيع أن أجزم بصدقة لو استطعت أن أثبت أن القطع التي مع الرجل قطع مزيفة .

وسألت الرجل أن يعيرني قطعة منها حتى أريها لخبير ليتأكد من أنها ليست مزيفة . ولم يتردد الرجل فأعطاني القطعة وتواعدنا على اللقاء في اليوم التالي .

وذهبت الى رجل أعرف له خبرة بهذه الأمور .. وفحص الرجل القطعة
واسمن في فحصها ولشدة عجبى رأيته ينظر الى ثم ينبئنئ انها صحيحة . وانها
نادرة الوجود ، فهي من القطع التى كانت تستعمل فى عهد محمد على .

ورغم ما كان فى قوله من تأكيد للصفقة العجيبة فان ذهنى لم يستطع
أن يقبل القصة بعد ، وذهبت الى دارى ، وفى الصباح استيقظت وفى نيتى
أن أعيد للقطعة الى صاحبها .. ولكنى لم أجدها حيث وضعتها .

ومضت بضعة أيام وأنا أجهد نفسى فى البحث عنها دون جدوى .. ولم
أجد خيرا من الذهاب للاعتذار اليه ، وأن أعرض عليه ثمنها لها .

وذهبت الى الرجل فلقينى مرحبا ، وبدأت أروى له كيف سرقت
القطعة .. ولكنه قاطعنى قائلا ببساطة :

- لا عليك .. لقد أعادها الى !

- من ؟ ... من الذى أعادها ؟

- الشبح .. لقد أنبأنى أنه خشى أن تضيعها فسرقها منك وأعادها الى ..

وهزئت رأسى فى حيرة .. كيف أستطيع أن أصدق هذا ؟ كيف
سرقت ؟ وكيف أعيدت ؟

أغاب الظن أن الرجل بعقله شيء .. لوثة .. أو خبل .

على أية حال .. حمدا لله ، أن الشبح السارق قد أعاد القطعة اليه ..
فأبرأ نمتى .

وحمدا لله أيضا أننى لم أكن مستيقظا عندما ارتكبت سرقة .. والا كانت
تبقى عباره .

★ ★ ★

عِلْمُهَا عِزُّ رَافِي

كيف حدث ما حدث ؟ .. أين
ذهبت الدار ؟ .. هل كان كل ما رأيت
حُلماً ؟ .. هل كانت الفتاة شبحاً ؟ ..
هل شفيت الفتاة ؟ .. هل ماتت ؟ ..

كان ذلك في إحدى الأمسيات .. وقد ضمنتنا ندوة من الأصدقاء
والمعارف .. وكنا خليطاً من مختلف المهن والأعمار ، وأخذنا نقطع الوقت
بالمسرح أو لعب النرد والورق .. وجلست أنا أمام المذياع أنصت الى بعض
الهذر واللغو حتى ضنقت به ذرعاً فأسكتته .. والتفت الى الصحبة السامرة
اشترك معها في الحديث فسمعت أحدهم يقول متمماً بقية قول لم أسمع أوله :

- واستمر الطريق على النافذة في نفس الموعد كل ليلة .. وكنت أسمع
وقع أقدام فوق المسطح تغدو وتروح .. ثم أسمع صوت هبوط جسم ثقيل ..
واؤكد لكم أنني لم أكن جباناً في يوم من الأيام .. ولكن هذه الأصوات في
منتصف الليل كانت تبعث في جسدي قشعريرة .. ولقد حاولت بضيع مرات
أن أتسلل الى الظلمة وقد أمسكت في يدي سكيناً لعل الطارق أو السائل يكون
لصاً .. ولكني لم أعثر على أحد قط .. وكنت لا أكاذ آوى الى فراشي حتى
يعود الطريق .. وأخيراً لم أعد أحتمل .. فتركت الدار تنعى من بناها .

وصمت القوم .. وأخذوا يهزون رؤوسهم في دهمش وتساؤل ، ثم قال
أحدهم معللاً :

- أجل .. لاشك فى وجود الأرواح والأشباح ، لقد سكنا ذات مرة بجوار إحدى الدور المسكونة .. التى قيل لنا أن صاحبها مات محروقا .. ولم يكن الأتئين ينقطع طول الليل وكنا أحيانا نسمع عويلا وصراخا .
وأمن البعض على أقواله بهز الرؤوس ، وبدأت الحيرة على البعض الآخر .

ولم أحتمل هذه الخرافات .. فأنبرت أقول وأنا أضحك ساخرا :

- كلام فارغ - هذه كلها أوهام وتصورات مبعثها ضعف الأعصاب .. هذا الطريق على النافذة ، والأقدام التى تروح وتغدو والصراخ والأتئين .. لاشك أنها صادرة من مصدر ملموس كائن .. لست أدرى ما الذى يبعث روحا من الأرواح على أن تمضى ليلا فى دق نافذة ، أو التمشى على سطح .. أو يح صوتها فى الصراخ والأتئين ، هذه مخافات .. حرام علينا أن ننسبها للأرواح .. ولو بحثنا جيدا لوجدناها ناتجة عن أئفه الأسباب .

وصاح الصديق صاحب النافذة المطروقة :

- كيف ؟ ومن تظن أنه صاحب الطرقات وصاحب الأقدام التى تغدو وتروح ؟

- صاحب الأقدام قد تكون قطة على السطح .. أما الطرقات فقد تكون صادرة من شئكل مكسور تعبث به الريح .

واندفع صاحب البيت المسكون يقول فى استخفاف ومخزية :

- والأتئين والعويل .. ما سببهما ؟

- كلب جريح .

- لا فائدة من المناقشة معك ، انك انسان تستخف بكل شئ وتظن أنك تعرف كل شئ .

واندفع الباقون يسفهون رأبى .. فالتظرت حتى خف ضجيجهم وقلت :

- لابد أن يكون لكل شيء سبب .. ولو بحثنا عن أسباب هذه الخزعيلات جيدا لاستطعنا أن نعثر عليها .. ولوجدناها في منتهى الثقافة .. لاتمت الى الأرواح أو الأشباح بأية صلة .

وكان واحد من القوم قد اتخذ مكانا قصيا .. ولم يحاول أن يشرك نفسه في المناقشة ، وهو طبيب معروف عاقل رزين فسمعتة يقول معقبا على قولى :

- معك حق .. فأنا مثلك لا أؤمن بالأشباح .. ولكن يخيلى لى أن هناك قوى مجهولة تأتي بأفعال - غير ذلك العبث من طرق على النوافذ وأتينا فى سكون الليل - أفعال تعنى شيئا .. أو تكون ذات فائدة لكائن بالذات .. دون أن نستطيع أن نعلل كيف حدثت أو من فعلها .

ولم أفهم بالضبط ما يقصده الطبيب ، وكذلك بقية الرفاق والظاهر أنه قد رأى قوله غير مفهوم .. فقد تناول ثقابا وأشعل سيجارته ، وقال وهو ينفث دخانها ببطء :

- يبدو أنى لم أستطع أن أوضح قولى جيدا .. إذن فاسمعوا ما أقصه عليكم :

حدث هذا منذ بضع سنين اذ كنت مدعوا لقضاء بضعة أيام فى عزبة فزكى بك عبد العالء صاحب مصانع النسيج المعروفة بالمحلة .. وهو رجل كريم لطيف المعشر .. زرتة بضع مرات فى مرض ألم به فأصر على أن يرد الجميل بدعوتى الى عزبته .

ولقد قبلت الدعوة مكرها ، اذ كنت موقنا بأنى لن أجد من وسائل التسلية فى عزبته النائية ما يجعلنى أقضى وقتا طيبا .

وذهبت .. لمجرد رغبتي فى الا أولم الرجل برفض دعوته على أن أعود بعد يومين على الأكثر .

واستقر بى المقام فى الدار القائمة بين المزارع المترامية ، وأدهشنى

أن أجد في الريف بيتا يمثل هذه الفخامة .. فقد كانت تتوفر فيه كل وسائل الراحة والتسلية .

ومرت بي الأيام الأولى دون أن أحس بأى ملل .. فقد كانت لكل تلك المرغبات - مضافا اليها عامل مهم ، أو هو أهمها جميعا ، وهى بنت أخى زكى بك - أثرها الفعال فى استيقالى .. ونسيانى ما كنت قد عقدت النية عليه من عودة سريعة .

كنت أقضى اليوم فى لعب التنس ، أو فى المباحة ، أو فى ركوب الدوكار ، أو صيد السمك .. تشاركنى الفتاة فى كل ما أفعل .. وكنت سمراء جذابة ، شديدة المرح ، تفيض أنوثة وجاذبية .

ورحلت الفتاة فى اليوم الرابع .. وبدأت أحس بالفراغ والوحشة .. وخيل الى أنى قد أحببت الفتاة .. وصممت فى نفسى على أن أتقدم لخطبتها . وحدث فى اليوم الذى عزمتم فيه على الرحيل أن دعانا «عمر بك شريف» لزيارته وقضاء المسهرة عنده .. وكان يملك العزبة المجاورة ، وقبيل الغروب أخبرنى زكى بك أنه يحسن بتوعك وأنه يفضل أن يستريح ، وسألنى أن أذهب وحدى قائلا : أنه قد أمر الأسطى محمود بتجهيز «الدوكار» ليقلنى الى هناك .

وكننت أحب قيادة الدوكار ، فأجبتته بأنى أعرف الطريق الى بيت عمر بك وأنى أستطيع الذهاب وحدى .. فلا ضرورة لأن تتعب الأسطى محمود .. دعه يستريح .

وبدأت المسير وأنا أحس بنشوة عجيبة .. وكنا فى أكتوبر ، وجو الخريف رطب منعش ، والشمس تتهاذى فى الأفق مجررة ذيولها الحمراء على رؤوس الأشجار وأطراف المزروعات .. والجواد يمشى مرحا .

ولاحت لى أخيرا الأشجار العالية المحيطة بدار شريف بك .. ثم عبرت البوابة الخشبية القائمة أمام باب الدار والمتصلة بالصور الذى يحيط بالحديقة .. وكانت الظلمة قد سادت وتبدد النور الا بقايا باهتة واهنة تبدى من المرئيات أشباحا غامضة .

وتسلم العربية والجواد أحد الحراس .. ودخلت الدار فوجدت صاحبها
في انتظارى مع ثلة من الأصدقاء واعتذرت عن زكى بك ثم اتخذت مجلسى
بينهم .. متشاعلا بالحديث تارة وبالعجب تارة أخرى .

وحان وقت العشاء فنهضنا الى حجرة الطعام .. وبيد كل كأسه ،
وسرت بينهم أحمل كأسا من الويمسكى للمخفف أخذته بعد الحاج ، اذ لم أكن
منعودا الشراب .

ولم أتناول من الطعام الا قليلا .

وعندما بعد العشاء لتواصل اللعب والضحك .. وعندما بلغت الساعة
العاشرة استأذنت فى الانصراف .

وخرج شريف بك ليوصلنى الى الحديقة ، ووجدت العربية فى
الانتظار ، وقد أضاء الحارس مصباحها ، واتخذت مكانى على مقعد السائق ،
وقلت لمضيفى :

- أرجو أن أرد ضيافتك فى مصر .. حتى استعويض الريال الذى
خسرته فى اللعب .

وضحك شريف بك وقال :

- سأزورك ان شاء الله .. لأضعاف الربح .

وحينته ، ثم جذبت اللجام فتحرك الجواد ولوحت للرجل بيدي ،
وانطلقت من البوابة الخشبية الى الطريق .

ولم تكن الظلمة ؛ ديدة فى بادىء الأمر ، فقد كانت أضواء النجوم تظهر
لى هيئة المرئيات واضحة جلية .. ولم يصعب على أن أميز توهينات التربة
من أشجار وأكواخ ، وكان مصباح العربية يبدد بعض الحكمة فريزبنى
لطمئناننا .

ولكن عندما أمعنت فى السير بدأ الضباب يملأ الجو وزادت الظلمة
ونهب الضوء الخافت الشاحب الذى كان يهبط من النجوم المألقة .. ولم يعد
المصباح قادرا على أن يكشف جوانب الطريق .

وبدأت أتمهل وأعيد لنفسى وصف الطريق وألف الى اليمين عند شجرة الكافور التى تكسبت بجوارها أكوام المباح .. ويظل الطريق مستقيما حتى أبلغ بضعة أكواخ محيطة بساقية ، فألف الى اليسار ثم أعبّر القنطرة ، وأسير بجوار التربة حتى أبلغ البيت .

وأحسست بشيء من الراحة عندما أقنعت نفسى بأنه لا خوف على من الضلال وسط الضباب والظلمة .

ولاحت لى شجرة الكافور فأتجهت يمينا ، وواصلت السير فى الطريق المستقيم .. وأنا أمعن البصر فيما حولى باحثا عن الأكواخ والساقية ، وخيل الى أنى قد سرت أكثر مما يجب دون أن أبصر فى الطريق أية معالم .. وتوقفت برهة ونزلت من العربة وأخذت أسير هنا وهناك محاولا العثور على مكان الساقية حيث يوجد الطريق المتجه يسارا والذى يعبر القنطرة ..

وعدت الى العربة دون أن أتبين من حولى شيئا .. وقلت لنفسى أننى قد أكون مخطئا فى تقدير طول المسافة التى قطعتها وأن الساقية ما زالت بعيدة .

وعاودت السير مرة أخرى ، حتى لاح لى طريق يتجه يسارا فدللت فيه آملا أن أعبّر القنطرة بعد حين .. ولكن السير طال دون أن أعثر على أى أثر .. وأدركت أنى ضللت الطريق ، وقلت لنفسى أن خير ما أفعل هو أن أعود الى بيت شريف بك لأستعين بأحد رجاله ، أو لأقضى الليلة معه حتى الصباح .

وأدركت العربة عائدا من حيث أتيت .. وبدأت أستعيد لنفسى المرات التى لغت فيها حتى لا أضل فى العودة أيضا .

ومع ذلك فقد ضللت ، وأخذ الوقت يمر بى وأنا ممعن فى السير ، أتخبط على غير هدى .. دون أن تبدو لى بارقة ضوء .

عجبا .. ألا يوجد كوخ واحد من أكواخ الفلاحين أستدل منه على الطريق .. فلا شك أن أى فلاح فى هذه المنطقة يعرف بيت زكى بك، أو شريف بك .

يجب الا أياس ، فلا بد أن أعثر على من يثنى على الطريق ، أو على من يأوينى عنده حتى الصباح .

وسار الجواد متثاقلا يضرب الأرض ضرباته المنتظمة .. وأحسست بالتعب ، وبالنوم ينقل أجفاني .

ولست أدري بالضبط هل نمت طويلا وأنا ممسك بالجام ، أم أن عيني لم تغفل سوى لحظة خاطفة .. فالإنسان عندما ينام في مثل هذه الظروف لا يستطيع أن يعرف مدة نومه ، بل لا يستطيع أن يعرف إن كان قد نام أم لا . على أية حال لقد كان أول ما أبصرت عندما فتحت عيني ضوءا يلوح على مقربة .

وبدء رؤية الضوء ما عراني من خمول .. وحثت الجواد متجها الى مصدر الضوء .. وبعد فترة قصيرة كنت أقف أمام بوابة خشبية مغلقة .

وهبطت من العربة واقتربت من البوابة القصيرة ودفعتها ففتحت .. ووجدت الأشجار المتكاثفة قد حجبت الضوء الذي كنت أبصره وأنا في الطريق .. ولم أعد أميز شيئا أمامي ، فعدت الى العربة ونزعت منها المصباح حتى أسير على هديه .

ومرت في ممر ضيق يقوم على جانبه سور من الدرنلة لم تمتد اليه يد المقص منذ زمن طويل .. وفجأة انطفأ المصباح ووجدت نفسي مرة أخرى في ظلمة دامسة .. ولم أجد بدا من التخبط في الظلمة حتى أصل الى نهاية الممر .

ولم يطل بي السير حتى وجدت نفسي أمام بضع درجات حجرية تؤدي الى باب ، ولاح لي الضوء الذي أبصرته وأنا في الطريق .. ومددت يدي فقرعت الباب .. ومضت برهة ثم سمعت وقع أقدام متثاقلة تقترب من الداخل .

وأحسست بشيء من الخجل وأنا أقف أمام الباب فقد كانت الساعة تكاد تبلغ الثانية عشرة .. وتصورت ذلك الازعاج الذى سببته لأصحاب الدار .. وتصورت حنقهم عندما يتبينون انى اسألهم عن الطريق الى بيت فلان ، أو علان ، .

وتوقفت الأقدام وراء الباب ، ثم ضغطت على زر كهربائى فأضاء فوقى مصباح غمر المكان بنور قوى ، ثم فتح الباب ووجدت أمامى امرأة فى خريف العمر ، تلتحف بشال أسود غطى رأسها وكتفيتها وبدأ وجهها أصفر تتخلله بعض التجاعيد وتحيط به الشعيرات البيضاء .

وأحسيت رأسى وقلت بأقصى ما استطعت من أدب ورقة أشرح لها ما أريد :

- مساء الخير .. أنا الدكتور ...

وهنا حدث آخر ما كنت أتوقع .. حدث ما تركنى مشدوها مذهولا .. وأوقف الكلمات على لسانى .

لم تكذ المرأة تسمع منى كلمة «دكتور» حتى اندفعت الى تمسك بذراعى وتصيح فى صوت متشنج باك :

- الدكتور ! .. أغثنا ياسيدى .. أدركنا .. لقد كدنا نياس من حضورك .. ابنتى يادكتور .. أرجوك .. تفضل .. لقد أرسلنا الخادم لكى يحضر طبيباً من البلدة منذ ساعتين فلم يحضر حتى الآن .

ولم يكن يسعنى سوى الرضوخ للمرأة ، فقد كانت مفاجأة شديدة الوقع على ، ولم تكن حالتها تعيننى على أن أشرح لها ما أتيت من أجله أو التفاهم معها على أى شيء ! ..

وتبعتها صاغرا مشدوها الى الطابق الأعلى وهى مستمرة فى نشيجها وتوسلاتها الى أن أنقذ ابنتها .

ودخلت وراءها فى إحدى الحجرات ، فإذا بى أجد فتاة راقدة على فراش .. فتاة .. ما زالت صورتها حتى الآن مطبوعة فى ذهنى لاتفارقه .

لقد كانت جميلة ما فى ذلك شك .. ولكنى لا أظن الجمال وحده يمكن أن يترك فى نفسى ذلك الأثر .. لقد كان بها ما يشبه الساحر .

وجلست بجوارها وهى مغمضة عينيها نصف الغماضة ، وقد بدا عليها الألم .. فأمسكت بيدها أجس نبضها وأنا أطلب من أمها الهدوء ، وسألتها أن تشرح لى ما بها .

ولم يصعب على أن أدرك أن الفتاة مصابة بنزيف أحدث عقدها هبوطا فى القلب ، وأنها فى أشد حالات الخطر ، وأن الاعياء قد بلغ بها حدا تحتاج معه الى اسعاف سريع وعلاج عاجل .

وكان على أن أبدا باعطائها كورامين .. ثم أخذ فى إيقاف النزيف واسعافها بالعلاج العادى .

ولم يكن بالدار شيء من هذا .. ولم تكن هناك صيدلية قريبة .

وتذكرت أن زكى بك يحتفظ فى داره بكمية من مختلف أنواع الأدوية للطوارئ .. فنهضت من مقعدى ، وقلت للمرأة أئنى سأعود إليها حالا ، بعد أن أحضر لها الأدوية المطلوبة .

واندفعت أميوط فى سرعة جنونية ، وقفزت الى العربى ، وألهيت ظهر الجواد .. فانطلق يعدو ...

الى أين .. ١٢

يا للحمق والغبوة .. لقد نسيت أهم شيء أتيت من أجله نسيت أئنى قد ضللت الطريق .

وهمت بأن أجنب الجواد لأعود الى المرأة مرة أخرى وأسألها عن الطريق الى البيت الذى أريده .. فلاشك أنها تعرفه ..

ولكنى لم أكد أجنب اللجام حتى سمعت صوت حوافر الجواد تطرق أرضا خشبية .

عجبا .. انها القنطرة .. وليس على لكى أصل الى البيت الا ان أمير
بحوار التربة .

وعجبت لتصاريف القدر ، لو أنني سرت برهة ولم أتوقف عند الضوء
لعرفت الطريق ولما فكرت في أن أتوقف وأقرع الباب وأعود المريضة التي
كانت تتلف على طبيب .

وأخذت أستحث الجواد ، غير عابىء بظلمة ولا ضباب ، وانطلقت
العربة بسرعة جنونية .

وفجأة كبا الجواد .. وأحسست بالعربة تتمايل وتترنح .. ولم أتحير
بنفسي الا وأنا ملقى على الطريق أكاد أهوى الى الماء ..

ونهضت لتحسس أعضائى فوجدتني سليما لم يمعنى سوء .. ولكن
الجواد كان ملقى على جانبه والعربة مقلوبة .

ونظرت أمامى فوجدت أضواء تلوح على بعد ، لم أشك في أنها صادرة
من الدار التى أقصدها .

وبلا تفكير انطلقت أعود .. ووصلت الى الدار مبهور الأنفاس خائر
القوى ، ووقفت أمام الباب أقرع الجرس قرعا متواصلا .

وفتح الباب ، ووجدت بكى ينظر الى مشدوها وقد بدا عليه
الانزعاج ، وسألنى عما أخرنى الى هذا الوقت ؟

واندفعت أقص عليه كل ما حدث باختصار ، وأسأله أن يربنى الصيدلية
الذى لديه حتى آخذ منها ما أريد ، وأن يأمر بتجهيز عربة أخرى .

ونظر الى بكى فى ذهول واقترب منى يشم رائحة فمى وقال فى
هدوء :

— لقد شربت أكثر مما يجب .

— أرجوك يا زكى بك .. استمع الى .. انى لم أشرب سوى كأس

واحدة .

- وهذا أكثر مما يجب .. ان ما رأيته لايمكن أن يكون حقيقة لسبب بسيط ، هو أن هذه المنطقة لا تحتوى ، - لمسافة أربعين كيلو - غير بيتى وبيت مشريف بكه ، وأكواخ الفلاحين .. وما سمعت قط أن هناك امرأة وابنتها فى دار على مقربة من هنا وأنت نفسك مررت بالطريق قبل ذلك ، فهل أبصرت هذه الدار التى نتحدث عنها .. ؟ ادخل .. ادخل هناك الله .

- ولكننى أقسم أن ما رأيته حقيقة ، ان الفتاة توعدك أن تقضى نحبها . وكنت ، وأنا أؤكد له قولى ، أقول لنفسى : حقا انى لم أبصر أثرا للدار قبل الليلة .

ومع ذلك فقد أصدرت على العودة ، وعلى ان آخذ الأدوية ، وقال لى زكى بك :

- لايمكن .. ان أدعك تخرج .. انك متعب .. انتظر حتى الصباح وسأذهب معك بنفسى .

- ولكن لن تعيش الى الصباح .

ومع ذلك فلم يكن هناك بد من الانتظار .. فقد أصدر زكى بك على الا يعطينى الأدوية ، والا يسمح لى بالخروج ، وكانت قنماى لاتقويان على حملى من فرط ما عدوت .. ولم أجد بدا من الاستلقاء بملابسى على احدى الأرائك حتى الفجر .

وقبل أن تشرق الشمس ، كنت أوقف زكى بك وأرجوه فى الحاح أن يعطينى الأدوية .

وهز الرجل رأسه فى دهش واستسلام ، ثم نهض وارتدى ملابسه وانطلقنا بالعربة بعد أن أحضرها رجاله وأصلحوا ما بها .. وغيروا الجواد .

ولا أظننى فى حاجة الى أن أخبركم مبلغ ذهولى وخجلى ، ونحن نجوب المنطقة شبرا شبرا .. نبحث عن الدار المزعومة فلا نجد لها أثرا .

★ ★ ★

كيف حدث ما حدث .. ؟ أين ذهبت الدار .. ؟ هل كان كل ما رأيت
حلمًا طاف برأسي وأنا نائم على مقعدى بالعربة ثم أيقظنى منه وقوع الجواد
وانقلاب العربة ؟ .. هل كانت الفتاة شبحا ؟ .. هل شفيت الفتاة ؟ .. هل
ماتت ؟ .

وساد القوم مكنون عجيب الا من صوت خافت همس بيننا :

- أجل ماتت ..

ونظرنا متعجبين الى صاحب الصوت وكان رجلا كهلا حديث المعرفة
بنا .

وتلفت اليه الطبيب وسأله فى دهش شديد .

- من أدراك .. أتعرفا ؟

فأجاب الآخر فى صوته الخافت ونبراته الهامسة :

- أجل انها ابنتى ماتت منذ أربعة أعوام ، اذ حدث لها نزيف أودى
بها .. وكنا نقطن وقتذاك فى الأقصر ، حيث كنت أعمل فى السكة الحديد ..
وغبت عن الدار ذلت ليلة فى جولة مرور ... وعدت فى الصباح وجدت الابنة
قد ماتت ... والأم تردد فى شبه هذيان :

- لو عاد الطبيب ، لما ماتت ...

وعلمت منها أن النزيف حدث فجأة وأنها أرسلت الخدام يبحث عن
طبيب فطلعت غيبته .. وأخذت تدعوة الله أن يعجل بحضوره ... وفجأة
طرق الباب ، ودخل الطبيب ، وقد بدا لها كأنه هبط من السماء وفحص
الفتاة ، ثم قال انه سيعود سريعا بعد أن يحضر الدواء والاسعاف اللازم ..
ولكنه لم يعد قط .

وصمت الرجل ثم مد يده الى جيبه فأخرج محفظة صغيرة سحب منها
شيئا .. أعطاه للطبيب .

وفخر الطبيب فاه ، وجحظت عيناه ، وهتف بصوت مبحوح وهو
يحملق فى الصورة :
- انها هى .

★ ★ ★

مجنونان .. مخبولان .. كيف يصدق عاقل مثل هذا الهراء ؟ .
أيمكن أن يحدث هذا ؟ .

أهذا ما عناه الطبيب بقوله أن هناك قوى مجهولة تأتى بأفعال - غير
ذلك العبث من طرق النوافذ وأنين فى جوف الليل ١٢ - أفعالا تعنى شيئاً دون
أن نستطيع أن نعلل كيف حدثت أو من فعلها ..

كيف يمكن أن يعلل ما حدث ؟
أهو تجالوب أرواح .. الله وحده أعلم
ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي .

★ ★ ★

جبال الصدور

الاهداء

الى الذين فى شفاهم سمت ، وفى حشامهم منخب .
الى الصابرين على الجوى .
الهائنين على السعير .
الى الذين انطوت قلوبهم على مشاعرهم .
وأغلقت صدورهم على خباياهم .
أهدى بعض ، خبايا الصدور .

يوسف الصياغى

وَسِيَّةُ الْفَرَسِ

أيتها الدمية .. سامحك الله .. الى أحبك
حتى الآن .. حتى بعد أن وضعتك في
مصاف الدمى .. ولكن الى متى يدوم
حب الدامسى ؟

لهفى عليك يا ساحرة ، أن أضحك في مصاف الدمى . لهفى عليك يا حبيبة
الروح أن ينتهى بك المطاف .. لتستقرى بجوار غيرك .. ولتضيفى
الى كوم الدمى ، نمة أخرى .

لهفى عليك وأنت المخلوقة الرقيقة المرفهة الحس المتأججة
المشاعر .. أن أنزعك من القلب لألقى بك وسط الحطام البائد .. والرماد
الخامد .

كنت أربأ بك عن هذا المصير .. كنت أنزهك عن التردى فيه ،
وكنت أتشبث بك ، وأضم عليك الحنايا ، وأطبق الضلوع .. كنت مصمما
على أن أبقيك الى الأبد ، كنموذج سام مرتفع يسمو عن الخطايا ، ويجل
عن الهنات .

كنت مصمما على أن أجعل منك نسيجا وحدك .. نسيجا حيا .. غير
نسيج الدمى البائعات الخامدات .

ولكن ما حيلتى معك ، وقد ابيت الا الزلل والهبوط ! ما حيلتى !
أخلق منك معبودة مقدسة .. فتصنعين من نفسك بشرا نافها .. أرفعك فوق
الغمام فتحدرين الى الرغام .. ما حيلتى ! أضعك فى قلبى .. فتطأيرين
مع الهواء وتخرجين مع كل زفرة حارة ، وآهة ملتهبة .

ما حيلتى ! اجعل منك حبيبة للروح .. وتجعلين من نفسك دمية ؟ .

★ ★ ★

هل تذكرين قصة دمية .. بالطبع تذكرينها .

فما أظن هناك قصة كانت تشغل رأسك ، وتقلقك أكثر منها .

كنت تجزمين أن القصة حقيقة واقعة ، وكنت تكرهين بطلتها
وتغارين منها ، رغم علمك أنها - بفرض صحة وجودها - قد اضحت
خارج الحابة .. وأن القلب قد خلا لك وحدك لتريعين فيه بلا شريك ولا
منلاع .

كانت القصة كما تتكررين تدور حول فترة راحة ، وكان بطلها
الفنان الزوج الأب قد اندفع فى حب يائس لا أمل فيه سوى أن تهبه الحبيبة
فترة راحة ، ولكن الحبيبة خذلته ونكصت على عقبيها .. فكتب يقول
لها :

« لقد اندفعت فى حبك حتى خيل لى أنى أوشك أن أصل الى فترة
راحة ، ولكنى رأيتك تنتئين فجأة وتقلبين ظهن المجن وتبدلين على حقيقتك
زائفة نافهة .

« ولا أكتمك أنى صدمت ، وأن الصدمة كانت شديدة الوقع على
نفسى ، وأن صدك قد ألمنى ، وتحولك عنى قد أوجع نفسى ، واكتشاف
حقيقتك عصر قلبى اعتصارا ، ولكنى استعنت بالصبر والتجلد ، وقاومت

صديق بصد مثله وصممت على أن أقتلعك من قلبي اقتلاعا .
، وأعاننى الله على البرء من حبك ، واستطعت أن أتمسك أو أكاد
حتى أضحيته بالنسبة الى دمية كغيرك من الدمي .
وكان أكثر ما يقلقك .. أن تحل نهايتك معي كما حلت نهاية بطلة
القصة .

كنت تخشين أن أبرأ من حبك ، وأن أتمسك ، وأن تصبحي بالنسبة
الى مجرد دمية .

وكنت تسأليننى فى لهفة :

- كيف سلوت صاحبائك الأوليات ؟ كيف طرنتهن من قلبك ؟ كيف
كرهتهن ؟ ، لشد ما أخشى أن ألحق بهن ؟ .

كنت تسأليننى وقد جلسنا متلاصقين ، والصحراء العريضة قد
امتدت أمامنا ساعة الغروب ، والشمس الهابطة تجر أنياله الحمر ، وفى
أقصى الأفق بدا المنظر الساحر الذى اتفقنا معا على أن نستوعبه فى رؤسنا
قطعة قطعة ، وأن نحفظ تفاصيله وحذايقه حتى يخلد فى نفسينا هذه
اللحظات السعيدة التى اختلسناها من القدر .

وانى أنكره بأفانئة .. كأنى أبصره أمامى ، وسأذكره دائما كشمس
لازم لك .. أنكر المزارع تمتد فى أقصى الأفق وراء الصحراء الواسعة
خضراء باهتة .. كأنها شريط يفصل صفرة الرمال عن زرقة السماء .
وأنكر المخنة القائمة مرتفعة مستقيمة تنفث بدخانها الأسود المتبدد مع
المسحب ، وأنكر أكوام الرمال أمامنا التى استخرج منها الزايط ، وأنكر
العربات تقلقك كلما مرت من الطريق البعيد ، فخلتها قائمة الينا تقطع
وحدها ، وتزعج ، خلوتنا .

أنكر كل ذلك يا حبيبتي ..

وأنكر وجهك الدقيق الحلو وأنفك المستقيم وطرطوفته المرتفعة التى

كان ياذ لي أن أمسك بها برفق بين أمتاني كأنني أوشك أن ألتهمها .

أنكر عينيك الساحرتين المتلهفتين اللتين تقطران وجدا وتفيضان
جري وأنت تسألينني :

- كيف كرهتهن ؟ .

- كرهتهن لأنهن أكرهتنني على كرههن .. لأنهن كن تافهات
منقلبات .

- كم لود أن أبقى في قلبك الى الأبد . اني لا أستطيع الآن أن أشرح
لك حبي ، انه شيء زاهر فياض ، لا تعينني الألفاظ على وصفه ، ولكن
في المستقبل قد تستطيع أن تعرف مقداره .

- اني أعرفه الآن ، لأنني أشعر بمثله .. ولن يقدر على أن ينزعك
من قلبي الا شيء واحد .

- ما هو ؟ .

- أنت .

- وكيف ؟ .

- أنت وحدك التي تستطيعين أن تنزعني نفسك من قلبي ، بأن
تتميه ، وتجرحيه ، وتبدلينني بالهجر ، وتكثري حبي ، وتستبدلينني بأخر
او بأخرين .

ونظرت الى مؤنية وتهنت تهيدة حارة ، وقلت في صوت يذوب
أسمى :

- أنا أفعل ذلك ؟ ! ليتني أستطيع أن أفعله .. ليتني أستطيع ان أرفع
عن نفسي عبء حبك .. حبك اليانس الذي لا أمل فيه .

ووضعت رأسك على صدري وقلت هامسة :

- ولكنني عبثا أحاول .. اني لا أحسن بالرحلة الا الى جوارك ..

أحسن أنى فى موضعى الصحيح .. وأننى بت ملكك ، تفعل بى ما تشاء
ولا شىء يمتعنى أكثر من ذلك . أحبنى دائما فانى لا أتصور كيف أعيش
من غير حبك .

- سأحبك دائما .. كيف لا أحبك ، وكل ما بك يبعثنى على حبك ؟ .
كيف لا أحبك وأنا ما رأيت فى حبك لحظة شقاء ولا ضيق ؟ . كل ما ذقته
من حبك سعادة خالصة لا تشوبها شائبة .. لقد أَرْضِيت كل جراحة فى
نفسى .. كيف لا أحبك وأنت تعبريننى مخلوقا كاملا مثاليا ؟

- وإني لكذلك .. وما من إنسان الا ويعتبرك كذلك .

- لا .. لا .. ان عين حبك هى التى ترانى كذلك .

ولا أكاد أنتهى من قولى حتى ألمح سحابة حزن خيمت على وجهك
فأسألك فى جزع :

- ما بك ؟

- لا شىء ..

- بل بك شىء !

- لا شىء أكثر من احساس بقرب الفرة .. كم أكره أن أتركك ولو
الى حين ، ويعلم الله ماذا يمكن أن يحدث لى عندما يقدر لنا أن نفرق الى
غير لقاء !

وضممتك الى ومسحت بشفتى كل قطعة فى وجهك .. عينيك
ورجنتيك ، وأنفك ، وخديك ، وذقنك ، وعنقك ، وكتفيك ، وذراعيك ،
ويديك .. ثم استقررت فى النهاية على شفتيك .

★ ★ ★

حقوق منى أن أكرر ذلك الآن .. فما أظننى الا كالتأديب فى ماتم أو
كالتأنيح على قبر يستدر العبرات باستعادة ما مضى ويستدرف الدمع بترديد
ما فات .

ولكننى لوكد لك اننى اكتب بلا عبرات ، أو عبرات جامدة فى
المقلة .. ولو سألت لخففت عنى بعض الجوى ، وانهبت عنى بعض
اللوعة .

لقد افترقنا وهذالك وأنا أشعر أننا قد وصلنا فعلا الى « فترة
الراحة » .. وأنا قد انغمرنا فيها .

وكيف لا .. وأنا ما أحسست براحة ذهنية أو روحية أو قلبية كما
أحسست بجوارك أو بمجرد التفكير بك .

كيف لا .. ورسالتك التى أرسلتها الى بعد افتراقنا تنطق بذلك ..
وتشهد به .

كيف لا .. وأنت القائلة فيها :

« لقد قلت اننى ما دمت قد سمحت لنفسى بأن أفعل معك ما فعلت ..
فإن من العبث أن أمل فى سعادة أخرى مقبلة . »

أننى آخذ نصيبى من السعادة الآن فلا أظن أن هناك مخلوقا يستحقنى
أو يستحق أن أحب له ما وهبت لك .. أكثر منك .. انى لا أستطيع أن أكون
مثلك فأحب عشرات الرجال .. كما أحببت أنت عشرات النساء .. وأن
أستمع بهم كما استمعت بهن .. لأننى لا أملك إلا أن أحب مرة واحدة ..
رجلا واحدا .. ولقد كنت أنت هذا الرجل .. ولا أحد سواك .

اننى أجزم لك أننى حتى لو تزوجت فلن أحاول أن أحب زوجى كما
أحببتك . قد أشعر له بنقص التقدير والاحترام اللذين تشعر بهما لزوجتك ..
أو أقل .. ولكننى لوكد لك أنى لن أجسر على تقبيله أو ممسه أو على فعل
أى شيء من هذا القبيل .. رغم أن هناك بعض الأشياء التى لا بد لنا من
تأديتها لأن واجبنا يحتمها علينا .

إن متعتك بى لا تعادل منعتى بك .. لأننى أشعر أنى أحس كل كأمسى

الآن .. انى أفرغها حتى الثمالة .. انى أستمع بضعة ذراعيك وحرارة شفتيك وبكل شيء فيك .

لقد كنت دائما أقول لنفسى انى لابد فاعلة ذلك مع أحدهم ، وماذمت أنت الآن - وستكون دائما - أعز الناس على نفسى وأقربهم الى قلبى .. فلا أظننى أكون بمخطئة اذا ما فعلته معك .

إن الحياة قاسية يا حبيبى ولا أظننا نملك ازاء قسوتها الا أن تختلس المتعة من حاضرتنا فنقبل على بعضنا قدر ما نستطيع ونمنع انفسنا قدر ما يمكننا ، وأن يثق كل منا بصاحبه دائما .

انى أثق بك برغم انى لا أثق قط برجل فى هذه الدنيا ، كل ما أرجوه منك هو الا تخذلنى أبدا .. أبدا .. وانحفظ حبنا سامتا فى قلوبنا ، مستعرا فى حنايانا ، دون أن يشعر به أحد ممن حولنا .

المخلصه

.....

★ ★ ★

أجل يا أخى وايساعدنا الله .. ولكن علام ؟ على الحب ؟ أو على الخلاص من الحب ؟

أما أنت .. فأغلب ظنى - رغم محاولتك الانكار - أنك قد تخلصت منه .. أما أنا .. فانى أدعوه ليل نهار ، أن يخلصنى منه ، ولكن الله لا يستجيب دعائى .. فإن الذهن قد يغفر عن تكرار لحظة ، ولكنه لا يلبث أن يندفع وراءك يلاحقك ويطاردك ، فيصيب القلب منك ما يشبه الغثيان وتغرق النفس فى ظلمة من الحزن معنمة .. وأكاد لولا بقية من جلد ، ومسكة من الابهاء والخجل ، أن أندفع فى البكاء .

لقد قلت فى رسالتك : « كل ما أرجوه منك هو ألا تخذلنى أبدا » .

وأنا أقرأ الان جملتك .. ولا أملك أن أمنع ابتسامة مريرة من أن
تتخذ طريقها الى شفتي .

أنا أخذك ؟ لقد ما ظلمتني برجاك .

والآن .. أينها العاشقة الولهي .. المحبة الى الأبد .. من منا الذي
انثنى عن صاحبه وتركه في منتصف الطريق .. أو على الأصبح في
منتصف فترة الراحة .. أنا ؟ أم أنت ؟ .

لقد فعلت بالضبط كل ما حذرتك من فعله ، لقد أنزلت بي من العذاب
والألم ما لو سلطه على ألد أعدائي لعجز عن انزاله بي .. لقد ارتكبت معي
جريمة قتل .. معنوى .. روحى .. قلبى .

لقد قذفتني من حلق .. وأشعرتني بمنتهى التواضع ، وقد يكون هذا
بعض ما تستحقين عليه الشكر ، اذ لا بد للإنسان من بعض الصدمات التي
تعيده الى نفسه وتجعله رقيق من غروره .

ولكن أكنت أنا حقا مغرورا ؟ يعلم الله أني قلت لك مائة مرة اني
لا شيء .. ولكنك كنت تأبين الا تأليهى .. واتهامي بالعقوبة والنبوغ ..
سامحك الله وعفا عنك .

والآن . ماذا فعلت بي ؟ وما الذي حدا بك الى فعله ؟

كل ما حدث بيننا سوء تفاهم لا يمكن أن يخلو منه عاشقان ولست
أظن هناك فائدة من سرد تفاصيله ، ولكن أنكر ان أقسى ما فعلته بك هو
أنى غضبت عليك لأنك لم تستطعي تقاىي ، ورفضت أن آخذ منك تذكرة
لمشاهدة حفل كنت مستقومية بالتمثيل فيه .

أفعلت أكثر من هذا ؟ .

فماذا فعلت أنت ؟ .

وأنت - هذه - تحتاج الى بعض الضغط والتأكيد .. والشرح
والتفسير .

أنت .. القائلة : أنك ستتبعيننى الى أقصى الأرض .. القائلة بأنك
لمت مثلى .. أنا المتقلب المتحول .. العاشق لعشرات النساء .. لمت مثلى
لأنك لم تحبى ، ولن تحبى سوى رجل واحد .. هو أنا .
أنت المرتجفة خوفا من أن أنساك .. الغير مصدقة أنى أحبك حقا .
انت .. وأنت تعرفين أكثر من كل مخلوق .. ما كنت وما قلت وما
كتبت ، وما فعلت .

بعد كل هذا أيتها العاشقة الوفية .. ماذا فعلت بعد أول خصام
بيننا ؟ .. لقد كتبت الى رسالة وداع تقولين أنك تكرهين أن تنهى ما بيننا ..
وأنت ما زلت تحبيننى ، وأنت برسالتك تنهين لقائنا ، ولكنك لا تنهين حبنا
وأنت مستظلين تحبيننى بينك وبين نفسك حتى تتحاشين الزلل والخطأ ،
وحتى يستريح ضميرك .

وكانت كتابك - والحق يقال - قطعة رائعة فى الوداع ولم أملك الا
أن أرد عليه بمثله .

ومع ذلك - ورغم أننا أعلننا الوداع بالرسائل - فقد كنت غير مقتنع
بأن ما بيننا يمكن أن ينتهى حقا بمثل هذه السهولة .. بمجرد رسالة منى
ورسالة منك .. كنت واثقا - لا سيما وقد قلت لك لازلت تحبيننى - أن
الحنين العائد والشوق الزائد لابد معيدان كل منا الى صاحبه .

وبعد بضعة أيام حادثتك فى التليفون .. لأطلب منك لقاء قصيرا ..
فقد كنت واثقا أن مجرد لقائنا سيذهب كل ما فى نفسنا .

فماذا قلت لى فى التليفون ؟

قلت لى : أنك مشغولة .. وأنه ليس لديك وقت .. وأنت لا تستطيعين
لِقائى .. ولا الحديث معى .. وأنه كان يجب أن أعرف أن كل ما بيننا قد
انتهى .. ثم .. ثم أغلقت السماعة فى وجهى .

وأمسكت بالسמاعة برهة ، وأنا انظر إليها فى عجب وذهول .. ثم
وضعتها فى مفرها فى سمعت كأنى أضع ميتا فى نعشه .

ان الأمر قد يحدث لأى رجل .. ومن أى امرأة .. وحاشاى أن
أستكبر وأغتر فأقول انى لست أنا الذى تعود من النساء القسوة والهجر
والخذلان .

ولكن منك أنت .. لى أنا .. كان أكثر من أن يحتمل . كان مذهلا ..
كان قاتلا .

أنت .. يارقيقة الحاشية ، يا مرهفة الحس .. ياملتهبة العاطفة ،
ياذاتبة القلب .. يا من تتمنين ألا أخذلك .

ومع ذلك فقد احتملت الصدمة .. ولم أحاول ردها لك .. ولم يكن
أمامى سوى الاحتمال لأنى مازلت أحبك .

والثقينا بعد ذلك لقاء قصيرا عابرا .. وقلت لك فيه انى ما زلت رغم
ما حدث أحبك .. فhezرت رأسك وقلت : كأنى لا أفعل ، .

أجل .. لقد قلت أنك أيضا ما زلت تحبيننى رغم كل ما حدث .

هكذا كان قولك .. أما فعلك فقد كان يكذبك تكذبا قاطعا .. لأنى
عندما لقيتك ثانية .. مددت يدى لمصافحتك - لأنى كنت أعقد أننا نستطيع
على الأقل أن نكون أصدقاء - فلم تمدى يدك .

وأحسنت بخجل شديد وقلت لك :

- لنها أول مرة أمد يدى فلا تلقى يدا .

- كان لابد أن يحدث ذلك فى يوم ما .

- كنت أود ألا يكون منك أنت !

وأحسنت بالخجل فمددت يدك ، مصافحتنى ، ولكن بعد أن
أحسنت أن كبريائى قد تحطمت .

وبعد لحظات انزلت بي الضربة الأخيرة .. والقاضية .. فلقد رأيتك
تجلسين مع آخر ، وقد بدت عليك أقصى آيات البشاشة والرضا والهناء .
وفي اليوم التالي تكررت منك اللطمة .. وأحسست ان الأمر بيننا
قد انتهى فعلا .



وهكذا فقدت كل أمل فرك ، ولم يبق لي من أمل في غير الله ، لقد
لجأت اليه بعد طول ذنب وعصيان ، وزلل وخطايا ، أسأله أن يتقضى منك
ومن نفسي ، وينسيني اياك .

وأنا صبور .. شديد الجلد ، قوي الاحتمال ، ولكن الصدمة كانت
أقوى من الصبر وأشد من الجلد .. لقد تركتني مروراً منهاراً .

لقد كانت المسألة أشد من أن تكون مجرد فشل في حب . لقد بدد
انقلابك من النقيض الى النقيض كل ايمان لي بالحسن البشري والشعور
الانساني .. لقد كنت مخطئاً من الأصل في حبك .. ولكن كان يعزيني أنني
مساك بحسن المرفق .. وقلبي الذي لا يهدأ .. وكنت أرى فيك صورة
لنفسى .. فلما خذلتني جعلتني أشعر كالغريب الضال وأحس أنني بين الناس
شاذ في مشاعري وفي حمسى .

وحاولت جهدى أن أخفي صدمتى - وأن أبعد بين الصحاب كما
أنا - ولكن صاحبي أدرك ما بي فقال ناصحاً مؤنباً :

- انت السبب في كل ما حدث .

- كيف ؟

- لم تعرف كيف تعاملها .

وماذا كنت تريدني أن أفعل ؟

- انى أنكر اقصوصة عربية قد تعطيك درسا مفيدا . زعموا أن
أعرابيا سأل عنقرة بين شداد عن سر شجاعته فقال له : ضيع أصبعك فى
فمى ومأضع أصبعى فى فمك . ففعل الأعرابى ، فقال له عنقرة : قليعض
كل من الآخر ، وبدأ كلاهما فى العض فصرخ الإعرابى من الألم ولم
ينبس عنقرة ببنت شفة .. وترك أصبع الأعرابى قائلا : هذا هو سر
شجاعتى .. أن المى يعادل ألمك ان لم يكن أشد ، ولو لم تصرخ أنت
لصرخت أنا ، ولكنى استطعت أن احتمل حتى صرخت أنت فبدوت أنا
أكثر شجاعة .

وصمت صاحبى برهة ثم أردف :

- وهكذا كان يجب عليك أن تفعل .. انها تعض على أصبعك فعض
على اصبعها واياك أن تصرخ حتى تصرخ هى وتسألك العفو واللقاء .

وهزئت رأسى ، أن صاحبى لا يفهمنى ، وشر ما فى الأمر أنه ليس
هناك مخلوق يمكن أن يفهمنى .. الا مخلوق واحد .. هو أنت .

أبعد هذا مخزية ؟ أنت وحدك التى كان يمكن أن أشكو اليك نفسك
فتفهميننى وتقدرين أساى وحزنى .

ولقائى صاحبى بعد هذا فسألنى :

- كيف حال أصبعك ؟

فأجبتة ضاحكا :

- الألم يشتد به يوما بعد يوم .

- اسبر واستمر فى العض .

ولكنى لم أحاول أن أعض لأنى أكره - بعد كل ما فعلت - ايلامك ولم
يكن أسهل على من أن أحاول عضك ، وأن أكيل لك بنفس الكيل وأنت تعرفين
أن الصديقات اللاتى يحاولن أضاظتك فاجتذابى اليهن كثيرات .. وتعرفين أكثر

من هذا مدى ايلامك عندما ترين صاحبا لك معه فتاة أخرى ، فما بالك بصاحب .. تحبينه أو كنت تحبينه ؟

لم أحاول ايداعك .. وصمتت على أن أحتمل الأمر ، وأصبر على الصدمة وأن أنساك .

وعندما سألتني صاحبي آخر مرة عندما أنزلت بي ضربتك القاضية :
- كيف حال أصبعك ؟

- قلت له :

لقد قطعتة .

ولم يكن في الواقع أصبعي ، بل كان قلبي .

اني أحس به يدمى وينزف .

ولكن لا بد لنزيفه من نهاية .

أيتها الدمية .. سامحك الله .

اني أحبك حتى الآن .. حتى بعد أن وضعتك في مصاف الدمى .

ولكن الى متى يدوم حب الدمى ؟

★ ★ ★

ووضع الكاتب قلمه وجمع الأوراق فطواها . وهم بالضغط على زو الجرس ليستدعى الحاجب حتى يعطى له القصة لتسليمها الى المطبعة ..
في الوقت الذي دفع الحاجب الباب ويده بضعة خطابات ووضعها على المكتب .

ومد الكاتب يده بالأوراق لتسليمها للحاجب عندما لمح خطها المكتوب على أحد الظروف فجذبه بحركة عصبية مفاجئة .. وأعاد الأوراق الى مكتبه ثم أمر الحاجب بالخروج والانتظار .

وفض الكاتب الخطاب بمرعة وأخذ في القراءة ..

★ ★ ★

، أتذكر القصة التي كتبها لك عن حبنا ؟ والتي جعلت فيها البطلة .
التي هي أنا - لموت في نهايتها بداء الصدر .. أتذكر رأيك فيها وقتذاك ،
عندما قلت لي ، أنك تحبين حبك وتفزعين أن تريه إلى نهاية ، ولذا فضلت
أن تضعي حدا لحياتك حتى لا ترين نهاية حبك .

اني الآن في مثل هذا الموقف ، أرى نهاية حبي ، ولكن لا أستطيع
أن أضع لحياتي نهاية .. ان القدر يأبى على تلك النهاية التي منحها لبطلة
القصة .. فقد جعلني سليمة معافاة أرقب نبول حبي ، ولا أستطيع أن
أغضض عيني حتى لا أراه .

ان أمامي الآن .. قصتك ، دمية ، .. أقلبها بين يدي وأقلب نظري
بين سطورها .

كم أحس بالألم والمرارة ، ولما أرائي قد زججت بنفسى بمنتهى
الحرق في موقف بطلتها .

كم أحس بالانهيار وأنه أجد نفسي قد بت لديك مجرد دمية .
كنت بلهاء حمقاء حينما حاولت أن أنتهز فرصة خصامنا لأنهي
حبنا .. أجل .. لقد ظننت في ساعة غضب عليك اني أستطيع التخلص منه
وصممت على انتهائه .. فقد كنت أعرف مبلغ ثقله عليك وعلى ومبلغ
خطيئتنا به وخشيتنا منه .

ونكرت ما قلت لي من أنه لن ينزعني من قلبك وينميك أباي الا
أن أبديك بالهجر ، وأنكص في حبك وأستبدل بك آخر .

وصممت على أن أبدأ التجربة .. تجربة انقاذك من حبي .. وانقاذي
من حبك ، وأخذت في صدك وهجرك وأستبدلت بك آخر .. تماما كما قلت
لي .

ويبدو لى أن الظروف كانت قد تأمرت على .. فقد تقدم لى أحدهم
وقتك لخطبتى ، ولم يكن هناك غبار عليه .. بل كان فى عرف أهلى
يعتبر ، لقطة .

وقد وجدت فيه أنا من وجهة نظرى خير ، لقطة ، تعاوننى على تنفيذ
خطتى ، وعلى وضع حد حاسم لما بيننا .. لاسيما وأنى كنت أخشى أن
أضعف أمامك ، فأتكس على عقبى .. وأعاود الانغماس فى حبك بطريقة
أشد عنفا وأكثر قوة .

ولم أحاول قط أن أفكر فى ذلك الخطيب .. أو انظر اليه بعين
فاحصة .. اذ كان لى مجرد وسيلة للخلاص .

وبين عشية وضحاها اضحييت زوجة .. واعتبرت، انى قد انتهيت
منك تماما .

ومع ذلك ..

أجل .. ومع ذلك .. لم أكد افيق من غمرة الزواج واجراءاته ..
حتى وجدت نفسى أشبه بالمجنونة .

أشبه ؟ انى مجنونة فعلا !

ما هذا الذى فعلته ؟ ..

لقد دمرت حياتى بعملين أحمقين :

أولهما .. اننى احببتك .. ولكن عذرى فى هذا : انى لم أكن مجبرة
فيه بل مدفوعة اليه على الرغم منى .. اما الثانى ، الأشد حمقا ، والذى
فعلته بمحض ارادتى ، فهو أنى هجرتك وأذيتك وحطمت كبرياءك ..
وفعلت بك شر ما يمكننى فعله ، ثم تزوجت بعد كل هذا بمنتهى البساطة .

أهذه هى محاولتى لانتقاذ نفسى ؟ ..

يا للحمق ويا للجنون ؟

انى أعرف انى قد فقدتك تماما .. وهذا هو ما يجعلنى أكاد أجن ..
ويزداد جنونى عندما أقارنك بهذا المخلوق الثافه الذى تزوجته .. وعندما
أذكر السعادة العميقة التى كنت تمنحنيها بمجرد لمسة يدك .
انى لا أطيعه .. ولا أطيق رؤيته أو القرب منه .

لو تركت لنفسى لفررت عائدة اليك ضاربة بكل شيء عرض
الحائط .. ولكنى أعرف انى فقدت قيمتى لديك وأعرف انك حتى لو حاولت
التظاهر بحبى .. قلن يكون ذلك أكثر من وفاء منك ورفق بى .. أما حبك
المناجج المستمر فانى موقنة تماما انى قد فقدته - بعد كل ما فعلت - الى
الأبد .

ما قيمة حياتى ؟ .. وأنا أرى نفسى ميته لديك ؟ .. لقد كنت أحب
الحياة من أجلك فماذا يغرينى بها أن فقدتك ؟ أليس الموت منقذا لى ؟ .
أليس خير ما ينعم به القدر على هو خاتمة كخاتمة بطلة قصتى ؟ .
ولكنى القدر ضفين حتى بالموت عندما نريده .

لجل .. انى أريد الموت .. لانى أعرف أنه سيحيينى لديك .. انى
واثقة أنى لن أستهيد مكانتى فى نفسك الا بعد الرحيل .

انى أفضل أن أكون حية فى قلبك ، ميتة أمام الناس .. من أن أكون
ميتة فى قلبك ، حية أمام الناس !

كل ما أرجوه منك هو الا تخذلنى .. بعد موتى .. وأن تجعل لحياتى
المقودة ثمنا .. هو حبك .

أحبينى يا حبيبى كما أحببتنى دائما .. حبا جارفا فيلضا مناججا
مستعرا .

انى ما زلت أثق بك .

وأرجوك أن تثق بي .

ثق أنى - كما قلت لك - لا أملك إلا أن أحب رجلا واحد .. وهذا الرجل .. هو أنت .

وأرجو - بعد ما قلت لك - ألا تضعنى بعد موئى فى مصاف
الدمى .. لأن الدمى لا تموت .

، وخير لى أن أكون حبيبة راحلة .. من أن أكون دمية ياقية ،
المخلصة
، ،

★ ★ ★

ولأول مرة ينوب جامد دمه .. فتتساقط عبرتان على الرسالة وينق
الجرس ، ثم يطوى الرسالة مع القصة ويسلمها للحاجب وهو يقول فى شبه
همس :

.. هاكم دمية أخرى .

★ ★ ★

خطيئة أم

فرت أمي .. فخلفت لنا فجيرة ما بعدها
فجيرة .. ولم تكن فجيعتنا بفرارها ناتجة
عن احساسنا بألم الفرقة .. فما كانت هي
بذات أثر في الدار فنحس بأثر لغيبها .. بل
كانت فجيعتنا هي فجيرة عار وفضيحة ..

خطايا النساء ثلاثة :

خطيئة امرأة بلا زوج وبلا أطفال ..

وخطيئة امرأة ذات زوج ..

وخطيئة امرأة ذات زوج وأم أطفال ..

ولو جمعت كل خطايا الأرض لما ساوت خطيئة الثالثة ..

ان لم تصدقوني فاقرأوا هذه القصة .

هي قصة نفس مرهقة معذبة ، ألقت عليها الحياة عبء غيرها ..

فأنقذت به كاملها .. وأنقضت به ظهرها .. نفس مرهقة حساسة .. طوت

بين الضلوع مرارة احزاتها .. وجمرت أساما ، حتى كاد يحرق صدرها
ويتزكها هشيما ورمادا .

حدثتني صاحبة القصة فقالت :

- أمى .. يا سيدى هى علة للشقاء .. ومنبع الداء .

أمى التى كان يجب أن تكون عونى فى الحياة .. كانت عوناً لها
على ..

أمى التى كان يجب أن تبعد عنى للشقاء وتقينى الشر .. وتجنبينى
الهموم .. لم يكن لى فى الحياة هم سواها .. كانت شقائى .. وكانت عللى .
أى انسان لم يجد بين أحضان أمه ملجأ ؟ .. وعلى صدرها راحته ؟
لقد كنت أعتبر نفسى يتيمة بلا أم .. وكنت أعدد فى عداد الأموات ..
ولكن حتى هذا اليتيم لم ينعم به الله على .. فقد كنت أدرك فى قرارة نفسى
أنها ما زالت حية تسعى .. وأنتا - بعد طول فرقة - قد نلتقى فى أية
لحظة .

لا تقل أن فى نفسى غلظة وقسوة .. ولا تقل عاقبة جالدة .. ملأت
نفسها المرارة فهى تفيض بها على ما حولها .. لا .. ولا تقل لى ان الجنة
تحت أقدام الأمهات ، .. فما خلقت لى أمى سوى جحيم يستعر لهبها ،
وتتأجج نارها .

فارقتنى وأنا فى الثامنة .. فارقتنى قلم أستشعر لفرقتها كثير
لوعة .. وغابت عن الدار .. فما خلف غيابها فراغاً يحس به ، اذ كانت
لا يستقر لها فى الدار قرار .. كانت أبداً فى انطلاق دائم .. لا تأوى الى
الدار إلا للنوم والأكل والتزين .

دعنى أعرض لك صورة لما كنت أراه وقتذاك بعينى وأنا طفلة منذ
أكثر من عشرين عاماً .. أم وأب فى عراك دائم وتطاحن مستمر .. لست

أدري أيهما المخطيء ، أو أيهما المصيب .. ولا أيهما المعتدى أو أيهما صاحب الحق ، ولكن كل ما أعرفه أنى كنت أنجو بنفسى من تلك المعارك ، وألوذ بأحضان - الحاجة - للخاتمة المعجوز ، فأدفن رأسى فى صدرها حتى تأخذنى سنة من النوم .

انى لأذكرها تماما ، بالرغم من تلك المئين الطوال التى طواها الزمن . أذكرها ، كامرأة غريبة لا كام ، فما اذاقتنى طعم الأمومة قط .. فقد نضب فى نفسها معين من الحنان .. أو قل انها لم تجد من وقتها فراغا تستطيع أن تشعرنى فيه أنها أمى .. لا أظنها كانت قاسية .. ولكن كل ما فى الأمر أن فرط تعلقها بذات نفسها كان يستغرق كل وقتها . ويمتد كل جهدها . فهى لا ترى سوى نفسها .. ولا تعنى الا بنفسها ولا تمتع الا نفسها .

لا أظننى كنت وقتذاك أستطيع فهمها كما أفهمها .. فما كنت أحاول ان افهم شيئا .. وما كنت أعرف أن هناك شيئا اسمه الأنانية .. وأن هناك شيئا اسمه الشر .. ولكن كل ما كنت أعرفه ، هو أن - الحاجة - كانت أقرب الى منها .. وكانت أكثر حنانا ، وأشد حبا .

كانت أمى امرأة جميلة .. من النوع الذى لا تخلف فيه المسنون أثرا .. فما كانت تبدو أما حتى ولا زوجة .. بل فتاة مريحة لاهية ، لا ترهل فى جسدها ، ولا تهدل فى صدرها ، بل تماسك واستواء .. ونضج وامتلاء .. ولقد قالوا لى انها لم ترضعنى خوفا على ثدييها من التلف .. والله أعلم ما فى قولهم من الصدق .. وإن كنت أنا لا أستبعده .

ويخيل الى أنى قد ورثت عنها الكثير من ملامحها .. فلقد كانت - الحاجة - كثيرا ما تنبئنى بأننى شديدة الغضب بها ، وكم أقض قولها هذا مضجعى .

كنت لا أراها فى الدار الا منهمكة فى تصفيف شعرها .. أو فى

وضع المعاجين والمسايق على وجهها .. أو فى تزجيج حواجيبها بمقاط
بين أصابعها .. أو فى إزالة الشعر عن ساقها وعن جسدها .. أو فى طلاء
أظفار يديها وقدميها .. حلقة مفرغة لا تنتهى منها أبدا .. تستغرق منها
كل وقتها ، أو كل هنيئاتها التى تقضيها فى الدار أثناء اليقظة .

وكننت أحس بأنها كانت تفعل أشياء .. لم أكن أعرف بالضبط ما
هى .. وإن كنت أدرك باحساس هاجس .. أنها أشياء غير مشرفة .. أشياء
مما لا يصح عملها الا فى الخفاء .. ويخيل الى أن - الحاجة - كانت
تعرف تلك الأشياء وتكرهها .. وتكره أمى من أجلها .. وتحتقرها بينها
وبين نفسها وتزدرىها وإن كنت بالرغم من ذلك تحاول التستر عليها .

كان يخيل الى فى بعض الليالى .. أن هناك زائرا يزورنا فى الليل
خلسة ، وينصرف قبلما يحضر أبى ، وكننت آوى الى فراشى مع -
الحاجة - فأسألها عمن يطرق الباب فتنبئنى بأنه بائع اللبن . أو الكواء ..
وتطلب منى أن أنام .. ولكن كنت لا أنام ، بل أرهف السمع ، فيدهشنى
أن الكواء كأنه قد تصل الى داخل البيت ، ومكث فيه .. ثم يهاجمه النوم ،
فأروح فى مبات عميق ، لا أدري بعده ماذا يفعل الله بالكواء ، أو ببائع
اللبن ؟

هل كانت أمى تخدع أبى وتفعل ما يحلو لها من ورائه ؟ هل كان
أبى يعرف ؟ ..

من كان أبى ؟ .

أبى - الذى أعرف أنه أبى - كان مدرسا .. ثم ناظر مدرسة .. كان
رجلا من رجال العلم والتربية .

أترى رجال العلم والتربية كلهم كأبى ؟ أتراهم دائما عابسين
متجهمين .. لا يستطيعون أن ينسوا لحظة أنهم مدرسون ونظار ؟ أتراهم
لا يرون فى كل من حولهم الا تلاميذ ؟ . وعليهم أن يؤدوا لهم كل واجبات

التبجيل والاحترام ؟ أتراهم يعتبرون أن كرامتهم لا تحفظ الا بالتبجيل ؟
وأن هيبته لا تصان الا بالتزمت والتكشير ؟

اقسم لك بأنى ما رأيت أبى يضحك قط . ولم أكن أكرمه .. ولكنى
كنت أتمنى أن يكون خيرا من ذلك .. كنت فى حاجة الى من يدللى
ويعطف على .. فلا أظن من السهل على طفلة أن تجد أمهالا من
التاحيتين .. الأم والأب . فالمعتاد هو أن يعوضها أحدهما بحنانه عن
الآخر .

فإذا كان الأب جادا عبوسا ، كانت الأم حنوننا رقيقة ، وإذا كانت الأم
لاهية عابثة .. كان الأب لنا عطوفا .. أما أن تكون الأم مشغولة بصقل
جسمها ، وتزجيج حواجبها والمحافظة على بروز صدرها .. وأن يكون
الأب منهمكا فى احاطة نفسه بهالة من الاحترام والمحافظة على هيبته
وكرامته . فذلك ما لا يحتمل .

وهكذا مرت بى الطفولة وأنا مهملة منسية .. حتى كان ذات يوم ..
وكانت الكارثة .. ووقعت الواقعة .. ففرت أُمى مع عشيقها .. زائر الليل
الذى أفهمت أنه بائع اللبن تارة ، والكواء تارة أخرى .

فرت أُمى .. فخلفت لنا فجيرة ما بعدها فجيرة .. ولم تكن فجيعتنا
بفرارها ناتجة عن احساسنا بألم الفرقة .. فما كانت هى بذات أثر فى الدار
فنحس بأثر لغيبتها .. أو نشعر فراغا لافتقادها .. بل كانت فجيعتنا هى
فجيرة عار وفضيحة .

تصور يا سيدى .. أبى .. الرجل الجاد العبوس .. القويم الخلق ..
الذى يخلق بنفسه فى برج عاجى من الهيبة والكرامة .. والذى لا يهمه
شئ فى الحياة قدر أن يحترمه الناس .. تصور هذا الرجل .. وقد فرت
زوجته مع عشيق لها .. وتركته وراءها لقمة سائغة تلوكها الألسن ..
وتمضنها الأفواه .

لقد كان وقع المصائب عليه أشد من أن يوصف .. وأصاب منه
موطننا حساما .. فأضنى نفسه وأضى قلبه .. لقد هد كيانه وحطمه
تحطيمًا .. فبدأ عليه الهزال والكبر كأنما هو قد زاد عمره فجأة عشرات
العنين .

هكذا كان وقع المصائب بالنسبة إليه .. أما بالنسبة الى ، فماذا أقول

لك ؟

حقيقة أنى كنت طفلة فى الثامنة .. وأنى لم أكن على شيء من
الوعى الذى يتيح لى أن أحس بمرارة الفضيحة .. ولكنها مع ذلك
أوجعتنى .. وكان أوجع ما فيها أن مر الزمن - الذى يحمل فى طيه باسم
النسيان - لم يحمل لى فى طيه نسيانا قط .. بل كان كلما أmeen فى
المرور ، وكلما ازددت وعيا وازددت فهما .. تزايدنى . الاحساس
بالفضيحة .. وتمادى تأثيره على حياتى .

كان أول تأثير لها على .. هو تلك النظرات العجيبة .. التى أضفى
بوجهها الى أبى .. نظرات الريبة والشك والحيرة والقلق .

هل كان يشك فى انى لست أبنته ؟ جائز جدا ؟ وماذا يمنع من هذا

الشك ؟

زقد كانت أمى ، هى أمى .. الخائنة الخادعة التى لوثت شرفه
وطعنته فى كرامته .. من يدري أنى لست أبنته وهو لا يعرف متى بدأت
أمى خديعتها له .. ومتى بدأت تلقى بنفسها فى بؤرة الفجور ؟ . ماذا يمنع
من الشك .. وأنا - لسوء حظى - لا أكاد أحمل منه لمحة شبه .. فهو
لا يجد فى الا صورة مصغرة منها ؟

لقد ملأ المصائب نفورا منى وتباعدا عنى ، وكان يخيّل الى أنه لا
يرى فى سوى أثر الخطيئة .. أو على الأقل مصدرا لشكوك تساوره ..
وربية تملأ قلبه .. ولقد كان معذورا .. فلولاى لاضمحلت ذكراها فى

رأسه .. ولا استطاع أن ينسى .. ولكن وجودى أمامه وشدة شبهى بها ..
كانا ينكأن قرحة ويدميان جرحه .. أن صدرا واحدا هو الذى استمر
يؤوينى ، وبفيض على بحنائه .. هو صدر - الحاجة - العجوز التى
أخذت تعيننى وتشد أزرى .

وانتقلنا من مسكننا الى مسكن آخر مبتعدين عن جيراننا الذين
عرفونا وعرفوا فضيحتنا .. ولتستبدل بهم آخرين لا يعرفونا ولا
يضمفوننا بأفواههم .. آخرين نستطيع ان نخفى عليهم أمرنا .. واستبدلت
مدرستى بأخرى .. فقد كنت أحس بأنى لا أستطيع رفع رأسى بين
صاحباتى القديمات ، وكنت أنأى بنفسى عنهن وأجلس وحيدة فما أكلم
واحدة منهن .. وما أن واحدة عرضت فكلمتنى .. ملأ نفسى إحساس
بالذل .. وشعور بالهوان .. تماما كأنى أنا التى ارتكبت وزر لأمى .

وبدأنا الحياة فى مسكننا الجديد .. وذهبت الى مدرستى الجديدة بعد
أن امرئى أبى بأن أقول للناس إذا ما سألوني عن أمى : انها ماتت ، ولم
أحس من قراره بضيق ولا بغضاضة فقد كان هذا خير ما يمكن أن يقال .

ومرت الأيام .. وعلم كل من تعرفت بهن من صديقاتى الصغيرات
أن أمى ميتة ، وبدأت أحس بالكثير من الراحة والأطمئنان .. وإن كان
ينتابنى خوف بين أونة وأخرى من أن أمى ما زالت على قيد الحياة وأنها
قد تظهر مرة ثانية فى أفق حياتنا فتجدد فضيحتنا وتعيد تلويثنا .

وذات يوم حدثت فى المدرسة حادثة نافهة .. ومع ذلك فقد نكأت
جرحى وسببت لى ألما شديدا .

كنت وقتئذ فى الرابعة عشرة .. وكانت المدرسة على أهبة أن تقوم
بحفلتها السنوية .. وكنت سأشارك فى تمثيل إحدى الدوريات التى كنا
منقوم بتمثيلها فى الحفلة .

وبدأت المديرية بتوزيع الأدوار .. ووقفت بين صاحباتى منتظرة

بورى ورأيت السيدة ترفع أصبعها وتشير الى ثم نقول ببساطة : مستقرمين
أنت بتمثيل دور الزوجة الخائنة .

وأحسست بأن الدماء قد تصعدت الى وجهى .. وأن رأسى من فرط
الحرارة التى تعمل فيه على وشك الانتهاب .. وأحسست بغصة فى حلقى
وبغشاة على بصرى ، وصعدت لحظة ثم انطلقت صائحة فى غضب
جنونى دون أن أدري ما أنا قائلة : « أنا لست خائنة » .

وبهتت السيدة للوهلة الأولى .. وبهتت الفتيات من حولى ، ومضت
لحظة قصيرة ساد فيها السكون وعم الدهش وكانت لحظة قصيرة جدا ..
تعالىن أنفسهن بعدها .. ثم استفرغن فى الضحك ، وأخفن يتندرن بى
ساخرات قائلات : « هذه هى الزوجة الخائنة » .

وعصفت بى نوبة من البكاء لم استطع مقاومتها ، وأمرت المدربة
الفتيات بأن يكفنن عن مزاحهن .. وأفهمتني أنها واثقة من أننى خير
الفتيات .. وأن هذا مجرد تمثيل .. وأنها ستعطي الدور لفتاة أخرى .. ما
دلم هذا يؤلمنى .

عدت الى أثبتت ربنفسى انهيار تام ورغبة فى البكاء .. وارتميت
فى أحضان - الحاجة - باكبة ، وألقاها بما حدث ، فاضمتني إليها ،
وأحسست لأول مرة بدموعها الساخنة تنساب على صفحة وجهى .. وقالت
بصوت ملؤه الرقة والعطف :

- يا حبيبتي .. انت سيدة الناس .. ومستزوجين من سيد الناس .

وهمسست أجيها فى صوت مريـر :

ابنة الخائنة .. لا تلتقى بمسيد الناس أبدا .

- ومع ذلك فقد التقيت به .. سيد الناس بلا جدال .. وأحسنتهم خلقا
وخلقاً .. فتى يقطن الدار المجاور .. هادىء الطبع ، جم الأدب .. وكان

طالباً في كلية الطب .. ولم أكن أحس بوجوده بالرغم من تقارب دارينا ..
حتى كان ذات يوم أصيب أبي بنوبة أسعاه .. وأصابنا جزع شديد ..
وخرجت .. الحاجة - فزعة مرتاعة .. تستغيث بأقرب مخلوق ، فصادفها
اللقي خارجاً من داره وسألها عما بها فأنبأته ، ودلف معها الى الداخل ..
ففحص أبي وقام بأسعافه .. ثم خرج لاحتضار أحد الأطباء .

وعاد مع الطبيب الذي أنبأنا بأن أبي قد أصيب بشلل وأشار ببعض
أدوية .

ومنذ ذاك اليوم بدأت أحس بتغيير كبير طرأ على حياتي ، وكان
منشأ ذلك التغيير .. أمرين : أبي .. وصاحبى .

أما عن أبي فقد بدأ يتحول رجلاً آخر .. وبدأت أحس لأول مرة
في حياتي ، بعطفه وحنانه . لست أدري أكان ذلك صدى لما أبديته من
جزع عليه وتفان في خدمته ، أم أحساساً بأنه قد ظلمنى بطول أعماله
وتباعده وشكه ورييته ؟ على أية حال لقد أحسست أننى أحبه ، وأنه مخلوق
طيب .. وأن أمى هى المسئولة عن كل ما به .. وأنها كانت تستطيع أن
تجعل منه انساناً بشوشاً مرحاً ، لو كانت امرأة طيبة عاقلة .

أما عن صاحبى .. فقد ألقى على حياتى شعاعاً بدد ظلماتها وجعلنى
أحس بأن الحياة جميلة باسمه .. وشغلنى التفكير فيه عن التفكير فيما
عداه .. ولأول مرة فى حياتى بدأت أحس بلذة التفكير .. ولو قال لى انسان
قبل ذلك ان للتفكير لذة لقلت عنه انه مجنون .. ما كان أمتع التفكير
وتذكرك .. وما كان أعجب تلك اللذة التى أنسجها من خيوط الفكر
والخيال ! . وما كان أقدرنى على ان أمتع نفسى بنفسى ! كان يكفى لى
أغمر نفسى بالسعادة وأحيطها بالنعيم .. ان أتذكره . ان أتذكر تقاطيع
وجهه .. وبسماته وضحكاته ، وحركاته وأفكاره .. كيف ينظر الى ؟ ماذا
قال لى ؟ أنكر كل كلمة وأتصور كل نظرة .. ما كانت أرخص السعادة

وقتذاك ! وما كان أسهل الحصول عليها ! لقد كانت تأتي من نبع دافق ، ومورد فياض .

ومرت الأيام وعلاقتنا بجيراننا تتوغلن يوما بعد يوم .. ونشأت بين أبويننا صداقة توثقت مع الأيام عراها ، وذهبت لزيارة أمه .. فإذا هي سيدة كاملة .. نموذج لزوج وأم .. بل نموذج لما يجب أن تكون عليه كل امرأة في رقتها وطيبتها .. وحلاوة لسانها .. وطلاوة حديثها .. لا تبغض احدا ولا تنهش عرض احد .. تحب الناس جميعا ، وتمدحهم جميعا .. لا تذكر الا حسناتهم ، اما الهنات فلا تراها .

التقيت بصاحبي ذات مرة وجلسنا نتحدث .. فأخذت امتدح له أمه .. وبدأ عليه الاغتياب لمديحي اياها وقال لي :

— ان مديحك لها ليس الا ترديدا لمديحها لك .. فانها معجبة بك أشد الاعجاب .. وكم سرني أن تتحابا بمثل هذه السرعة .

وصمت لحظة ثم أردف بلهجة يشوبها الأسى :

— هل لك أن تعتبرها أما لك ؟ كم وددت لو رأيت أمك . فلا شك في أنها انسانة فاضلة .. حدثيني عنها .. كيف كانت .

وأحمست بقلبي يدق بعنف وانتابني شعور غريب .. وحاولت جهدي أن أتمالك وأتماسك ، واستطعت أن أجيبه في النهاية قائلة :

— لقد ماتت وأنا طفلة . اني لا أذكر عنها الشيء الكثير .

— وافترقا بعد ذلك .. وانتابني شعور بالخوف والقلق .

لقد كان يسهل على أن أكذب عن كل الناس وأن أقول لهم ان أمي ميتة ، وأن ألقى عليهم بما أشاء من الأكاذيب .. أما عليه هو فقد كان ذلك أمرا شاقا عصيرا ، لأنه — بالنسبة الي — ليس ككل انسان .. فلو تحققت

أحلامي العذبة وأمانى الحلوة ، ولو منحني الله ما ألتوق اليه .. فارتبطت حياتي بحياته وأضحيت زوجة له لا يفارق أحدا الآخر حتى نهاية العمر .. لرتحقق أملى هذا .. فلا شك في أن الأكذوبة ستضحى أمرا خطيرا .. من الصعب الاستمرار عليها .. فقد تكشفها الظروف يوما ما .. فيعرف أنني ابنة غادرة خائنة فرت من زوجها ومن بيتها .. وأنى قد كذبت عليه وخدعته .. ماذا يكون موقفى وقتذاك ؟ اليس من الأفضل لى أن أحسم الأمر من البداية .. فاما أن أنأى بنفسى عنه .. واما أن أكون شجاعة فأخبره بالحقيقة .

وجلست الى - الحاجة - فى تلك الليلة .. وقد تملكنتى لوعة وأسى .. وأخذت تحسس برفق على رأسى وتحادثنى حديثا لم أك أعى منه شيئا ، فقد كان بى شرود شديد . وأخيرا سألتها فجأة :

- يا حاجة !

- نعم يا حبيبتى .

- هل يحق لى أن أحب ، وأن أتزوج كبقية الفتيات ؟

ونظرت الى فى شيء من الدهش وهى تحاول ان تنفذ ببصرها الى رأسى لتستطلع ما وراء قولى ثم أجابت بعد هنيهة :

- إذا كان شخصا جديرا بحبك ويستحق ان يكون اهلا لك . فلا شك فى أن لك الحق فى حبه وفى زواجه .

- انه جدير بحبى ويأكثر من ذلك ، لو كنت أملك شيئا أكثر من الحب .. وهو أهل .. لا لأن يكون زوجى ، بل ولأن يكون سيذا لى .. ولكن المسألة فى أنا .. هل أنا جديرة به ؟ . وهل أنا أهل لأن أكون زوجته ؟

ورفعت حاجبها فى دهش وتساءلت :

ولم لا ؟

ونظرت اليها نظرة طويلة فاحصة .. وأجبتها وفي صوتي بكاء
حبيس :

- وأمي ؟

وصدمها قولي ، وسرت في جسدها منه رجفة ، واكنها سألتني في
شيء من الاستنكار :

- ما لأمك ؟

- أقول له عنها ؟

- تقولين ماذا ؟

- أقول الحقيقة .

أية حقيقة ؟ لقد ماتت أمك منذ زمن طويل .. هل هناك حقيقة غير
هذه ؟

واندفعت في نوبة بكاء ، وأخذ جسدي يهتز اهتزازا عنيفا بين
نراعيها .. وهي تربت على ظهري وتحاول تهدئتي .

حتى هي تأبى علي إلا أن استمر في الخدعة ، لقد أقنعنا أنفسنا جميعا
بأنها قد ماتت حقا .

وأحسست بشيء من الراحة ، واستقر رأيي على ألا أصارحه
بشيء .

وبعد بضعة أيام تناسيت حزني .. وعدت أنغمر في متعة حبه ..
لا أبصر أمامي سواه ، ولا أنكر غيره ، وكان ذلك كفيلا بأن يمحو من
حياتي كل سيئة ويبيد كل شقاء .

وعدت الأيام سريعة .. كلمح البصر .. وهكذا الأيام دائما أسرع من
البرق في السراء ، وأبطأ من السلحفاة في الضراء .. فمرت سنتان كأنهما
يومان أو لحظتان .. وتخرج هو أخيرا في كليته فأضحى طليبا .. وتقدم
لخطبتي في اليوم الذي تخرج فيه فزف الى بشرى نجاحه وبشرى
خطبتنا .

وأخيرا تحقق أملى في الحياة .. وأضحت أحلامي حقائق ملموسة
محسوسة .

فضمني وأياه بيت واحد كأنه وكر عصفورين في ربيع الحياة . لا
نرى من حولنا الا خضرة ونضرة .. وتغريدا وترنيما .

جرفتي سبل السعادة .. وأبعد عني كل ما كان يشوب حياتي من
أوهام سود وتخيلات مزعجة .. وأبعد عني شبح أمي وتكراما ونسيها
تماما .. اللهم الا في ليال متباعدة كنت أصحو من نومي مذعورة خائفة
على أثر حلم أراني فيه قد لقيتها ومعى زوجي وأنها كانت في حالة منهكة
مبتذلة ، وأنها أقبلت على تحتضني وتبنيء زوجي أنها أمي .. وبأن
زوجي تركني وأياها وفر هاربا .

ومرة أخرى أراها قد أقبلت على في داري ، وخلفها ثلة من
الفاجرات العاهرات وأتھن قد أحتلن البيت وأبين أن يغادرنه .

وأنزعج عقب الحلم يوما أو بعض يوم ثم انساء وانساها .

ومرت السنون بعد ذلك .. وأنا سعيدة هائلة .. لا تشوب حياتي
شائبة .. ولا يعكر صفوها كدر .. ومات أبي فيكيتة ، ولحقت به -
الحاجة - بعد فترة قصيرة فحزنت عليها .. ولكن الأيام كففت بكائي
وأضاعت حزني ، وأسكنت ستر النسيان الواحدة بعد الآخر ، فحجبته
ضمن ما حجبت من الماضي البائد .

وفجأة .. ودون سابق انذار رأيتها .. من ؟ أمي ! اجل أمي !

ولو أننى يا سيدى رأيت الحاجة بعثت من قبرها .. أو رأيت أبى
قد سار فى الطريق ملتحفا بأكفانه .. لما أصابنى من الذعر .. ما أصابنى
عندما رأيت أمى .. التى كنت أزعج للناس ولزوجى أنها قد ماتت .
ورأيتها .. أين ؟ فى الطريق العام الذى لا يبعد كثيرا عن دارنا ..
والذى بطرقه زوجى كل يوم فى ذهابه وإيابه .

وشر من ذلك .. لقد كان بالرغم مما خط رأسها من شيب ، وما قد
علا وجهها من تفضن ، هى هى .. أو على الأصح .. هى أنا .. أجل
يا سيدى لشد ما كان الشبه بيننا عجيبا صارخا .. قلو أننى وضعت فى
رأسى بعض الشعيرات البيض ورسمت فى وجهى بعض الغضون
والثنيات لما استطاع أحد أن يميز بيننا .

وهذا يا سيدى هو ما روعنى وأفزعنى .. أى انسان يراها ولا يجزم
أنها أمى ؟ اللهم الا العمى الذين لا يبصرون ، والذين لم يكن زوجى
أحدهم ! .

ولم أشك فى أنها كانت فى رحلة بعيدة وأنها قد عادت أخيرا ..
وخيل الى أنها متحاول البحث عنى ! .

ولست أدري ان كانت لمحتنى أم لم تلمحنى .. ولا اذا كانت عرفتنى
أم لم تعرفنى .. ولكن الذى أدريه هو أننى انطلقت فى طريقي كأننى جرد
فزع .. وأسرع فى الخطى مهرولة مرتاعة كأن هناك من يطاردنى ، حتى
وصلت الى البيت لاهثة الأنفاس .

وصمت فى نفسى على أن أكون حاسمة فى أمرى والا أطيل عذابى
فأفضى الى زوجى بالحقيقة .. وأقول له إن أمى لم تمت وأنها قد فرت
مع عشيقها من أبى ، وأنى قد رأيتها الليلة . وليكن بعد ذلك ما يكون
وايحدث ما يحدث .

وصادفت زوجى على باب البيت ونظر الى فى فزع وسألنى :

- ما بك ؟

- لا شيء .. لقد أحسست فى الطريق ببعض التعب ..

لا .. لا .. انى لا أجسر .. ان لسانى يتعثر وصوتى يحتبس .. خير
لى أن أفر الى حجرتى .. وأرقد فى فراشى أتزمل بأغطية ثقيلة وأدعى
اننى مريضة ..

ولم أدعى ؟ .. لست مريضة فعلا ؟ .. وهل هناك مرض يمكن أن
يصيبنى بشر أكثر مما أنا فيه ؟ .

وأوبت الى الفراش ، محطمة الأعصاب .. مجعدة مرهقة ..
تصطلك أسنانى كأنى عارية ليلة قر .

لا تدهش يا سيدى .. ولا تقل ان المسألة لا تستحق كل هذا
الخوف .. وأن زوجى ما دام يحبنى .. وما دام لم ير منى الا كل حب
واخلاص .. فسيغفر لى كذبنى .. ولا يأخذنى بجريرة .

قد يكون ذلك صحيحا .. ولكنى لم أكن فى حالة تسمح بالتفكير ..
فقد كانت المفاجأة شديدة الوقع على .. وكانت الصورة المحفورة فى ذهنى
لأسمى صورة شيطان أو عفريت سيهدم معانئى ويهدم حياتى .

ومضت بضعة أيام وأنا راقدة فى فراشى .. شاردة الذهن ، غارقة
البال .. وعانئى طبيب فلم ير بى شيئا سوى تعب فى الأعصاب ..
وحضرت أم زوجى لتمكث فى البيت بضعة أيام .. ريثما أبل مما بى
ولتعلى بزوجى وبالبيت .

ولقد حيرها أمرى .. وسألتنى فيما بينى وبينها .. هل هناك ما
يضايقتنى من زوجى ؟ .. وطلبت منى أن أبوح لها بكل ما يشغل رأسى ..
ولكنى لم أتكلم ولنت بالصمت .. هل أجسر على أن أقول لها ما يشغل
رأسى ؟

و ذات يوم خرجت السيدة لتذهب الى بيتها وجلست في فراشي
تعصف بي الأفكار .. وجلس زوجي على مقعد قريب مني .. وكنت أفزع
من كل طرقة على الباب ومن وقع كل قدم على الدرج .. فقد كان يخيل
لي أن أحلامي المفزعة ستحقق .. وأنتى سأبصر أُمى قادمة على بين آونة
وأخرى .. فيفتضح أمرى .. ويعرفون أنني ابنة فاجرة عاهرة ، وأنتى -
من يدري - ابنة حرام ؟

كيف أستطيع العيش بعد ذلك مع زوجي ؟ وكيف أقوى على الوقوف
أمام أمه السيدة الطاهرة الذيل .. النقية السريرة ! اللهم هبني من لذك
رحمة .

وفجأة أحسست بطرق على الباب .. فارتجفت .. ولكنها كانت أمه
لا أُمى .. وشعرت بشيء من الراحة .. لم تدم طويلا .. فقد أقبلت على
وقد بدا عليها كأنها تحمل أمرا خطيرا ، ودون أية مقدمات سألتني في
هدوء :

- هل قابلت أمك ؟

وأترك لك يا سيدي أن تتصور وقع تلك الكلمات الثلاث في نفسي ..
لقد أحسست باللتواء في معدتي .. وشعرت كأن هناك بدا قاسية تعصر
قلبي .

ولم أجب بشيء ، فقد فقدت قدرتي على النطق واحسست بغشاء
على بصري .

اقتربت السيدة وأخذتني بين ذراعيها وضمتني الى صدرها وهممت
في أُننى :

- أيتها الحمقاء الصغيرة .. أهذا كل ما روعك ؟ .. ليتنا أنبأناك أننا
نعلم بكل شيء ، ولكن الخطأ خطوء .. - وأشارت الى ابنها - فلقد قلت

له أن بصارك بأنه يعلم ، ويأنه يحبك بالرغم من ذلك ، ولكنه قال انه لا يود ايلامك أو جرحك .. ولو صارحك لوفر عليك مشقة الكتمان ولأنقاذك من ذلك الجمر الذى يحرق صدرك .. وما ذنبك أنت فى جريمة أمك ! ثم الى متى سنظلين تجزعين من أمك ؟ انها لو كانت قاتلة لما فرغت منها مثل هذا الفرع !

ووددت لو أقول لها أنها لو قتلتنى لكان ذلك خيرا لى .. ولكن الكلام احتبس فى صدرى .

وطرق الباب مرة أخرى ، ولم أفزع هذه المرة ، وبالرغم من اننى رفعت بصري ، فوجدت الطارق هو أمي .. بدمها وبلحمها .

وأقبلت على تحتضننى وقد انهمر ندمها على بكاء صامت .

وأحسست بأننى قد غفرت لها .

ترى هل يغفر لها الله ؟

وصمتت محدثتى .. فقلت لها .

- ان الله غفور رحيم ..

★ ★ ★

زهرة فاني

دنيا المجانين لشد ما أخطأت به الظن .. لقد
كان مجنوننا من نوع هادئ .. أو مجنوننا
من عشاق الزهو الذائبة ..

أفهم ان الهوى ضرب من الجنون .. أو هو الجنون الذى يخشى
الناس أن يسموه بحقيقته فيصبحوا كلهم مجانين .. فكلهم عشاق .. وعلى
قدر الهوى اختلف الجنون .

قرأت ذات مرة عن أحد الفلاسفة أنه سئل عن العشق فقال : جنون
الهى لا محمود ولا مذموم . وقال آخر : طرف من الجنون ان لم يكن
عصابة السحر .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى صادف فيها قول
فيلسوف هوى فى نفسه .. أو على الأصح ، كانت هى المرة الأولى التى
استطعت فيها أن أفهم قول فيلسوف .. فقد كنت لا أرى فى الفلاسفة الا
أقدر الناس على قول ما لا يفهمه الناس ، ولا حاجة اليهم بفهمه أما هذا
القول فقد كان قريبا الى فهمى .. اذ كانت تلك هى عقيدتى .. وهذا هو
مذهبى .. وكنت - كما قال ابن الرومى - لا أرى فى العشق الهائم ، الا
صحيفا له أفعال مجنون .

وكننت أنا نفسى مثلا لذلك الصحيح الذى له أفعال مجنون ، اذ كنت من محترفى الهوى .. ان صح انه يمكن لانسان أن يحترف الهوى .. فما رأيت قط وجها فاتنا الا وعشقتة .. وما عرضت لى عينان ساحرتان أو شفتان فاتتتان الا وتركنتانى صريع هوى وقتيل حب .. ولم يك من شىء يطربنى كالحملقة فى منبع للجمال أو العدو وراء مصدر للفتنة .. ولم يك من شىء يحزننى قدر أن أبوء من تلك الحملقة بالاختفاق وأعود من ذلك العدو بخفى حنين .. وهو ما كان يحدث لى فى أغلب الأحيان .

وقد يكون الطرب بالجمال شيئا لا غبار عليه ، أما الحزن بالاختفاق عن الظفر به ، فذلك ما كنت أحس بأنه نوع من الجنون .. ولست أبرى والله ماذا كنت فاعلا لو أنى قد بلغت من واحدة من هاته العشرات اللاتى أعشقهن مأربا أو تلت مراما .. وكيف كنت أستطيع أن أوزع بينهن وقتى أو قواى .. حتى ولو كنت أبلّس نفسه ؟ ولكنه خبل الهوى وجنون الغرام !

ولم يكن يعزىنى فى تلك الحال التى أرائى عليها .. سوى يقينى ان معظم الناس يشاركوننى فيه .. فما كنت أبرىء منهم أحدا مهما اختلفت طباعهم وأعمارهم .. اللهم الا واحدا كنت أراه بين الناس نسيج وحده .

كان صاحبى هذا شديد رجاحة العقل ، كثير الهدوء والاتزان .. حتى لقد توهمت به - قبل أن أعرفه بتمام معرفته - جمودا جس وجمود عاطفة من فرط ما كان يبدو لى من رزائته وهذوئه .. ولكن لم تكذ تزداد بيننا أواصر المعرفة وتربطنا روابط الصداقة .. حتى بدأت أنبين فى نفسه رقة وجمالا ، وبدأت أكتشف فيه روحا شاعرية حساسة .. ورأيتنى أتذوق منه الكثير من جمال الأنسب والشعر .. وتبينت فيه ميلا الى الفنون على اختلاف أنواع ذلك .. ومع كل هذا كنت أجد عنده ميلا عن النساء وزهدا فيهن .. فما رأيتهن يحركن فيه ساكنة راکدة ، أو يثرن به جامدة باردة ، وما كان ذلك الوجه الذى يجعلنى أحملق فيه ثم أتابعه بنظراتى حتى تكاد

عيناى تغارقان محجريهما عدوا وراه .. ما كان ذلك الوجه ليثيره أكثر
مما يثيره مقعد فى حجرة أو سيارة فى طريق .

وهكذا اعتقدت أخيرا اننى عثرت على عاقل فى دنيا المجانين ..
حتى كنت أجلس وصاحبى ذات ليلة فى شرفة داره ، وكانت تهب علينا
نسمات خفيفة كأنها زفرات هادئة من قلب ليلة من ليالى الصيف .. وماد
سمعت صميق شرد فيه كل منا بذهنه مع أوهامه وأحلامه .. حتى رأيتنى
أقطع حبل الصمت وأسأله مداعيا :

فيم التفكير والتأمل وأنت لست من العشاق أو من أمباهم ؟

... أو قد حرم التفكير الا على العشاق ؟

- لم يحرم ، ولكنهم هم أحقق الناس به ، فهم يستمعون بحلاوة
الأوهام على مرارة الحقائق .. وهم ينالون من متعة الأحلام ما حرموه من
لذة الواقع .

وضحك صاحبى ضحكة لم أميز مداها من الضحك ، فقد لمحت بها
مرارة وسمعته يقول بين المزاح والجد :

- إذا فاعتبرنى من العشاق .

فأجبت بضحكة ماجنة . ولكنه عاد فأردف فى صوت ملؤه الحزن :

- على الأقل من عشاق الزهور الذابلة .

ودهشت له .. فقد مست منى لهجته الحزينة موضعا حساسا ..
وانتظرت أن يطلعنى على خبيثة نفسه .. ولكنه لم ينبس ببنت شفة .. بل
غادر الشرفة فى صمت واختفى داخل الحجرة ثم عاد بعد لحظات ومعه
كيس جلدى صغير مما يضع فيه المرء نقوده وأوراقه .. ثم جلس
بجوارى .. ورأيتة يفتح الكيس ثم يخرج من جيب منه زهرة ذابلة أمسكها

بحرص بين أصابعه خشية أن تنفطر أوراقها الجافة الباهتة ، ونظر إليها بلهفة وحنين ثم أعادها الى مكانها بعناية ورفق ، ومد أصبعه الى الجانب الآخر من الكيس وأخذ يعبث فيه هنيهة .. واستطعت أن أميز ذلك الشيء الذى يعبث به .. فإذا هو مسحوق أوراق لزهرة أخرى أشد من هذه ذبولا وأقدم عهدا ، فقد طال بها الزمن فى الكيس فحولتها الأيام رمادا كأديم الأرض .

وزاد دهشى من صاحبى ، واشتدت بى اللهفة الى أن أعرف سر حرصه على تلك الزهور الذابلة البائدة .. ولم يطل انتظارى فقد تكلم أخيرا .. تكلم وكأنه يحدث نفسه .. أو كأنى غير كائن .. فهو يستعيد لنفسه نكرى قد تكون بها مرارة وقد تكون بها حلاوة .. لكن الذى لا شك فيه هو أن فيها عزاء وفيها سلوة .

قال صاحبى :

- عرفت الحب مذ عرفت الحياة .. فقد كان أول ما وعيته فى هذه الدنيا هو انى أحببت .. فما خلت لحظة من لحظات حياتى منذ طفولتى من معشوقة أقيم بها عشقا .. وما زلت أذكر كيف كنت أقذف غطيان القل من المنور وأنا فى السادسة من عمري .. لا لشيء الا نزولى لاحضارها من لدن الجيران الذين يقطنون فى الطبقة السفلى فأستطيع بذلك ان أسترق من ابنتهم الجميلة بضع نظرات أو بضع كلمات .. اذ كنت شديد الولع بها .. حتى أنى كثيرا ما كنت أتخيل نفسى مكان البطل ، دان ، وأتخيلها مكان الحسناء ، نورا ، اللذين كنت أتابع مغامرتهما فى (مجلة الأولاد) فأرانى وقد حملتها فى طائرة الى جزيرة نائية بعيدة عن أعين الرقباء .

ورحل الجيران ورحلت معاهم فتأتى المحبوبة .. فسرعان ما احتلت غيرها مكانها .. وهكذا ظلت تتتابع على الحبيبة تلو الحبيبة .. فما خلا قلبى من واحدة قط .

وكان حبي في الحب نوعا عجيبا .. اذ كنت شديد الانطواء على
نفسى .. كثير الخجل والحياء .. فكنت أكتفى بالحب السلبى .. او بالحب
من جانب واحد .. فما من واحدة من هؤلاء العشرات اللاتي ولعت بهن
حبا قد بادلتنى الحب .. أو حتى أدركت أنني أحبها .. فقد كنت أخلو الى
نفسى فأبجر الخطط للقاء ، وأحضر ما سوف أرده لها من الأحاديث ،
وأؤهم ما سوف تقوله لى وما سوف أقوله ردا على قولها .. وهكذا حتى
أحكم فى رأسى كل تفاصيل اللقاء .

ولكننى لا أكاد أبصرها حتى أحس بالدم يتصاعد الى وجهى ..
وبأنفاسى تتلاحق وقلبى يدق دقا عنيقا حتى كأئننى أعدو فى سباق ، وأحس
بالارتباك قد شملنى من أخصم قدمى الى قمة رأسى .. وأحس كأئننى لست
أنا أو كأئننى اسير بلا قدمين أو بلا رأس .. ولا أكاد أقرب منها حتى أكون
قد وصلت الى أقصى درجات الارتباك .. وإذا بكل ما كان فى رأسى قد
تطاير وتلاشى .. وإذا بى لا أفكر فى شيء سوى الفرار .. وقد لا أكون
مبالغا اذا قلت أن كل أدوار العشق التى مرت بى كانت من هذا القبيل ..
لا تغيير ولا تبديل .. حتى ألقت ذلك الحب الذى لا يشعر به غيرى .

ومرت الأيام ، وشارفت الثامنة عشرة ، وأنا غريق فى هوى
نفسى .. وذات ليلة خلوت الى نفسى أستذكر .. فأخذ يصدرى ضوء فى
النافذة المقابلة .. وإذا بى أرى فتاة قد جلست تعمل بابرتين من ابر
التريكو ، وقد سحبت ببصرها من النافذة .

وأدركت أن البيت المجاور قد ممكن ، وأطرينى ان تكون الفتاة جارة
لنا .. وقلت للنفسى - كما تعودت أن أقول دائما - ان هذه هى حبيبة
العمر .. ولا بد أن أكون معها جريئا .. لافوز منها بحب أو بصداقة .. وأن
أقلع عن تلك الخجل والانطواء .

وبدأت الهجوم .. ولم يكن لدى من أسلحة الغزل .. سوى

الحمالة .. وظللت أحملق فى الفتاة ما يقرب من نصف ساعة .. وهى لا تكاد تشعر بوجودى .. وهنا بدأت أعمال الجراة - أو على الأقل ما ظننته كذلك - فصرخت بالخادمة أن تحضر لى كوبا من الماء .. حتى ألقت نظر صاحبنا .. ومع ذلك لم يحرك صياحى ساكنا .. فقممت الى النافذة وأغلقتها بشدة ثم فتحتها ثانية .. محدثا بذلك ضجة توقظ أهل الكهف .. وها فقط أحسنت بوجودى .. ورفعت الى بصرها بدهش كما لو كانت تنظر الى مخبول .. ثم قامت الى المصباح فأطفأته فى هدوء وساد الغرفة ظلام ومكون .

ونمت على ما فعلت .. فقد كان من الخير ان الزم السكون فأمتع منها ولو بالنظر اليها .. وأخيرا ذهبت الى فراشى .. وأنا أصبع الخطم فى رأسى كما تعودت أن أفعل .

وتعودت بعد ذلك أن أراها فى مكانها كل ليلة .. وأحسنت أنها تنساب الى نفسى انسياب الجدول .. فقد سحرنى هدوء وجهها ورقته ، وفقتنى تلك المكيئة والبراءة التى تعلو ملامحها .. ورأيتها قد أحسنت بوجودى .. وأنها لم تعد تغضبها نظراتى .. بل خول الى أن هناك نوعا من الود قد نشأ بيننا من طول النظرات .

ولم أكن أشك وقتذاك فى أنها تكبرنى بما يقرب من سبع سنوات فقد كانت تبلغ الخامسة والعشرين ، ولم أكن أشك فى أنى لن أخذ منها أكثر من سابقتها .. فأغلب ظنى أنها لا تنظر الى أكثر من نظرتها الى تلميذ عابث خير له أن يشغل نفسه بالدروس أو بلعب الكرة .

ولكنى - بالرغم من ذلك اليأس - وجدتنى اندفع فى حبها ، ووجدتها - وقد سبب لى هذا أرق ليلة كاملة من فرط الفرح - تنهم لى ذات مرة وتشير برأسها محيية .

ولا أظن امرا يستطيع أن يدرك مبلغ سعادتى بتلك البسمة .. أنا

الذى أحبيت مئات المرات دون أن تعرف واحدة ممن أحبتن انى أحبها .
ولا أدري بعد ذلك كيف بدأ بيننا التقارب ، ولكننى أنكر أنه حدث
دون سابق تحضير أو ترتيب ، ودون أية خطة موضوعة كذلك الخطط
التي كنت أضعها للتقرب الى من أحبيت ، وكانت تنتهى دائما بفرارى من
الميدان .

لقد كانت رقيقة لطيفة .. فأطارت من نفسى ما بها من خجل
وارتباك .. ورأيتنى أفيض بالحديث معها .. حتى لكان اللقاء لم يكن لأول
مرة ، بل لكانها توعم نفسى وصنو روحى .

وقضيت بعد ذلك فترة من العمر ، نغمرنى بحنانها الفياض وحبها
الطاهر الذى لا تشوبه ثمانية .. وما زلت أنكر تلك الليالى التى كنت أعمل
فيها الى حديقة دارها ، والكون قد شعله سكون عجيب .. فأجدها فى
انتظارى فى خميلة بركن من الحديقة ، حيث نجلس متلاصقين ، ويمر بنا
الوقت سراعا وقد اتكأت برأسى على صدرها ، وأحسست بيديها تعبان
بشعرى وأخذنا نتهامس فى صوت خفيض .

وذاث يوم وأنا عائد من المدرسة لمحت على باب دارها بعض
الأعلام الخضراء .. فأحسست بانقباض فى نفسى .. وعندما اقتربتها فى تلك
الليلة أخبرتنى بأنها متزوجة بعد بضعة أيام .. وكانت تبدو على وجهها لمحة
من بأس .. وكان فى صوتها صدى لبكاء .

وتوافقنا للوداع فرأيتها تمد يدها لتقطف إحدى الزهور التى شملها
الظلام وتدفع بها الى هامسة :
- انكرنى بهذه الزهرة .

وصمت صاحبى ومد أصابعه فى الكيس يعبث بمسحوق الزهرة
البائدة ثم قال :

- هذه هي الزهرة الأولى .. أما الزهرة الثانية ..

ورأيتہ يخرج الزهرة الجافة برفق ثم يتأملها هنية .. ويقول :

- أما الزهرة الثانية .. فهي فتاة لقيتها في الصيف الماضي على شاطئ البحر .. بعد خمسة عشر عاما من فراق الزهرة الأولى .. خمسة عشر عاما .. لا أدعى لى قضيتها في زهد تام عن النساء وفي منأى عن الهوى والعشق ، ولكنى مع ذلك أستطيع أن أؤكد أن ذكرى صاحبتي لم تغارق رأسى لحظة واحدة .. وأنتى عدت الى سابق عهدي من الانطواء على نفسى .. ومن الحياء والخجل .. فما استطاعت واحدة أن تحتل من نفسى مكانتها .. حتى لقيت فتاة الشاطئ - أو على الأصح صبية الشاطئ - ببرامتها ومذاجتها .. كأنها نمية جميلة فرأيتنى اندفع فى حبها ، ورأيتها تندفع فى حبنى ، دون تفكير منا ولا روية ، وأخذنا نلتقى على الشاطئ فى الصباح المبكر والبحر قد خلا الا منى ومنها .. وكنت أدهش لذلك الحنين الذى أحس به نحوها .. وكنت أراها أشبه بقطة صغيرة .. عندما أمسك بوجهها الصغير بين كفى والحظ فى عينها بريق سرور وهناءة .

واستطاعت الفتاة الحلوة الصغيرة أن تعود الى نفسى تلك السعادة التى افتقدتها فى تلك الأعوام الطويلة .. منذ أن فارقت صاحبتي الأولى . وذات صباح افتقدت الفتاة فلم أجدها .. وطالت غيبتها عنى بعد ذلك ، فانتابنى هم وأصابنى جزع وقلق .

وكانت النهاية فى هذه المرة أسرع وأقصى مما يتصور عقل . فقد علمت أخيرا أن الفتاة الحبيبة قد أصابتها حمى أودت بها ولم تمهلها كثيرا ولا قليلا .

وحملتني قنماى بين سكون المقابر ووحشتها حتى استقر بى المقام أمام قبرها فرأيت امرأة قد عصف بها الحزن فطفت تنشج فى لوعة

ورأسي ، فسأدركت أنها لابد وأن تكون أمها الكلي
ورفعت الى المرأة وجهها .

وصمت صاحبي هنيهة .. ثم سألتني هامسا :

- ترى من نظن الأم الحزينة ؟ .

وهزئت رأسي في تساؤل .. اذ لم أستطع أن أدري ما يعنى ..
وأردف هو في صوت ملء بالمرارة :

- لقد كانت صاحبتى الأولى .. لقد رفعت الى بصرها ولم يبد عليها
دهش لمراى .. فقد عرفت من فتاتها من أكون . ولقد أسعدها أن يربط
بينى وبين ابنتها ذلك الرباط الذى لى أستطع أن ينتظمنا من زمن خلا ..
ولكن القدر سخر منا مرة أخرى .

ورأيتها تمد يدها الى بشيء قالت أن ابنتها طلبت منها أن تعطيني
اياها لأتكرها به .. ونظرت الى ما أعطتني فإذا به زهرة ثانية .

وأمسك صاحبي بالزهرة بين أصابعه ، ورأيت في عينيه سحابة دمع
تهم بأن تهطل على خديه .

أهذا هو الذى ظننته عاقلا فى دنيا المجانين ؟ .

لشد ما أخطأت به الظن .. لقد كان مجنونا من نوع هادىء .. أو
مجنونا من عشاق الزهور الذابلة ؟ .

★ ★ ★

عيسى بن عيسى

هذه الوريقات التي رأيتني اكتب على نسخها
من جديد ستكون حدثا في عالم القصة
والألب ان صاحبها عيسى بن عيسى في باطن
الأرض .. ولقد أقسمت بأن أفنى نفسي
لأخلاقه ..

كنت أقف أمام الواجهة الزجاجية لاحدى المكتبات الشهيرة ، فاخذت
أفحص ما صف فيها عن كتب لعلى أجد به جديدا يستحق الشراء ، وأخذت
انقل بصرى من كتاب الى آخر دون أن أجد هنالك ما يستدعى الانتباه .
فكل ما فى الواجهة لم يكن ليؤيد على كتب قد ابتعتها من قبل .. أو على
كتب لم أبتعها لتفاهة فى الموضوع أو لغلاء فى الثمن .

وهملت بالمسير .. ولكنى وجدت الواجهة الزجاجية تفتح من
الداخل .. وأبصرت بدا تمد فتضع كتابا جديدا فى نهاية الصفوف .. فتمهل
قليلا لأقرأ عنوان الكتاب واسم مؤلفه .

ووقفت هنيهة ، وقد علق بصرى بالكتاب .. فقد كان كلا الاسمين -

اسم الكتاب والمؤلف - معروفا لدى .. وخيل الى انى قد سمعت بهما قبل الآن ، وان كنت لا أنكر انى رأيت الكتاب من قبل ، ولم يطل بى التفكير .. حتى بدرت منى صيحة دهش لم أستطع كتمها . واندفعت داخل المكتبة كأن بى مما من جنون .. وبعد لحظات كنت أنطلق الى الدار والكتاب بيدي وقد شرد ذهني فى حشد من تكريات غابرة .. كان الزمن قد جعل منها رفانا بائدا باليا ، فاذا الكتاب يبعث فيها الحياة كأنها ما انطوت فى بطن الزمن وما ثوت .

وخلوت الى نفسى ألصق الكتاب ، فقد كان بى لهفة اليه .. اذ لم أكن أتصور قط أنه سيخرج الى الحياة .. وما ظننت أن تلك الورقات الممزقة البالية قد قدر لها أن تبعث من مرقها بعد طول خمود ورقود . وحاولت أن أقرأ ، ولكن ذهني كان فى غيبة بعيدة .. وكنت أبصر الحروف أمامى أشباحا متصلة متشابكة تترافق أمام عيني فلا أستطيع أن أفهم لها معنى .. فطويت الكتاب وأحنيت رأسى الى الوراء .. ثم أطلقت لذهني العنان ورحلت فى شبه غيوبة .

يا للفناء العجيبة ! . انى لأنكرها جيدا على الرغم من تلك السنين التى فرقت بينى وبينها ، وكأنى بها جالسة أمامى وقد تقوس ظهرها وانكبت برأسها على الورقات المطموسة الباهتة تعيد كتابتها .

كان ذلك فى حى المنيرة .. وكانت أول مرة أبصر فيها واحدا من جيراننا الجدد الذين سكنوا منذ يومين الشقة المقابلة .. عندما عدت الى الدار ذات مساء فلمحت من خلال الباب شبحها وقد انحنت على المنضدة وبدأ عليها الانهماك فى الكتابة حتى لكأنها تلميذ يسكب على أوراق الامتحان عصارة ذهنه .. أو عاشق يريق فى رمالة غرام ماء قلبه .

ورأيتها بعد ذلك بضع مرات .. وعلمت أنها طالبة فى كلية الآداب .. ولم تكن مفرطة الجمال ، ولكنها كانت مقبولة الشكل .. وكان

بوجهها ميل الى الصفرة وبجسدها ميل الى النحول .. يبدو عليها حدة
الذهن وشدة الذكاء .. ولم تكن الفتاة لتثير في نفسى الاهتمام .. لولا ذلك
الانهماك العجيب فى الكتابة والنسخ .. فما رأيها تفعل شيئا سوى
الكتابة .. حتى بت اتحرق شوقا لارى فيم تكتب وماذا تنسخ .. ومنحت
الفرصة أخيرا وبدأت اواصر الصداقة تربطنا بجيراننا الجدد .

وبدا لى من نفس الفتاة ما هو خير مما بدا من وجهها وجسدها ..
وبدأت تنال منى الكثير من الاعجاب .. وأقبلت عليها ذات مرة وهى
منهمكة فى الكتابة وجلست على مقعد بجوارها .. فرأيت أمامها كومة من
أوراق رثة باهتة من مختلف الأنواع والأحجام وقد اندس بينها بضع من
غلب السجائر قد كتب على ظهرها ، وبعض من ورق الجرائد قد كتب
على هوامشه .. ورأيتهأ أخذت تنسخ من هذا ومن ذاك كأنما تحاول أن
تجمع منها موضوعا معيناً .

وسألتهأ عما تكتبه .. وطلبت اليها أن تكف عن الكتابة لتريح نفسها
بالحديث الى بعض الوقت .. ولابد أن يكون اللعب قد أخذ منها كل مأخذ ..
اذ ما كادت تسمع قولى حتى ألقت بالقلم جانبا واستقام ظهرها بعد طول
انحناء ثم نظرت الى هنيهة وأجابت :

- اتريد حقا ان تسمع ؟ .. لقد أجهدتنى الكتابة وأحس برغبة فى
الراحة والحديث .

وتأبطت يدها أميل بها الى الشرفة وجلسنا هنيهة فى صمت ما لبثت
أن قطعتة وقد استجمعت شوارد أفكارها .. ثم بدأت تتحدث :

- هذه الوريقات التى رأيتهأ أنكب على نسخها من جديد ، ستكون
حدثا فى عالم القصة والأدب .. أن صاحبها عبقرى ثوى فى باطن الأرض
قبل أن يتمكن من اخراجها الى النور ، وكم أود أن يهينى الله قوة من لديه
حتى أبعتها الى الحياة . وكم تتملكنى اللوعة والأسى ، عندما أتصور أنه

سيفنى وتغنى ذكراه .. دون أن يحس به أحد .. انى أريد ان انصفه فى معاته .. ما دام هو لم ينصف نفسه فى حياته .. انه شخص يستحق الخلود .. ولقد أقسمت أن أغنى نفسى لأخلده .

دعنى أعود بك الى الوراء قليلا ، فأخبرك كيف رأيته وكيف عرفته ، لقد جمعتنى واياء زمالتنا فى كلية الآداب .. ولقت نظرى بكبير هدونه وميله لى الوحدة .. فما رأيته قط يخاطب احدا أو يسير مع أحد .. وأحسست فى نفسى بميل اليه .. وقد يكون ذلك لتشابه بين نفسيها وتشابه فى طباعنا . فقد كنت أنا الأخرى شديدة الصمت والنفور من الناس .. وتعارفنا ذات يوم ، وصرعان ما توثقت بيننا عرى الصداقة .

وأدهشنى الفتى .. فما انكر أنى لقيت فى حياتى امرءا غيره يجمع فى نفسه ذلك القدر من الشعور الفياض والاحساس المرفف .. كان فنانا فى كل شئ ، ولو عا بكل نواحي الفن من رسم وموسيقى وأدب وشعر ، وكان كريم النفس ، جميل الخلق .. فما رأيته يكره أحدا أو يذم أحدا ، بل كان يحب كل الناس .. حتى ليخيل لى أنه لو وزع ما فى قلبه الجميل من حب وعطف على الناس أجمعين .. لما بقيت فى هذه الدنيا عداوة أو خصام .

وكم كان يحلو لى أن أجلس بجواره فى حدائق الأورمان عقيب انتهاء الدراسة .. فأستمع اليه يترنم ببعض من أبيات الشعر قديمه وحديثه .. أو يقص على قصة قرأها فأعجبته .. أو ينشد لى بعضا من الأغاني التى تستهوى نفسه .. وكان شديد الولع بشوقى وبعد الوهاب عندما يلتقيان فى اغنية .. وانى لأكاد أسمع صوته العذب وهو يترنم بقصيدة ، ردت الروح .. وكانت أحب الأغنيات الى نفسه .. وأكاد أبصر وجهه الرقيق وهو ينشد فى ابتسامة حلوة هائلة :

موقعى عندك لا أعلمه آه لو تعلم عندى موقعك

فنتملكنى اللوعة ويحنو بينى الشجن .. وأتمنى لو يسمعنى الآن كما
أسمعه ، وأن يصل صوتى الى مضجعه .. فأهتف به كما هتف بى من
قبل :

نامت الأعين الا مقلة تسكب الدمع وترعى مضجعتك
ولكن أين صوتى من مسمعه ؟ وأين عينى من مضجعه ؟ لقد أضحى
الآن عظاما نخرة يحتويها قبر بأرض قفرة .

كان كثيرا ما يحدثنى عن أبيه .. فقد كان شديد الإعجاب به .. وكان
يتحدث عنه كما يتحدث عن صديق حميم .. وكان يحلو له دائما أن يقرأ
لى الكثير من مؤلفاته وقصصه وأشعاره .. وكان يخبرنى أنه ما عشق
كتابة كعشق كتابه أبيه ، وما استطاع أنيب أو كاتب أن يمس من نفسه
موضعا حساسا كما استطاع أبوه .. ولم يكن يدرى أعند الناس كان كذلك .
أم كان تلك الإعجاب منه لتشابه بين نفسيهما لأنه أبوه ولأنه كان يحس
عندما يقرأ له بأنه يقرأ لنفسه ؟

و ذات يوم أقبل على وبوجهه بشاشة وحبور ، وانتحى بى ناحية
هادئة ، ثم أخرج بضع ورقات من حقيبته وخاطبنى قائلا :

- أريد أسمع رأيك فيما سأقرأه عليك . فأياك والمجاملة .

وعندما انتهى من القراءة لم يسعنى الا أن اهتف صائحة :

- رائع ! . مذهش ! .. أين البقية ؟

- لم أكتبها بعد ..

- أقسم لك أنها ستحدث ضجة فى عالم الأدب اذا أتممتها على هذا
النموال .. ان قدرتك على الوصف والتصوير لقدرة عجيبة .. وأن خيالك
لأبة فى الروعة .

ولم أكن فى قولى هذا مبالغة أو مجاملة .. بل كنت أتكلم عن عقيدة راسخة لأتى كنت أ لمس فيه عبقرية كامنة .. عبقرية خلقها الله معه .

وفى اليوم التالى .. افنقذته فلم أجده .. ومضت بضعة ايام وهو فى غيبته حتى أبصرته أخيرا فى صبيحة يوم وهو يسير فى فناء الكلية متجها نحو الباب ، فأسرعت الخطى اليه وناديت ، فتوقف ، ثم أدار الى وجهه .. فراعنى ذلك الهزال الذى بدا عليه .. والحزن الذى كسا وجهه .. وتلك الملابس السود التى احتوت جسده .

ومد يده الى فى سمعت .. ولم أجد فى نفسى الجرأة على سؤاله .. فقد خشيت أن أتكلمت أن انفجر باكية .. فقد كان مرآة الحزين يوجع نفسى ، وما تعودت أن أراه حزينا .. وأكتفيت بأن أهز رأسى مسائلة .. وأجاب :

– انه أبى !

وعرته هذه سرت فى أطرافه كن يغالب البكاء ، ثم أرخى يده فشد على يدى بسرعة وغادرنى دون أن ينطق بكلمة .

وكانت آخر مرة أبصرته فى الكلية فقد انقطع عن الدراسة بعد ذلك والتحق باحدى الوظائف الكتابية ، اذ كان عليه أن يحصل على المال لأن أباه لم يترك لأسرته شيئا .

ولقبته بعد ذلك .. أو على الأصح تعمدت لقاءه .. فقد كان بى شوق الى ان ابصر وجهه وأسمع حديثه .. فرأيتة مفرط السميت ، كثير الاطراق والوجوم .. فسألته عما تم فى قصته .. فأجاب فى اقتضاب :

– لقد تركت الكتابة .

– لا تكن مجنونا !

- ان اخوتى فى حاجة الى نقود ورعاية .. انى أعمل صباحا وبعد الظهر .. وليس لدى ثانية أقضيها فى الكتابة .

وخيل الى كان فى صدره طائرا حبيسا يحاول الانطلاق ولكنه كان يضيق عليه الخناق .

وحاولت عبثا أن أعيد الى نفسه الأمل .. ولكنه هز رأسه فى صمت وأجاب كمن يحدث نفسه :

.. لا فائدة .. هذه الحياة لا بد أن يضحي فيها البعض ، كى يسعد البعض الآخر .. والا أصابهم الشقاء أجمعين ، ولقد قدر لى أن أكون من النوع الأول .

وافترقنا وبنفسى غصة ولوعة .. لقد وددت لو أستطعت أن أحتويه بين ذراعى وأخفى رأسه فى صدرى لادفع عنه أحزانه وأشجانه .. ولكن الحياة كان يمنعنى .

ولم يقعدنى اليأس من أن أدفعه الى الكتابة ، فحاولت أن أعيد الكرة .. ولكن من طريق آخر .. لقد كنت أعلم أنه لا يعصى لأمه أمرا ولا يرد لها طلبا ، فذهبت ذات صباح الى داره وهو غائب فى عمله ، وطرقت الباب فلقيتنى سيدة ممحة الوجه قد ارتفعت بالسواد .. وأدخلتنى فى غرفة الاستقبال وجلست السيدة أمامى مطرقة تنتظر ان أبدا بالحديث ، وأنباتها فى اقتضاب بما أتيت من أجله ورجوتها أن تعاوننى فى عمله على أن يستمر فى الكتابة ، فحرام أن تقتل هذه العبقريّة فى مهدها وصمتت السيدة هنيهة ثم اقتربت منى ، وقالت :

- يابنية ، انى أشكر لك هذا الشعور نحوه وهذا الاهتمام به ، ولكنك مازلت صغيرة بعد .. واننى أكثر منك تجربة فى الحياة ، واننى لا أتمنى له شيئا الا أن يتعد بنفسه عن الكتابة والأدب .. ماذا تظنينه ليصبح مهما بلغ من النبوغ .. أيصبح كاتبه ؟ .. لقد عاش عمره فقيرا ومات دون أن

يترك لنا ما نستطيع العيش به .. ولا أعلم ماذا كان مصيرنا لولا ذلك المعاش الذى خلفه لنا من وظيفته الحكومية التى كان يزديريها ويحتقرها .. ماذا أفاد من الأدب والكتابة ! حتى الذكرى قد بخلوا بها عليه .

وصدمنى حديث السيدة ، فلم أكن أتوقع منها مثل ذلك الرد . وحاولت أن أزيل من نفسها ذلك التشاؤم والتحامل ولكنى كنت كالنافخة فى رماد .

ومضت مدة بعد ذلك .. ولقيت الفتى مرة أخرى .. وكان مر الأيام قد خفف قليلا من حزنه ولوعته ، فوجدته أكثر بشاشة واستطعت أن أقنعه بأن يحاول الكتابة فى لحظات فراغه .

وحلت عطلة الصيف وسافرت الى بلدنا بعد أن أقسم لى أننى لن أعود الا وأجده قد أتم القصة .. وفعل .. صدق الفتى وعده .. فلم تكد العطلة تنتهى وأعود الى القاهرة .. حتى وجدت القصة قد انتهت .

وصمنت الفتاة هنيهة .. ولمحت فى عينيها دموع تترقرق ثم استأنفت :

- لقد وجدت القصة قد انتهت .. ولكنه هو أيضا كان قد انتهى .. لقد أفرط الفتى فى اجتهاد نفسه .. حتى أصيب بالتهاب فى الرئة .. وكان السهر قد أنهكه وأضعف من مقاومته للداء .. ولم يحاول هو كذلك أن يستريح ولم يرحم نفسه ، فلم يرحمه الداء .

ولا أظن هناك من الألفاظ ما أستطيع ان أعبر به عما أصبت بفقدته .. لقد أحسيت بئس من الحياة ، وذكرت قوله : « أن هذه الحياة لا بد أن يضحى فيها البعض لكى يسعد البعض الآخر » .. ولكنى أيقنت الآن أن الحياة كلها أحقر من أن يكون فيها ما يستحق التضحية .

ولم أستطع فى مبدأ الأمر ان اذهب لتعزية أمه .. ولكنى تمالكت نفسى أخيرا وذهبت للقائها .

سبحانك اللهم .. تلهم الصبر عبادك المؤمنين .. لقد قابلتني السيدة
فى صمت ، وحاولت أن أعزبها بوضع كلمات ، فقالت بصوت يملؤه
الإيمان : الحمد لله !

ثم اختفت هنيهة وعادت تحمل إلى حقيبة الفتى ودفعتها إلى وهى
تهمس :

-- لقد قال لى : أنه أتم القصة .. خذها يا بنيتى فأنت أولى بها .
وصمتت الفتاة ، فمكنت يدى وشددت على يدها ونظرت إلى هذه
الكومة من الورق البالى وحملت فى شك :
-- أتظنين أنك مستطيعين بعثها إلى الحياة ؟
-- أدعو الله أن يعيننى على ذلك .

ومر الزمن وأنا أبصر الفتاة تكتب وتكتب .. حتى خيل إلى أنها
ستفنى عمرها فى الكتابة .. ثم فرقنا الأيام حتى أبصرت الكتاب فى ذلك
المساء ، فأعاد إلى رأسمى قصتها .

وأمسكت بالكتاب الأنيق ألقاه بين يدى ، وأقبلت على قراءته بلهفة
وشوق .. فلم أتركه إلا وقد أتيت على آخره فإذا به أبدع ما قرأت ،
وأحسست بنشوة تملكتنى بعد قراءته ، وشعرت بأن فيه نوعا من السحر ،
والله أعلم بمبعثه ، أهو الفتى العبقري ؟ أم الفتاة التى بعثته إلى الحياة ؟

★ ★ ★

شاة وقصاب

للشاة لا تتوقع من القصاب نجاة ولا غفرا ..
والقصاب لا يرى نفعه الا في الذبح
والقدر .. وتموت الشاة وليس في قلبها حقد
عليه ولا ضغينة ، ويبقى القصاب .. يفتك
بغيرها من الشياة .. النقيات القلوب ..
الطاهرات النفوس .

هذه القصة مهداة الى الأستاذ ، ميخائيل نعيمة ، .. على غير معرفة
بيننا ولا سابق لقاء .. وان كنت من جانبى قد لقيته أجمل لقاء على صفحات
كتابه ، كرم على درب ، .. وصافحته بخاطرى بين سطور وكلماته ..
أو بين عناقيده وحباته .

اليه أهدي هذه القصة .. فقد أوحى الى بها قول له : « رأيت الشاة
قصابها يشحذ سكينه فقالت له : أحترس يا سيدي من أن تجرح
أصابعك » .. فقد مس منى ذلك القول موضعاً حساساً .. وأثّر في قلبى
شعوراً بالحزن والشجن ، وقلت لنفسى كم بيننا فى الحياة من شاة
وقصاب .. خلا قلبه من كل عطف وبر .. الشاة لا تتوقع من القصاب نجاة

ولا غدرا ، والقصاب لا يرى نفعه الا فى الذبح والغدر ، وتموت الشاة
وليس فى قلبها حقد عليه ولا ضغينة ، ويبقى القصاب يفتك بغيرها من
الشيء .. النقيات القلوب ، الطاهرات النفوس .

ووجدتلى أتريث أمام ذلك القول ، وأمعن فيه الفكر .. ثم أقول
لنفسى .. أكتب ا من يدري ؟ فقد يكون فى قصتك عزاء لكل شاة ..
وعظمة لكل قصاب ا

أنا فى بيت ، الشاة ، .. بيت قديم فى حى الحلمية .. لا يفصله عن
البيت الذى أقطنه سوى حارة ضيقة .. ولم يك قد خطر ببالي أن أزور
البيت من قبل .. بل وما فكرت قط طول تلك المدة أن أسأل عمن يقطنه ..
لأنى شخص سلبه الله خاصية حب الاستطلاع .. حتى كان ذات يوم فطرق
بابى طارق .. واذا هو خادم عجوز تطلب الى فى استنجاء أن أقرضها
بعض النقود لتبتاع به نواء لسيدتها المريضة طريحة الفراش .. التى تقطن
البيت المجاور .

ولم أملك ، فأسرعت باعطائها ما طلبت .. فقد كانت الطريقة التى
طلبت بها النقود تجعل أى امرئ - مهما بلغ به البخل - لا يكفى بأن
يجيبها الى ما طلبت .. بل يأسف لأن الله لم يلهمه أن يعطيها النقود قبل
أن تطلبها .. فيوفر عليها مشقة الطلب وعناء الاستجداء .

ولم يكن بد بعد ذلك من أن أقوم بزيارة للجارة المريضة ، فقد دفعنى
عامل المروءة الا أنتظر حتى يطلبوا منى المساعدة مرة أخرى .. بل أذهب
أنا لأعرضها ، ولأقوم بواجب الجيرة .

ودخلت البيت .. فوجدته موحش المظهر بالى الأثاث .. ولقيتلى
العجوز مرحبة وأجلستنى فى حجرة يقولون أنها لاستقبال .. وسألتها عن
حال سيدتها فأنبأتنى بأنها ما زالت مريضة .. ولم أمكث سوى بضع
لحظات ، ثم نهضت للانصراف .. وسألتها فى صوت خافت خجل أن
كانت فى حاجة الى شيء من النقود .. فأبت اباء يشوبه الحياء والحيرة ،

فلم أجد خيرا من أنس في يدها قبضة من النقود .. وتركتها وانصرفت .
وتكررت زيارتي دون أن أرى المريضة نفسها .. وأمنت الى
العجوز واطمأنت .. وبدأت تفضض بالحديث وكأنما وجدت في الحديث
متنفسا لها فأنبأتني فيما قالت ذات مرة .. وقد بدا عليها كثير من الأسف
الممزوج بالدهش :

.. أكثر ما يؤلمني يا سيدي أن لديها من النقود ما يكفيها مثلة
الاقتراض ، ولكنها ترفض أن تعطيني شيئا لأبتاع لها الدواء ، فاضطرت
أن ألجأ اليك ، ادعى أمامها أن الصيدلي قد قبل أن يعطينا الدواء .. على
أن نمدد ثمنه فيما بعد .. ولولا ذلك لما قبلت تناوله .

وأصابني دهش شديد .. ولكني حاولت جهدى إخفاءه ، وأبيت
للعجوز أن من الخطأ الاقتراض بالمثلة . فما من انسان الا ويحتاج الى
معونة الآخر .. في أى صورة وعلى أى وجه .

وماد الصمت هنيئة .. ووجدت حافزا يدفعني الى السؤال عما يحدو
بسيديتها الى أن تبخل على نفسها بشراء الدواء .. غير أنني ترددت ، فقد
خشيت أن نظن بسؤالي أنني نادم على اقتراضها .. ولكن ترددي لم يتم
طويلا .. فقد أحسست - بالرغم مما قلته من عدم ميلى الى الاستطلاع -
بلهلة الى معرفة السبب .. وبرغبة شديدة فى السؤال .. وأخيرا سألت .

ولم تحب العجوز للوهلة الأولى .. بل بدا عليها كالتي تجمع شتات
أفكارها ، أو كأنما الاجابة على سؤالي تحتاجها الى فرط روية وتدبر ..
وأخيرا أجابت :

- بودى لو قصصت عليك القصة كلها .. فهل لديك صبر على

سماعها ؟

وأشرت لها برأسى ، فبدأت تقص :

- نشأت في بيتها منذ نعومة أظفارى ، وهو بيت عريق كريم
المحتد .. وخدمتها منذ مولدها حتى يومنا هذا .. فما فارقتها لحظة واحدة
وما زالت أذكرها رضيعة أمزها بين يدي .. وقد كنت وقتئذ في حوالى
العاشرة .. وكنت أراها يا سيدى أجمل خلق الله .. ففى كل دور من دور
حياتها كانت نموذجاً للجمال .. كانت أبدع طفلة .. وأجمل صببية .. وأشد
الفتيات فتنة وسحرا .

اجل .. انى لأبصرها أمام عيني أشبه بزهرة بانعة أو ثمرة
نلضجة .. كل ما فيها مثالى لا هنة فيها ولا خطأ .. خلقها ربما فسواها .
وانكر كيف تهاقت عليها الثبان وقتئذ .. وهى ما زالت فى الخامسة
عشرة ، وكيف كان أبوها يضيق بهم .

ومرت الأيام .. والفتاة تزداد فى كل يوم سحرا وفتنة .. حتى كان
ذات يوم فتاحتها أبوها بالزواج من رجل كان يظنه أصليح للناس لها ..
ولكن الفتاة لم تجبه الا بالصمت ، وبدا عليها رجوم شديد .. ثم عادت الى
حجرتها ووصل الى أذننى صوت كالبكاء .

وكنت أنا أعلم الناس بما خفى من أمرها .. كنت أدرك تماما سبب
ما أصابها من حزن ، وكنت أحس مثلها بأن ذلك القول من أبيها كان صدمة
شديدة لها .. وأنه قد هدم أحلامها الذهبية .. لأن الفتاة كانت عاشقة !
ولست أود الخوض فى تفاصيل ذلك الحب وكيف بدأ ، فلمست أظن
به شيئا من الغرابة ، اذ أنه كان صورة لا تختلف كثيرا عما نرى ونسمع
من قصص الغرام التى لا تكاد تتباين الا فى التفاصيل النافهة .

ولم يكن من العسير على الأب بعد ذلك أن يكشف خبيثة نفس
الفتاة .. بل لقد علم أيضا بالفتى الذى تعلقت به فتاته ، وجعلته رجلها
المنتظر .. وبالرغم من أنه لم يجد فيه ما يرضى رغبته هو .. أو يحقق

الآمال التي يرجوها لابنته .. فقد أظهر ترحيباً به وأقع نفسه بقبوله ما دامت ابنته ترى فيه مساندتها وهناءها .

وتم الزواج .. وانتقلت مع الفتاة الى بيتها الجديد .. وقد أحاطنا جر النعيم ممتع لذيذ .. وبدأت الحياة جميلة مزدهرة .. ولست أظنني في حاجة الى وصف ذلك السحر الذي يفيض من وكر عصفورين جميلين جمعهما الحب وألف بينهما رباط الهوى .. فملأ المكان شذوا وترنيماً .. وفاضت عليهما مسعدة لو أتيح مثلها للحياة الدنيا لبرات من شقائقها .

مرت الأيام وكلنا راضين مغتبطين ، وأنا أعجب في نفسي لذلك الضوء الذي يخلعه الحب على الحياة الانماني .. حتى أحسست فجأة بأن ذلك الضوء قد بدأ يخبر ، وأن البقية الباقية منه قد أخذت طريقها في مهاوى الفناء .. لتترك الدار في وحشة مائتة .

وحتى هذه المرحلة - مرحلة الظلمة التي تمررت من خلال ذلك السناء المشرق والضوء البراق - لست أرى فيها أيضاً كثير غرابة .. فما أظن هناك مشعلاً أضواء الا والخمود مصيره ، وما أظن ذلك الاثراق في ربيع الحب انذى أضواء المكان حيناً وظل بمنجاة من الغروب .

أجل .. ما كان عجباً أن تخمد ثورة الحب وتهدأ ، بين عاشقين مضى على زواجهما فترة ليست بالقصيرة ، ولكن العجيب أنها هدأت من جانب واحد وخمدت في نفس واحدة ، فإذا بي أرى الشعلة التي انطفأت في نفس أحدهما وكأنما انتقلت الى صاحبه فضاغت ما بالنفس الأخرى ، وإذا بي أرى الرجل يتبدل أمره ويتطير من قلبه الحب ، فحل محله الجمود والملل والضيق والتبرم ، وإذا بي أراها تزداد له حياء ، وبه ولعاً وولها .

ولم أحس في بداية الأمر بذلك التطور الذي طرأ على حياتهما .. ولم ألمس ذلك الحزن الذي مسها ، فقد كانت صبوراً كتوما .. حتى بدأت تطول غيبته عن الدار .. وبدأت أحس ببكائها الصامت في سكون الليل .

وفى ذلك الوقت مات أبوها ، فورثت عنه الكثير من المال وخيل
الى أن الزوج قد بدأ يرق لها بعض الشيء ، لست أدري ، أكان ذلك
محاولة منه لتخفيف لوعتها على أبيها ؟ أم كان له فى ذلك مآرب أخرى ؟
الله أعلم ! .

على أية حال ، لم تكد تمضى على وفاة الأب فترة قصيرة حتى
اشتري الزوج بأكثر أموالها دارا كبيرة أشبه بالقصور ، أضفى هو
صاحبها ، ولم تجد هى فى ذلك حرجا ، فقد كانت تعتبره كنفسها ، وكانت
لا تجد فارقا بين شخصيهما ، فماله لها ، وماله له .

وفى الدار الكبيرة بدأ الرجل حياة عجيبة ، لا أظنك بمصدقها لو
سردت عليك تفاصيلها .. فما أظن هناك امرأة ذاقَت من العذاب مثل ما
ذاقته المسكينة .. وأقصد العذاب النفسانى القاتل الذى يسرى فى النفس كما
يسرى السم فى الجسد ، لا فرق بين الاثنين سوى أن السم يميت لماعته ..
أما العذاب النفسانى فليس الا موتا بطيئا .

تصور يا سيدى أن الرجل لم يكفه ما استغرق فيه من اللهو خارج
الدار .. ولم تكفه عشرات العشقات اللاتي كان يقضى الليالى بأكملها بين
أحضانهن تاركا الزوجة الأمينة الوفية . جالسة تنتظره على مقعد فى جوف
الليل حتى ينهكها التعب والمهر فتلقى برأسها على المنضدة وتروح فى
غفوة حتى أوقظها وأقودها الى فراشها .. وهى لا تشكو ولا تنهرم .. ولا
تكره - بالرغم من هذا - بسوء ، ولا تمسوق اليه اذا ما لقيته فى الصباح
لوما ولا تأنيبا ، بل تلقاه بقدر ما تستطيع من البشر والبشاشة .

تصور يا سيدى أن الرجل لم يكفه كل هذا .. حتى بدأ يخصص فى
الدار جناحا لمتعته ! لا تدهش يا سيدى .. فما قلت سوى الصدق ..
أجل .. لقد بدأ يحضر عشيقاته الى الدار ويفرد لهن حجرات خاصة .
تسألنى .. وماذا فعلت المسكينة ؟ .

لا شيء .. لا شيء البتة .. لقد استمرت تروى من ماء أجاج ..
وتطعم المر والحنظل ، وهي صابرة راضية ، أو هكذا كانت تبدو .. وأن
كنت لا أشك في أن قلبها يحترق ، بل أغلب ظني أن قلبها قد أضحي فحمة
سوداء .. لقد كانت تقول انها تحبه ، ولها لا بد أن تستر عليه ، وتخفي
فضائحه ، وكانت تقول انها نوبة طيش .. سيزيلها من الزمن .. وأن
واجبها هو أن تصبر وتحتمل .. حتى تزول النوبة ، ويعود كما كان ..
انها امرأة عجيبة .. امرأة ليست من البشر في شيء .. فما أظن أية امرأة
سواها كان يمكنها أن تحتمل مثل ما احتملت .

وأخيرا .. انتهى الأمر نهاية عجيبة .. وزالت النوبة من الرجل ..
نوبة الطيش التي كانت تقول عنها انها لا بد زائلة .. ولكن زوالها كان
بطريقة لا تخطر لها ببال .

لقد كف الرجل عن عشيقته .. ولكنه استبدل بهن امرأة واحدة ..
زوجة جديدة !

اني لأحس في حلقى بغصة .. بأن مجرد الذكرى تقطع نياط قلبي ،
وتفري كبدي .. فما بالك بما فعله الواقع .. في نفسها وفي نفسي !

انها لم تثر ولم تغضب لما كان مثلها ليثور قط ، كل ما فعلته انها
أغلقت على نفسها الحجرة حتى حل الظلام .. ثم رأيها تقبل على
متسللوقد جمعت متاعها في حقيبة كأنها خادمة طريفة .. وأنيأتني بأنها
متخادع الدار لأنها لا تحتمل البقاء .. وانهمرت الدموع من عيني ..
وتمنيت لو استطعت أن أنهب الى الرجل فأمزق جلده اربا .. ولكني لم
أملك سوى أن أتبعها .. وخرجنا نتسلل في جنح الظلام .. كأننا شبحان
من أشباح الليل .

وصممت الحجوز ، وطال بها الصمت وهي مطرقة الى الأرض ..
واحترمت صمتها هنيئة .. ثم قلت أستحثها على انعام الحديث :

- وماذا حدث بعد ذلك ؟ .

فهزت رأسها ببطء ثم أجابت بصوت خافت :

- لا شيء .. ليس أكثر مما ترى .. لقد لجأنا الى هذه الدار القديمة
ثانية .. وهى كل مابقى لها مما ورثته عن أبيها .. واستقر بنا المقام فى
هذه الدار الموحشة المظلمة والوحدة الكثيرة

وبقى الرجل مع زوجته الجديدة .. ربة القصر الواسع الأرجاء ..
الشمخ البناء 1

وحاولت العجوز أن تعود مرة أخرى الى صمتها وإطرافها .. بيد
أننى تنكرت السؤال الذى من أجله قصت على القصة .. ورأيت أنها لم
تجبنى عليه بعد ، بالرغم من هذه القصة الطويلة التى قصتها على ، فلم
أجد بدا من أن أعيد السؤال مرة أخرى :

- وإتلك لم تخبرينى بعد عما يحدو بسيدتك الى أن تبخل على نفسها
بشراء الدواء ؟

- حمقاء .. بلهاء .. أو قل مجنونة ان شئت .. أتصدق يا سيدى
أنها بعد كل ما حدث ما زالت تحبه .. وما زال فى قلبها حنين له وعطف
عليه . لقد حل بالرجل ما كنت أتوقع حدوثه .. لقد ثارت الزوجة الجديدة
لنا منه .. سلبته ماله وأفقدته كل ما يمكن أن تفقده اياه .. لقد أضاعت كل
ما حاولت سيدتى أن تصونه .. لقد أصبح القصر قصرا هيا وأصبح
الرجل لا يملك الا ما تجود به عليه .

وأخيرا وبعد طول غيبة .. أقبل علينا ذات يوم .. أتدري لم أقبل ؟
ليستجدينا بعض النقود ! لا ليسد رمقه ، وإنما لينال من متعه بعض ما
حرمنه زوجته الجديدة .

ولتخيل يا سيدى أنها أعطته كل ما معها .. وهى التى تعيش عيشة

الكفاف ، فى هذه الحجرات المظلمة والأثاث الممزق البلى .. هى التى لا تعتمد فى حياتها الا على أجر الشقة العليا وهو بضعة جنيهات لا تكاد تكفيها .. أجل لقد غفرت له وأعطته كل ما تملك .

ثم تعود بعد ذلك ان يأتى بين آونة وأخرى ليأخذ منها ما تستطيع اعطائه آياه .. حتى أصابها المرض .. ورقدت طريحة الفراش .. وبانت فى أشد الحاجة الى الدواء ومع ذلك فهى ترفض شراءه .. اتدري لم تبخل على نفسها بشراء الدواء ؟ كى تحفظ له النقود حتى لا يصيبه ضيق وغضب اذا لم يجد معها نقودا ! مجنونة هى ولا شك !

وصممت العجوز .. فتذكرت الشاة وتذكرت القصاب وتذكرت خوفها عليه من أن يجرح أصبعه وهو يشحذ سكينه لنبحها ، وقلت لنفسى ما أشد المشبه ، وحاولت أن أمنع نعمة همت بأن تطفئ من عيني .. ثم هممت بأن أقول للعجوز شيئا على سبيل العزاء .. ولكنى سمعت على الباب طرقا .. وقامت العجوز لتفتح ، ودف من الباب رجل ، أحسست بروحى خفى أنه لابد أن يكون القصاب نفسه .. ولقد كان هو بالفعل .. وكان أكثر ما لفت نظري منه احمرار فى عينيهِ وآثار تعب أو مرض بادية على وجهه .

وحياى الرجل برده ثم دخل الى حجرة المريضة .

وامتأذنت العجوز وعدت الى بيتى مكررا عليها :.. اننى على استعداد لكل ما تطلب .. فأبديت أبلغ آيات الشكر والحمد .. وأنبأنتى بأنه ليس أمامها ملجأ سوى .

ولم تمض نصف ساعة حتى طرق الباب وبصرت بالعجوز وقد بدا عليها كثير من الفزع والذعر .. فهبطت اليها وسألتها مثلها :
- أطرا على سيدتك شيء ؟

- ليس على سيدتى ، بل عليه هو !

- من ؟ .

- سيدى ! زوجها ا .

وأسرعت معها الى الدار فوجدت الرجل جالسا على أريكة أمام فراش المريضة .. التى تركت فراشها .. لتلقاه بين ذراعيها وقد بدا عليها جزع شديد .. وكان الرجل فى اغماغ تام .. فأمرت الخادمة بأن تفك له ثيابه ، وأسرعت باستدعاء الطبيب .

وفحصه الطبيب ثم أنبأنى أنه قد أصيب بنزيف فى المخ ، وأنه يجب أن يرقد فى مكانه وأن توضع على رأسه طاقية الثلج .

ولكن الموت كان فى عجلة من أمره .. فلم ينتظر حتى نحضر طاقية الثلج ، ووفر علينا مشقة التمريض ، وفاضت روح الرجل بعد ساعة .. أو بعض ساعة .

ومات الرجل بين ذراعى امرأته الوفية الطيبة ، وخرج الى جدته من بيتها المتواضع القديم .

ولم تمض بضعة أيام حتى أقبلت على العجوز لتودعنى قائلة :

- انها ستعود هى وميبتها الى القصر .

وسألتها فى دهش :

- والمرأة الأخرى ؟

فأجابته بلهجة لا تخلو من الشماتة :

- لقد شب فى حجرتها حريق أودى بها والحقها بالرجل .

يا للعجب ! لقد هوى القصاب ، واستنقذت الشاة ليت لكل قصاب فيه

عبرة .

خياليا الصدور

آه من هؤلاء البشر .. وآه من خياليا
صنورهم .. لو استطعنا أن نخترق
حجبها .. لولينا منهم فرارا .. ولعلنا منهم
رعبا .

قلت لصاحبي :

- يخيّل الى أن مهمة كاتب القصة في عصرنا هذا قد أضحت مهمة
شاقة .. فهو لا يجد من حوله مادة دسمة يغذي بها خياله .. فنحن في
عصر برود وجمود .. ليس فيه من الحوادث ما يلهم القصة ويوحى
بالكتابة .. وأغلب ظنّي أن مهمة اسلافه من كتّاب القصة في العصور
السابقة كانت أسهل كثيرا .. حيث كانت الحياة مسرحا للحوادث المثيرة
والمأسى المروعة .. التي تهيئ لهم مرتعا خصيبا يرتعون فيه بأذهانهم
وأقلامهم .. ويسجلون لنا عنها قصصا رائعة .. لأن خير ما كتب الكتاب
هو ما استوحوه من باطن الحقيقة وما صوروه من صميم الواقع .

وقبل أن يجيب صاحبي .. رأيته قد انتصب واقفا ومد يده مصافحا

امرأة فى منتصف العمر قد أقبلت عليه ، وقدمت اليه رجلا فى رفقته قالت
انه زوجها ، وألقى كل منهما الى الآخر ببعض الكلمات النافهة التى يقولها
الانسان عندما لا يجد ما يقوله ، ثم ودعته بابتسامة رفيقة ، وانصرفت
وزوجها فى سبيلهما ، واتخذ صاحبه مقعده بجوارى مرة أخرى .

وانتظرت أن يقول شيئا عن المرأة .. ولو اسمها .. ولكنه لم ينبس
ببنت شقة ، فلم يجد بدا من سؤاله :

- ترى من تكون السيدة ؟

وبدا على صاحبه شرود الذهن .. وأجابنى بعد فترة مسكون دون
أن يكلف نفسه مشقة النظر الى :

- انها دفاع عما اتهمت به عصرك من ركود وجمود .

ولم أستطع أن أفهم مايقصد للوهلة الأولى فسألته :

كلم أفهم بعد ! أفصح قليلا .

- لست معشولا عن غباثك .. لقد كنت ترمى عصرك بخلوه مما
يلهم القصة ويوحى بالكتابة وفى صدر هذه المرأة الهائلة المظهر .. قصة
تكذب سوء ظنك بعصرك .. وتلقى عليك تهمة البرود والركود أن لم
تخرجها لقرائك كما هي بجذائيرها وتفصيلها .

وبدا صاحبه يبرد القصة .. قال :

- رأيتها أول مرة ، أرملة حديثة العهد بالترميل .. وكانت فى الثانية
والعشرين ، ولم يكن جمالها من ذلك النوع الأخاذ الذى يبهر البصر .. ومع
ذلك فقد كانت بها عنوبة ورقة تراح اليهما النفس ، وكان لأجل ما فيها
شعرها المسترسل ، وعيناها الزرقاوان ، وأسنانها الصغيرة الناصعة
البياض ، وبشرتها البيضاء النقية .. كانت المرأة فى مجموعها مخلوقا

لطيفا يمر المرء أن يجالسه ويتمتع بسماع حديثه والنظر اليه .
وكانت تعيش مع أمها على دخل يهيء لهما حياة هنيئة لينة ولم
تمض مدة على وفاة زوجها حتى بدأ العشاق والمعجبون يلتفون حولها ..
ولكنها كانت تصدهم في رفق ، وتخبرهم أنها زاهدة في الزواج مرة
أخرى .

ولكن واحدا منهم كان أشد اصرارا .. فقد كان بالأرملة الجميلة صبا
مولعا ، وكنت أعرفه معرفة طفيفة .. من ذلك المنتدى الذي تعودت
الجلوس فيه . وكنت أعرف عنه ولعه الشديد بلعب البوكر . كان شابا
صغيرا على شيء كثير من الوسامة والأناقة .. تبدو عليه مظاهر الثراء ..
وأن كنا نعلم جميعا - فيما بيننا - انها لا تعدو المظاهر .. فما كان أهله
بملكون كثيرا ولا قليلا .. اذ كان كل ما تبقى لهم من ثروة أمرتهم الكبيرة
المعروفة لا يعدو تلك الافنة القليلة وتلك الدار الكبيرة الكائنة في إحدى
مديريات الوجه البحرى التى اعتكف فيها أبوه .

ولم أكن قد رأيت أباه ، ولكنى سمعت عنه ، فقد كان أحد كبار
الرجال نوى الأسماء الرنانة .. وكان يشغل منصبا كبيرا فى السلك
السياسى .. وكان أبى يعرفه معرفة جيدة ، وأذكر أنه قال لى عنه ذات
مرة :

- أنه أمرؤ عجيب .. فما رأيت رجلا تجسست فيه مظاهر النبيل
وكرم المحند ، كما تجسست فى هذا الرجل .. انه من تلك النوع الذى تحسن
بأنه منحك منحة بمجرد أن يحبك ويقول لك : كيف حالك ؟ . لقد أضاع
كل ثروته فى اللعب والنساء .. ومع ذلك تراه كما هو .. بالمظهر نفسه
وبنفس العزة والاباء .

وسألت عن عمره فأجاب :

- أظنه فى التاسعة والأربعين ... ومع ذلك أستطيع أن أجزم أنه ما

زال أجمل رجل رأيته فى حياتى .. لقد كان شديد الجاذبية للنساء .. اجتمع له كل ما يفتنهن .. لطيف المعشر ، حلو الحديث .. وحتى الآن ما زال محتفظا بذلك القوام الفارع الممشوق .. فلم يصبه انحناء ولا ترهل .. لقد أبيض شعره ولكنه ما زال كثيفا لامعا كما هو .. وظهرت بعض التجاعيد تحت عينيه ولكنهما مازالتا تبرقان كعيني طفل .. وما زالت الضحكات الحلوة تشيع على كل وجهه .

ومرت الأيام وأواصر الصداقة تزداد بين الفتى والسيدة الصغيرة .. وذات يوم دعاها وأما لزيارة دارهم الكبيرة حيث يقطن أبوه .. وأغلب الظن أن الفتى كان يريد أن يعرضها على أبيه .. الذى لم يكن يعيل الى مثل هذا الزواج .. فقد كان يريد لابنه أكثر من أرملة متوسطة الحال .. كان يريد فتاة ثرية تستطيع أن تعين ابنه بمالها على أن يحيا تلك الحياة التى تعودها .

وعقب الغداء جلس الأب والأم وحيدتين فى حديقة الدار الواسعة المهملة ، وقال الرجل للسيدة :

— الواقع يا سيدتى ان ابنتك آية فى الجمال .. ولم يعد يدهشنى الآن ان يقع الفتى فى حبها .. فانها تستحق الحب .. ولأصارعك القول اننى كنت أؤثر ان يتزوج ابنى امرأة أوفر مالا .. ولكنى لم أكد أراها حتى أدركت أنها تستحق أن يضحى المرء من أجلها بكل شيء لديه .. واصبح لا يسعدنى شيء قدر أن تقبل زواجه .

وفى هذه اللحظة كان الفتى يعرض زواجه على المرأة الصغيرة فى ناحية أخرى من الحديقة . وبعد هنيهة أقبل على أبيه يزف اليه نبأ خطبته .

وتم الزواج .. وذهبت لأهنتهما فى الطبقة الانيقة التى استأجرها فى الزمالك .. وكان يلوح جليا ان الفتى مازال مولعا بصاحبته .. فقد بدا فى عينيه بريق الحب .. ولكنى لم أستطع أن أتبين الى أى مدى كانت تبادلته

الحب .. فقد كانت من تلك النوع الذى لا تظهر مشاعره واضحه على وجهه ، وان كنت لم أر هناك ما يمنع من أن تبادل الحب نفسه .. فقد كان فى الفتى كل ما يجذب النساء اليه .. جمال ، وشباب ، ومرح ، ورقة حديث .

ومرت الأيام فأخذت سحب الحب تنفث عن رأس الفتى ، وبدأ ينغمس فى اللعب .. ولم تمض فترة قصيرة حتى كان قد استنفد ما كان مع السيدة من مال .. وأخذ يستدين من هنا وهناك .

ووجدت الزوجة أن خير ما تفعل لتحافظ على كيانها البيتي هو أن تلجأ به الى دار أبيه ، فتسقط عن عاتقها تلك التكاليف الباهظة التى يدفعها ثمنا للظهور بالمظهر اللائق ، وتبعد به عن ذلك الوسط الملوث والحياة الملتئنة بالخمر والميسر ، ولم يكن أسر عليها من ذلك فقد أضنتها تلك الحياة الصاخبة ، وكان بنفسها ميل الى الهدوء والعزلة .

ولم يمانع الفتى بادئ ذي بدء ، ورحب الأب بالزوجين الصغيرين فقد ملأ البيت بهجة وحبورا .. وبدأت السيدة الصغيرة تتخذ مكانها كربة للدار ، فأعادت تنظيمها وتجديدها ، وتمهنت الحديقة بالعناية والتنسيق ، فاذا بالدار تعود الى سابق رونقها فقد كانت السيدة مليمة الذوق خبيرة بالازهار والحدائق .

وسر الفتى أن يرى ذلك الانسجام بين زوجته وأبيه ، فقد كان يحب كليهما ، وكان أنهما كلهما سويا فى تجديد الدار وتنسيق الحديقة ، يتيح له بين آونة وأخرى أن يفر الى القاهرة ليستلئ نفسه بالانغماس فى اللعب مع صحبه ، وعلى مر الأيام أخذت فترات الفرار تكثر وتطول .

ومرة واحدة - ودون أن يدري لذلك سببا ولا علة - بدأ الشيطان يهمس فى نفسه ، ويومئوس فى صدره ، وتملكته رغبة غامضة وشك مبهم ، لم يستطيع أن يحدد بالضبط ما هو ، ولكنه كان يخيّل اليه أن زوجته

لم تعد تأبه له كما كانت من قبل ، وأن أباه قد أخذ يضيق به ذرعاً ، فقد بدأ يحس بأنه لم يعد له موضع في أحاديثهما ، وأن وجوده قد أضحي غير مرغوب فيه وبالرغم مما كان يعلمه الفتى عن أبيه وماضيه مع النساء ، فإن شكوكه كانت من الفتاة في حد لا ينبغي أن يسمح لها بالتسرب إلى نفسه ، على أنه كان يستطيع في بعض الأحيان أن يلحظ نظرات عابرة بين الاثنين ، لو رآها بين غيرهم لقال (عشاق) ، ولكن بين أبيه وزوجته فحاشا لله ، إن ريته لا يصدقها عقل بشرى !

ورأى الفتى أن خير ما ينقذه من أوهام نفسه .. هو أن يعود بزوجته إلى القاهرة فيأخذ بينها وبين أبيه .

وذات يوم أنبأهما أنه قد عزم على أن يعود للسكنى في القاهرة مرة أخرى ، وأن عليها أن تعد نفسها للسفر .

ودهشا كلاهما ، وأجابته أبوه أنه ليس لديه من المال ما يعطيه له لينشئ بيتاً آخر ، وأجابت الزوجة : ان القليل الذي كان لديها قد استنفده في اللعب .

وصرخ الفتى غاضباً ، وأجابها أنه قد أخطأ بزواجه من امرأة ! ووجعت الزوجة وصبغها الأصفرار ، وصاح به أبوه ينهره :

- يجب أن تعلم كيف تخاطب سيدي !

- لست في حاجة إلى دروسك بعد .

وخرج الفتى مغضباً من الحجرة .. وسافر إلى القاهرة ولم يعد إلا في اليوم التالي .. فقابلته زوجته بمصادقتها وبشاشتها التي صودته أياها كأنما لم يحدث شيء .. أما الأب فما حاله من بعض برودته وفتوره .. وأن لم يمر على إسان أحد منهم ذكر لما حدث .

ولكن الأمور سارت بعد ذلك من سيء إلى أسوأ فقد ازداد التوتر

بين الابن وأبيه ، ولم يعد يحاول مبارحة الدار بعد ذلك ، فزادت أعصابه توقرا .. وذات يوم مساء السيدة هذا الضيق الذى أصابه فسأله ببساطة وبراعة : لم لا يحاول أن يرفه عن نفسه بالسفر الى القاهرة ليرى أصدقاءه بين آونة وأخرى كما كان يفعل من قبل ؟

واعتقد الفتى انها تريد التخلص منه ، فزادت ريبته وعصف به الشك .. حتى انتهى به الأمر الى مراقبتهما والنجس عليهما .. فتارة يدخل عليهما الحجرة فجأة .. وتارة يتبعهما الى الحديقة .. ولكنه لم يجد بينهما أكثر مما يجد أى زوج بين زوجته وأبيه .

وزادت حالة الفتى سوءا ، وبدأت أعصابه تتحطم ، انه لا يستطيع أن يعثر على دليل يؤكد ريبته ، ولا يجد أى أثر لتلك الخديعة التى يتوهمها ، ومع ذلك فهو موقن انهما يخدعانه ، واثق بأن بينهما صلة أكثر البريلة التى يستقران وراءها .

وأحس الفتى بأنه أضحى من فرط الريبة على وشك الجنون .. بل أنه جن فعلا .. فلتقد رحل الى القاهرة ذات يوم .. ثم عاد وقد استعار مسدسا من أحد أصدقائه .. لقد نوى ان يقتلها معا .. فور أن يعثر بأقل دليل يشير الى تلك الريبة التى تهش قلبه .

ولا أدري كيف انتهى الأمر بتلك الفاجعة .. فكل ما علمته من خلال المحاكمة أن الفتى دخل على أبيه ذات مرة بقصد تصفية المعاملة وانهاؤها على أى وجه .. ومصارحته بشكوكه كى يضع لها حدا .

وقامت بينهما مشادة عنيفة انتهت بأن أطلق الفتى النار على أبيه وهو فى نوبة غضبه فأرداه قتيلا .. وعندما أدرك ما فعل انهار على جمد أبيه يبكي بجنون كأنه طفل صغير ، وأقبلت الزوجة والخدم .. فوجدوه يهم باطلاق للرصاص على نفسه فأمسكوا به ونزعوا المسدس من يده .

وكانت جريمة الفتى هى القتل مع سبق الاصرار ، ولم يكن هناك

أى سبيل للدفاع عنه وانتقاده الا سبيل واحد وهو ذاك السبيل الذى حاول محاميه طرده عندما أتى مقابلة السيدة الصغيرة .

لقد كنت هناك وقتئذ ، وكانت أعصابها محطمة تماما ، وأسوا من ذلك أنها كانت حاملا وعلى وشك أن تضع .. وكنت أحاول التخفيف عنها .. عندما دخل المحامى ، وبعد بضع كلمات مما لم يكن بد من قولها ، اتجه الى غرضه مباشرة :

- يا سيدتى .. انك أنت الوحيدة التى تستطيعين انقاذ زوجك .

- أنا ؟ وكيف ؟

- أعذرينى يا سيدتى ، فأنا أعلم أنه مطلب شائك وطريق وعر .. وأن التضحية التى سأسألك بذلها هى أقصى ما تستطيع امرأة أن تقدمه ، ولكنها السبيل الوحيد يا سيدتى .

وصمت الرجل هنيهة .. ولكنها أجابته بصوت هادىء النبرات :

- استمر .

- السبيل الوحيد لانقاذه .. هو أن تعترفى بأنه كانت هناك بينك وبين المرحوم أبيه علاقات غرامية .

وكنت أصبح بالرجل : يا للمجنون ؟ أى حماقة تلك التى انتابت الرجل ؟

والثفت الى السيدة لأهدىء من روعها ، ولكنى وجنتها صامتا ساكنة .. وقد أطرقت هنيهة ، ثم رفعت عينها الى الرجل ولم تزد على ان قالت :

- سأفعل يا سيدى .

وانتهت المحاكمة بتبرئة الزوج وإرساله الى المستشفى الأمراض العقلية بعد أن برت السيدة بوعدها وعادت الى العيش مع أمها .

ثم علمت بعد ذلك أنها قد وضعت طفلا .. وبعد شهرين علمت أن
الطفل قد مات .. وذهبت لزيارتها فوجدتها شديدة الحزن . فقلت أخفف
من لوعتها :

- لا تحزنى فقد رحمه الله .. لقد أخذه قبل أن يعرف أن أباه قاتل
مجنون !

وانتفضت المرأة ورفعت عينين حجبتها من الدموع وقالت
في صوت مبحوح :

- لم يكن أبوه يقاتل ولا بمجنون .. لقد كان أبوه خير الرجال ..
أنى لم أفل في المحكمة غير المصدق !

وقف شعر رأسى .. ولم أنبس ببنت شفة .. وغادرت للمرأة فلم ألقها
إلا اليوم مع زوجها الثالث .. قاعة راضية .. كأن لم تصدم حياتها حادثة
ولا كارثة .

وصمت صاحبى منية ثم أرتف كأنه يحدث نفسه :

- آه من هؤلاء البشر .. وآه من خبايا صدورهم .. لو استطعنا أن
نخترق حجبها .. لولينا منهم فرارا .. ولعلنا منهم رعبا .

★ ★ ★

صاحبة الحقيقتين

ولم يحس الفتى بخيبة أمل ، بل على العكس
لقد سره ألا تكون المرأة خيرا من ذلك ..
وأسرع إلى حقيقته فحملها في يده ، وجنب
المرأة بيده الأخرى إلى حجرته .. لقد كانت
صاحبة الحقيقتين .

ما أشبه حياتنا في هذه الدنيا بطريق متسع ، رحب الأرجاء ، ساطع
الأضواء .. تبدو فيه بين آونة وأخرى منعطفات وأزقة مظلمة ضيقة ..
كثيرة الانحناء والالتواء .. والانسان في هذه الحياة مخلوق عجيب .. إذ
ليس في استطاعته أن يداوم السير في هذا الطريق المتسع للمضيء ،
السرى المستقيم .. وهو يرى دائما ما يستهويه في تلك الأزقة المظلمة ..
ويحاول أن ينعطف بين آونة وأخرى فيخوض ظلماتها ، والفرق في هذه
الحياة بين انسان وآخر ، هو قدرته على العودة سريعا من أزقة الحياة إلى
طريقها المتسع المستقيم ، وفي قدرته على ألا يضل سبيله فيقضي عمره
يتخبط في المنحنيات والمنعطفات ، فلا تعود عيناه تبصران النور .

وما نظن أن انسانا استطاع في هذه الحياة أن يسلك بنفسه تلك

الطريق السوى المعبد .. نون ما يحاول مرة .. أو مرات .. ان ينعطف بها من الأزقة .. سواء اكان فى محاولته تلك مقصرا أو مكشوفاً .. وسواء اكان ذلك منه بجسده أو بذهنه .. فكل امرئ - مهما بدا من براءة ظاهره وسلامة مسلكه - له أزقة التى تفرعت من طريق حياته .. والنس غمر فيها نفسه لحظة أو لحظات ، ووجد فى ذلك الانغماس متعة ونشوة .. ولذة مسروقة مختلسة لم يجدها فى ذلك الطريق الحافل الصاخب .. أجل .. كل امرئ قد ذاق متعة الأزقة ، ان لم يكن بلسانه فبجنته .. وان لم يكن باللسان فبالصن .. اللهم الا الأنبياء المرسلين .

ولم يكن صاحبنا ليتناول بنفسه الى زمرة الأنبياء والمرسلين بل كل يعلم تمام العلم أنه انسان كثيره من البشر ، ولكنه كان مع ذلك يعتقد أنه اقلم انعطافا فى أزقة الحياة .. بل لم يكن ليتغير انعطافه انعطافا بمعنى الكلمة ، إذ كان كل ما يفعله لا يزيد على ان يمد بصره ليتطلع الى ما فى تلك الأزقة .. ولينعم فيها ببصره وبخياله .. ثم يعاود السير فى طريقه مرة أخرى .

كان يعتقد أن هذا هو أهون الشر وأيسر الخطايا .

وجلس الفتى يستعرض فى ذهنه ما مر به من أزقة فى طريق حياته .. وشرد فيها بصره من نافذة القطار ، وأخذت المناظر تتتابع أمام عينيه فى سرعة خاطفة .

لم يحس الفتى بأنه شرير .. ولم ير أنه اقترب فى تلك الأزقة ما يشينه أو يورثه الندم أو الخجل .. فقد بدأ حياته بحب فتوى بزواج فلم يجد فيه عن الطريق المستقيم .. ومنذ زواجه لم يزد ما صادفه فى طريقه من أزقة على عدد محدود يمد على الأصابع كان يمر بها مر الكرام .. ولم يزل يتكرها تماما ، فقد كان أولها تلك الفتاة الشقراء التى تعود أن يلقاها كل يوم فى طريقه الى عمله .. وابتمست له ذات مرة .. ثم تحدثا موبيا ..

ولم يزد كل ما قام بينهما على تلك الحديث ، وكان ثانيها تلك اللقطة ذات الوجه الخمرى المتورد .. التى كان مرآها يحدث فى نفسه هزة ونشوة ، واجترأ مرة على مخاطبتها فجانبته حديثا ليلا رقيقا .. ثم عادت وأنكرته ، وثالثها .. ورابعها وخامسها ، وكلها لا تزيد على علاقات سطحية عابرة .. أو اعجاب من طرف لا يحس به الطرف الآخر .

وكان الفتى يتخيل أن تلك الأيام التى قد أضحى عمله يضطره فيها الى السفر الى الاسكندرية بين آونة وأخرى ستكون من تلك الأزقة فى طريقه ، ولكنه - حتى الآن - لم ير الا طريقا مستقيما على مدى البصر .. حتى أحس بالملل يتطرق الى نفسه .. وبات يتمنى لو يسنح له منعطف يزج بنفسه فيه .. خلال تلك الأيام التى يشعر فيها ببعض الحرية بعيدا عن امرأته .

وعندما وصل القطار .. كان الليل قد أرخى سدوله .. فقام الفتى وأدلى بحقيقته من النافذة الى أحد الحمالين الذى حملها مع بضع حقائب أخرى وسار بين الجموع المتحركة الى الخارج .

وأشار الفتى الى إحدى عربات الأجرة .. وبعد لحظات كان الحمال يدفع بالحقية فى داخلها .. وتحركت العربة تحمل الفتى الى الفندق الذى تعود النزول فيه .

وأحس بالكثير من الراحة حينما ضمته الحجرة الهائلة الأنيقة ، ولم يكن فى نيته أن يسير تلك الليلة ، فقد أنهكه ذلك الجهد الذى بذله طوال يومه وعزم على أن يأوى الى فراشه مبكرا ليستعيد نشاطه .

وقام الى حقيقته ليخرج منها ما يحتاجه الى النوم ، ولكنه لم يكذ يفتحها حتى بدرت منه صيحة دهش ، فقد ذهل حين وقع بصره على ثوب حريرى أخضر لا يمكن أن يكون له .. وأدرك للوهلة الأولى أن الحقية قد بدلت ، وبالرغم من أن ما فى حقيقته لم يكن بذى قيمة فيشعره فقدما

بخسارة جسيمة - اذ كانت أوراقه الهامة موضوعة في حقيبة صغيرة حملها في يده - فقد تملكه الضيق .. اذ لم يكن ليستغنى قط عن البيجاما وللمشرب وأدوات الحلاقة وغيرها من التوافه اللازمة لكل رجل .. كذلك لم يكن يسره أن تقع تلك الأشياء الخاصة تحت بصر شخص غريب .. أغلب الظن أنه يحملق فيها الآن كما يحملق هو في هذه الحقيبة .. وساءه أكثر من هذا وذاك أن يكون ذلك الشخص .. امرأة فقد بدا جليا أن الحقيبة لا يمكن أن تكون الا لامرأة !

ونفذت الى أنفه رائحة عطر يفوح من الثوب الحريري الأخضر .. فتركته ثملا نشوان .. لقد كان عطرا عجيبا ، ما عرف القنى مثله من قبل ! وأغلق الحقيبة ليفحصها من الخارج .. فاذا بها تماما كحقيبهته .. الحجم نفسه .. واللون نفسه .. لقد كان الحمل معنورا .. فما من أحد يستطيع أن يميز احدهما من الأخرى .. على أية حال لم يكن الخطأ بالشئ الذى يستحيل تداركه ، فما عليه الا أن يرسل الحقيبة الى ناظر المحطة .. ولا شك فى أن السيدة ستعيد حقيبهته فستعيدها من هناك .. ومد يده الى الجرمس ليستدعى الخادم ولكنه أعادها الى جانبه مرة واحدة . فقد طاف برأسه خاطر مفاجيء .

ان هناك طريقا آخر لاسترجاع الحقيبة .. طريق بلوح فى نهايته بريق متعة ، طريق يؤدى به الى أحد تلك الأزقة التى يتمناها .. الا يحتمل ان يكون بالحقيبة ما يدل على اسمها وعنوانها .. فيذهب هو اليها لاعادتها بنفسه ؟ .. ومن يدري .. ؟ !

وشعر بآثار خفيفة من ذلك العطر الذى نفذ الى أنفه منذ لحظات ، فمد يده الى الحقيبة وأعاد فتحها .. فاذا بالعطر يحتويه فى جوه الملىء بالمسحر والفتنة .. وجذب الثوب الحريري الأخضر ليكشف عما وراءه .. فاذا بصره يقع على كل ما يوحى بالأناقة والجمال .

حقاً لقد صدق من سماهن ، الجنس الطيف ، .. فكل ما فيهن ..
وما حولهن .. وما يتعلق بهن .. لطيف رفيق .. لقد بدأ الفتى يحس بفريط
الخلج من حقيقته ومحتوياتها .. عندما تراهى له أنها قد تكون مشرعة
فى اللحظة نفسها لعينى المرأة الساحرة .. وعندما تخيل أن أول ما سيصدم
بصرها .. هو ذلك الشبشب البالى العتيق .. وتمنى أنه لو يحضره .. ولو
سار عارى القدمين .. ثم بصر بها تقلب بازدياد فرشاة الخلاقة التى لم
تبق بها الا بضع شعيرات فكأنها رأس أصلع .. وصابونة الخلاقة التى قد
أضحت لثرا بعد عين .

وتذكر الفتى بقوة ملاسسه .. لقد كانت كلها من نوع عادى ،
والبيجامة قد بهت لونها وبدأ بها أثر البلى .. والفانلات كذلك لا تخلو
أحدهما من نقرة أو نقرتين ، لعنة الله عليه ، أنه دائماً يؤجل تجديد
حاجياته ، فلا يبدل بها الا بعد أن تمسى فى الرمق الأخير .. لا شك فى
أن المرأة ستظنه كهلاً أخنى عليه الدهر .

وعاد العطر ينفذ الى أنفه .. ويوحى اليه بأن هذا هو شذى أنفاسها
وأريج جسدها الناضر البيض ، وبدأ يراها بعين الوهم .. أنيقة رشيقة ..
ممثلة فى تناسق واستواء .. وبصر بوجهها من خلال ذلك العطر فإذا به
ساحر فائن .. وبذلك الشعر الذهبى المتهدل .. والأعين الملونة الفاتحة ..
والفم الذى يفرض بالعنوبة والاضراء .. لقد أجاد الفتى تصورهما فوضع فيها
كل ما يتمنى .. ولكن هبه قد وجدها عجوزاً عجفاء .. قبيحة شوهاء ..
من أولئك المعائز الأجنبية اللاتى يتعلقن بأهداب الصبا والشباب لا ..
لا .. هذا شيء مستحيل .. إن قلبه لا يخطئ الحقيقة !

وبدا الفتى يفتش فى محتويات الحقيقة .. ولكنه أحس ببعض
التردد .. لقد شعر بأنه يرتكب أمراً نكراً ، وترك الحقيقة ثم أتجه الى باب
الغرفة فأحكم اغلاقه تماماً كما يغلقه لو كانت معه المرأة نفسها . لقد عزم

على أن يفحص كل ما فى الحقيقية قطعة قطعة .. ولم يكن يرغب فى أن يزعجه أحد .

وبدا له أن اللون الأخضر هو اللون المحبب الى نفسها .. فكل ما وقع عليه بصره كان أخضر اللون .. المشط .. والمرآة ، وعلبة البودرة .. وأحمر الشفاه والخدود ، وأشياء أخرى لم يستطع أن يعرف فائدتها .. كل هذه كانت خضراء .

ووجد الفتى حرف « ز » على حقيقة صغيرة ، ولم يجد سواه .. فلم يستطع أن يميز اسمها بالضبط .. قد يكون زيزى أو زوز .. أو زينب .. أو زكية .. أو زبيدة .. على أية حال انه يرجع أن تكون « زيزى » فهو اسم حبيب الى نفسه .

ووجد كتابا قلبه بين يديه لعله يجد أثر لاسم أو كتابة تهديه الى صاحبة الحقيقة .. فلم يجد شيئا .

ثم أبصر ثوبا للنوم .. أخضر فستقيا قد طبق بعناية بالغة ، ووضع فى ركن الحقيقة .. وبدأت الدنتلا فى صدره دقيقة رقيقة .. وأمسك الفتى بالثوب بين يديه وقد علت دقات قلبه .. ومد أصابعه يتخيل طياته ويتحسس صدره .

ونهب الى عمله فى الصباح التالى .. وقضى يومه غائب الـ ذهن .. فقد ترك ذهنه يجول فى الحقيقة ويعبث بمحتوياتها ، ويتخيل لقاء صاحبها الفاتنة الساحرة .. وقبل المساء عاد الى الحجرة وهو يحس كما لو كانت هناك امرأة تنتظره .. امرأة ترتدى ذلك القميص الأخضر ، ويفوح منها عطر ينفذ الى القلب قبل أن ينفذ الى الأنف .

ودخل الفتى الى الحجرة وأضاء النور .. فرأى ما ملأه دهشا ، لقد أعدت صاحبة الفندق الغرفة للنوم .. ليس له فقط .. بل لامرأة أخرى .. لقد وجد الحقيقة فارغة على أحد المقاعد .. وأبصر أدوات الزينة قد صفت

على التسريحة والشبشب الأخضر الأنيق أمام الفراش ، وأبصر القميص الأخضر قد علق على المشجب .. لقد أعد كل شيء حتى بات الفتى يحس بأن للمرأة موجودة في الغرفة فعلا .

وشعر بأنه ارتكب خطأ .. فما كان له أن يبقى الحقيقية في الحجرة .. ولكنه لم يستطع أن يقاوم تلك الشيطان الذي يكمن في نفسه ، والذي يتحرك ليحطم القيد كلما لاح له شبح امرأة فاتنة .. أو نصف فاتنة .. انه رجل متزوج ، يمثل نمونجا لزواج سعيد ، فامرأته لا تقل في الجمال والفتنة عن أولئك النساء اللاتي يتحرقن شوقا اليهن ، بل انه كان في وقت ما - قبل أن يتزوجا - لا يرى في الحياة من هو أجمل منها ، وهي لطيفة المعشر ، ذكية عاقلة ، أمينة مخلصه ، تحبه كأشد ما تستطيع امرأة أن تحب ، وهو كذلك يبادلها الحب نفسه والاخلاص ذاته ، ومع ذلك ، ومع كل هذا كان الفتى لا يستطيع ان يقتل في نفسه ذلك الحنين الى الجمال والسيل الى الفتنة .. وما كان في قدرته أن يسكت تلك الشيطان الذي يؤموس في صدره .. كلما بدا له وجه فائن أو صدر مكتنز أو سوق ملفوفة ممثلة ، لقد كان يعتبر حبه لزوجه شيئا ، وتلك المغريات شيئا آخر .. لا علاقة لها بالاخلاص أو الخيانة .

وكان يشعر بأن هذه المرأة التي لم ير منها سوى الحقيقة ومحتوياتها .. قد أغوته كما لم تغره امرأة من قبل فقد أحس بأن نفسه لهفة اليها وحنينا الى احتوائها بين ذراعيه .

وخسر له في تلك الليلة أن يفتعل قطعة من الصابون المعطر وجدها في الحقيقة .. وكانت القطعة قد استعملت من قبل ، فأحس وهو يمس بها جسده .. بأن تيارا يسرى في كيانه .. لقد لمست القطعة من قبل جسدهما اللين الغض .

وتعمد في فراشه وقد فاح منه ذلك العطر العجيب .. لقد أحس بأن المرأة قد باتت منه على قيد خطوات .. وأنهما قد أصبحا جسدا واحدا .

وتمطى الفتى وتثاوب ، ومد يده ليمسك بالكتاب الذى وجده فى الحقيقة ، ولكنه ما كاد يضع يده على غلافه حتى شعر بالباب يفتح فجأة دون سابق انذار ، واذا بزوجته تقف بهذا الباب وقد علت وجهها ضحكة مشرقة .. كأنما قد سرها أن تفاجئ زوجها .

ولم تطل الضحكة ، فقد حل محلها دهش وذهول وسرعان ما تحول الى غضب شديد .. أن زوجها لم يكن وحده ، لقد كان مع امرأة أخرى ، وتلك آثارها تدل عليها .

وصعق الفتى فقد وجد أن من العسير عليه أن يحاول اقتناعها بالحقيقة ، وأن المسألة كلها خطأ فى الحقيقة ، فقد كانت كل المظاهر توحى بأنه ينتظر امرأة ، وأن المرأة متبسية معه ليلته .

وقبل أن يفتح الفتى فاه ليفسر الأمر ، أبصر الخادم يطل برأسه من الباب ليخبره فى أدب امرأة تريده !

يا للكارثة ! ، جاءك الموت يا تارك الصلاة .

أى امرأة تلك التى تريده فى ذلك الوقت وهو الذى لم تسأل عنه امرأة قط ؟ . أى ظروف خرقاء تلك التى دفعت امرأة - أيا كانت - الى السؤال عنه فى ذلك الوقت الذى لا يتمنى فيه شيئا ، سوى ألا تسأل عنه امرأة .

ولم تطق الزوجة صبرا فانهارت على أحد المقاعد وعصف بها الحزن فاستغرقت فى بكاء عنيف .

ووقف الفتى حائرا هنيئا ، ثم خرج من الحجرة ليرى المرأة التى تريده ، فاذا بها عجوز مقصابية قد ارتدت ثوبا أخضر ، واستطاع الفتى أن يلمح على حقيقة يدها حرف ز ، ، ثم أبصر فى ركن الصالة حقيقة المفردة !

إذا فهذه صاحبة الحقيقة ! .. ولم يحس الفتى بخيبة أمل ، بل على

العكس ، لقد مره الا تكون المرأة خيرا من ذلك ، وأسرع الى حقيقته
فحملها في يده وباليه الأخرى جذب المرأة الى حجرته وصاح بزوجته :

- هذه هي المرأة التي تريدني .

ثم صاح بالمرأة :

- أخبريها ماذا تريدني ! .

وتعاون الثلاثة على اعادة حاجيات المرأة الى الحقيبة ، وشرذ ذهن
الفتى فأبصر طريق حياته يبدو مستقيما كما كان ، وحمد الله أن انعطافه
كان في إحدى تلك الأزقة القصيرة التي موعان ما يعود المرء منها الى
طريقه السوي مرة أخرى .

★ ★ ★

بجانبى البريد

كان الفتى العاشق أكثرهم لهفة الى البريد ..
حتى لقد كان عامل البريد يتوجس منه
خيفة .. ويسميه فيما بينه وبين نفسه
« مجنون .. بوسوسة »

كان الطريق طويلا ، والسفر يملأ النفس وحشة ومللا ، فما تقع
العين الا على صفرة الرمال الممتدة المترامية .. حتى ليرتد البصر من
فرط الحملة في لا شيء كلبلا متعبا ، ويصيب النفس ضيق وتبرم عندما
تمر بها مئات الأميال من الصحراء القفرة الجرداء ، دون تغير ولا تبدل ،
فتغرق في لهفة لأن تبصر أثرا من آثار الحياة ، ومهما كان تافها قلته يقطع
به ذلك الحبل الطويل من الجمود والسآمة .

كانت العربتان تنهيان الأرض نهبا .. وقد جلس فيهما صاحبنا مع
بضعة جنود فى طريقهم من الواحات البحرية الى القاهرة وقد خيم على
الجميع صمت وسادهم سكون . وجلسوا فى أماكنهم لا تبدر منهم إشارة
ولا حركة اللهم الا تلك الهزات والقفزات التى كانت لا تفتأ تراودهم بين
آونة وأخرى كلما صادفت العربية ثلعة من ثلعات الأرض .

وبدا صاحبتنا فى شرود تام عن كل ما حوله . لقد كان جالسا فى
العربة ، اليك آب ، الى جوار السائق بجسده فقط ، أما ذهنه فقد كان
فى غيبة بعيدة ، اذ كان يحلق به فى أجواء تختلف كل الاختلاف عن تلك
الجو الذى يشتمله جسده .. أجواء لذينة ممتعة : لا فقراء ولا جرداء ، لا
وهاد ولا نجاد بل خضرة ونضرة ، وسحر ونشوة .

لقد تناهى ذهنه الى القاهرة ، فقطع تلك البيداء الشاسعة الى لمح
البصر ، تاركاً جسده يعلو الغبار وتحطمه : المطبات ، . وفر بتفكيره
حيث المدينة الساخبة يستعرض تلك الأمنيات التى هى على وشك أن
يحققها بعد بضع ساعات .

لقد مضى عليه عام منذ أن غادر القاهرة آخر مرة . واستقر مع
وحدته فى الصحراء التى تشرف على الواحات البحرية ، وما هو ذا يعود
اليها اليوم بعد فرط حنين ، وطول لهفة وشوق ما أعجب أمره ! كيف
استطاع أن ينتظر تلك الشهور الطويلة دون أن ينفد صبره وهو اليوم يتعجل
الدقائق والثواني !

هذه الشهور التى مرت عليه دون أن يبصر فيها وجها جميلا ، أو
يسمع صوتا عذبا ، أو يتمتع بلقاء هنيء .. كيف استطاع احتمالها ؟ لا شك
فى أن الفضل بذلك يرجع الى تلك الكوكبة من الرفاق الذين تفيض نفوسهم
مرحاً وتشع قلوبهم بشراً ، والذين جعلوا من تلك البقعة الموحشة موطننا
للضحك والمرور ، وخلقوا من الملل والكآبة أنما وحبورا .

كانت حياتهم سلسلة فكاهات وأضحاك ، حتى انه ليكاد يجزم بأنه
ما ضحك فى حياته قط قدر ما ضحك وقتئذ .. كان مرح الشباب بهيىء
لهم مادة من الضحك لا تقنى فكانوا يضحكون من كل شيء بل من لا
شيء .

وكان أكثر ما يضحكهم ، هو صاحبهم العاشق ، ولم يكن تميزه بتلك

الصفة ليعنى أنه لم يكن بينهم عاشق سواء .. بل على العكس .. لقد كانوا كلهم عشاق ، فالعشاق والصبا توأمان وهما صنعوا الشباب ، ولكنهم اختصروه بتلك الصفة لفرط ما به من وله وصباية ولأنه كان عاشقا مستجدا ، اذ كان حديث عهد بالخطبة . وكان رحيله الى ذلك المكان الثانى قد حرمه من لمتع أيامه وأهنا لباليه وزاده صباية على صبايته وأضرم فى نفسه نار الشوق ولهيب الوله .. ولم يكن الفتى العاشق ليقل عن صحابه ميلا الى المرح واللهو ، بل ربما كان أكثرهم دعابة والطفهم فكاهة .. فلم يكن فى هواه بالبالكى الملتاع الذى تركت الفرقة عنده أشجانا وأحزانا ، بل جعلت منه منبععا للتسلية ومصدرا للطرب والمرح .

كان الفتى لا يأتى شيئا سوى الغناء ، وسرد الشعر ، والجلوس على حجر أمام مكتب البريد ١ . أما الغناء فقد كان ولوعا بالمواويل يحفظ منها كمية هائلة .. وكانت له قدرة عجيبة على القاها .. وكان أحبها الى قلبه موال ما فتىء يرنده فى كل آونة ، وهو : يابو الطقية الشبيكة مين شاغل بالك ؟ . أما الشعر ، فقد وعت منه ذاكرته كل ما قيل فى الهوى والعشق ، والغزل والتشبيب مما للمجانين والعقلاء وللأحياء والأموات ، أما جلوسه أمام مكتب البريد فمسألة فيها كثير من الطرافة .

كان مكتب البريد فى البحرية - وأغلب الظن أنه ما زال - عبارة عن حجرة بجوار دار المأمور ، ولم يكن هناك شيء يثير الحنق فى نفوس أصحاب المرحين ، ويملؤهم ضيقا وغضبا قدر تأخر البريد الذى لم يحدث مرة واحدة أن وصل فى مواعده فقد كانت وسيلة نقل البريد بين القاهرة والبحرية - وهى مسافة تقرب من الأربعمئة كيلو متر ليس بينها متر واحد ممهد بالأسفلت - هى عربة ، فورد ، بلغت من الكبر عتيا ، شعارها فى الثانى السبعة ، فهى تكره العدو ، حتى لتخالها فى بعض الأحيان تمشى القهقري ، وكثيرا ما ينهكها السير ، فتقف فى الطريق لتستريح ، وقد تطول بها الراحة الى حد أن ينسى سائقها أمر ذاهب الى القاهرة أم عائد

الى البحرية . وكثيرا ما كان أصحابنا يهجمون على عربة البريد وبنفوسهم لهفة الى ما حملته اليهم فاذا بها بعد طول غيبة ، قد أعادت اليهم بريدهم الذى رحلت به .

وكان الفتى العاشق أكثرهم لهفة الى البريد ، حتى لقد كان عامل البريد يتوجس منه خيفة ، ويسميه فيما بينه وبين نفسه . « مجنون بومئة » . فقد انتهى الأمر بالفتى من فرط ما أصابه من تأخير البريد ، أن انتقى حجرا ووضعها أمام حجرة البريد . فلا تكاد الشمس تشرق حتى يتخذ محله عليه مضربا عن كل أعماله ، ولا يفارقه حتى تطفئ ظلمة الليل .

ومرت الأيام والرفاق في مجونهم ومرحهم ، حتى حولت لهم العودة الى القاهرة في اجازات قصيرة ، الواحد تلو الآخر . ولم يكن هناك شك في أنهم يرون أن حقهم في أن يكون البادية بالاجازة هو صاحبهم العاشق ، ولكن الفتى أصيب فجأة بالمalaria . فاذا هو لسوء الحظ طريح الفراش قد حطمت منه الحمى ونهكت قواه ، فرقع الاختيار على صاحبنا ذلك الذى قد جلس في العربة وقد سبق ذهنه جسده الى القاهرة الصاخبة .

جلس الفتى يرقب فى رأسه .. كيف هو سيقضى الأيام الخمسة التى صرحوا له بها .. خمسة أيام فقط ؟ . لقد كان عليه ان يفكر جيدا فى كيفية الانتفاع بها والا سرقه الوقت وأقلقت منه تلك المتع التى كان يحلم بها .

لقد كان أول ما يجب عليه عمله ، هو أن يخفف من تلك المهام الثقيلة التى كان يجب عليه أن يؤديها وأولها هو زيارته لبيوت رفاقه وإرسال رسائلهم اليها ، وكان عليه أن يبدأ ببيت صاحبه العاشق ، وتلك هى أثقل المهام .. فقد كان يكره أن يكون رسول شر ، وأن يحمل الى الناس من الأتباء ما لا يبر ، ولكنه كان مضطرا لأن يقابل خطيبة صاحبه ويحمل اليها نبأ مرضه بالمalaria مخفيا قدر الامكان ويطمئنها عليه ويبلغها أشواقه ، وعليه بعد ذلك أن يقوم بتلك الزيارات الرسمية التى لا بد منها .

على أية حال يجب ألا يعنى لكل هذه الأمور السخيفة أكثر من يوم واحد
ثم يتفرغ بعد ذلك إلى ما هو أهم وأمتع . أجل . عليه أن ينظم وقته بحيث
يعنى له أن يقابلهن جميعا ، وأن يعوض نفسه ما فاتته فى خلال تلك الغيبة
الطويلة .



الفتى الآن قد وصل إلى داره فعلا بذهنه وجسده معا .. وقد انتهى
من احتضان وتقبيل كل من فى الدار ، وخلع حلته العسكرية وأزال عناء
السفر .. ثم ارتدى البذلة ، والكحلى ، و ، الياقة المثنية ، وهى أرضين ما
يمتلك ، ووقف أمام المرأة لحظة .. ثم أنطلق من الدار وسط عاصفة من
احتجاجات دون أن يأبه لرجائهم بأن يمكث بينهم قليلا فيطفىء شوقهم
إليه .

لا . لا . أن المدة خمسة أيام فقط . أنه فى عجلة من أمره ! وبعد
فترة قصيرة كان الفتى يسير فى شارع للملك يحمل فى أرقام الدور حتى
وقف أخيرا أمام الرقم المطلوب .

يا للعجب ! . أهذا هو حقا بيت الخطيبة المطلوبة ! . أنه لم يتخيل
قبل أنه يمثل هذه الفخامة .. لا شك فى أنها (لقطه) . ترى كيف استطاع
صاحبه العثور عليها ؟

ودفع الفتى الباب الحديدى وعبر الحديقة الواسعة الغناء ثم صعد
بضلع درجات وضغط الجرس ، ولم يطل انتظاره فقد فتح الباب وأطل منه
وجه لم يشك فى أنه وجه خطيبة صاحبه .

أجل أنها هى بعينها ، كما أبصرها فى الصورة التى أراء أياها ! بل
لقد كانت فى الحقيقة تبدو أصغر منها فى الصورة ، وتأملت الفتاة هنيهة
متسائلة بعينها عما يطلب ، ولكنه لم يكذب يفتح فاه بالحديث حتى صاحبت

باسمه في دهش كأنما قد استطاعت تمييزه فجأة وطلبت منه الدخول مرحة
دون كلفة .

ودهش الفتى عندما علم أنها عرفت من بعض الصور التي أخذت
لهم مع صاحبه في الصحراء ، وأدهشه أكثر من ذلك أنها تعرف عنه وعن
رفاقه الشيء الكثير .

وجلس الاثنان في حجرة تطل على الحديقة وكانت الشمس قد
توارت في الحجاب ولم يبق من ذكرها الا قلوب من الشفق الأحمر قد
أخذت تنحدر أمام جيوش الظلمة .

وبدا الفتى يفكر كيف يسوق إليها نبأ مرض صاحبه دون أن
يزعجها ، وأخذ ينتقى في ذهنه وسائل اللف والدوران التي يمكن أن يملكها
إلى عرضه دون أن تصدم الفتاة .

وتعجب في نفسه من تلك اللهجة التي كانت تخاطبه بها الفتاة ..
حقيقة أنه ضيف ، وأن الأدب والركة وأجبان في مثل هذه الحالات ، ولكن
رفقها نحوه كانت - إلى حد ما - أكثر مما يستحق أو يتوقع .

ووجد الفتى نفسه - دون أن يدري - يسترق النظر إلى ساقها ،
فإذا هما آية في التماسق والجمال ، ثم ارتفع ببصره شيئاً فشيئاً وأخذ يفحص
بقية الجسد . فراعته تلك الانسجام والامتواء ، وانفعل إلى الوجه فأحس
بمحر يشع من عينيها وفتنة نفيض من شفيتها !! لقد كان صاحبه معذورا
في جلوسه على الحجر أمام مكتب البريد ، ولو كان هو مكانه ، لما استطاع
أن يحتفظ حتى الآن بقواه العقلية !

وبدا الفتى يقص ما جاء من أجله ، ولم يأخذ ذلك منه سوى لحظات
فسيرة .. وأدهشه أنه لم يبد على الفتاة ما كان يتوقعه من انزعاج وحزن ،
ولم يزد ما قالته تعليقا على قوله عن بضع كلمات تمننت لصاحبه فيها
للشفاء .

ولم يجد بعد ذلك ما يقوله .. فقام من مكانه مستأذنا في الانصراف ،
ولكن الفتاة نظرت اليه في دهش ، وقالت :

- أتمثل هذه السرعة ؟

ثم أطرقت وأردفت بصوت خافت :

- أنا أعلم أن أجازتك لا بد وأن تكون قصيرة ، وأن الساعات عندك
ثمينة ، أتمن من أن تقضيها في زيارة بيوت الأصدقاء ولكن كان يسمعني
أن تمكث عندنا بعض الوقت ، حتى نتناول الشاي على الأقل .

ولم يسمع الفتى الا أن يجلس ، ولم يسمعه أيضا - بالرغم منه - أن
ينكر أن استبقاء الفتاة له قد أسعده ، وأنه قد بات يسره أن يقضى معها
مدة أطول ، وأخذ يرقبها مليا ، وهي تتحدث عن الجور وعن الحديقة
والزهور ، وعن كل شيء الا صاحبة .. ووجد نفسه يجانبها الحديث ،
وكان بينهما صحبة قديمة . فقد كان يحس في نفسه بأنهما قد التقيا قبل ذلك
مئات المرات وكان يشعر أن الجور الذي شملهما مليء بنشوة ممتعة شبيهة
بتلك النشوة التي تعود جو العشاق .

وسمعت الفتاة فجأة ، وحدثت فيه حيناً ، ثم هزت رأسها متسائلة :

- يخيّل الى أنني قد التقيت بك قبل الآن . لست أنكر متى ؟ وأين ؟
ولكنني أكاد أجزم في نفسي أنك لست غريبا عني .

ومضحك الفتى وتأملها هنيهة ثم أجاب :

- هذا ما أحس به نفسه وقد يكون اللقاء قد حدث فعلا ، ولكننا لم
تلتق بأجسادنا ، بل التقينا بأرواحنا .

ورفعت اليه عينيها فالتفت بعينيهِ ، ومرت بينهما نظرة تحمل في
جوفها أشياء كثيرة ، نظرة من تلك النظرات التي تمر بين الرجل والمرأة

فتحمل الى كل منهما ذلك الشيء الذى لا يستطيعان الا فصاح عنه ، ذلك
الشيء الذى يكمن فى القلوب ولا يمكن تبادلته الا عن طريق العيون .

وفجأة أحس الفتى بوخز فى جانبه ، لقد خيل اليه أن صاحبه يرقبه ،
صاحبه الذى يرقد فى جوف الصحراء على بعد مئات الأميال ، والذى كلفه
أن يحمل رسالته الى خطيبته .

لقد أحس الفتى بأنه قد ارتكب فعلاً نكراً وأمرأ ادا ، فقد كان عليه
أن يبلغ الرسالة ثم ينصرف الى مسيله ، ومع ذلك فقد ارتضى لنفسه أن
يجلس قبالة الفتاة فيجاذبها الحديث ، ويبادلها نظرات الحب المختلفة ،
ويخبرها أنها قد التفيا بروحيهما - أزهق الله روحه وفرق جسده - حتى
يكف عن خيانة الأصدقاء !

ترى ماذا يقول عنه صاحبه ، وسائر رفاقه ، لو أبصروه على هذه
الحال ؟ هب أن الفتاة قد راعت معه أصول الضيافة ، وأفرطت بعض
النساء فى مجاملته لأنه صديق خطيبها أفكان يحق له أن يستغل رقتها ،
فيتمادى فى الجلوس معها ليمتع بصره بوجهها الجميل وجسدها الناضج ؟
أفكان يحق له أن يجلس ليسرق اليها ألفاظ الحب ونظرات الغرام ؟

لا . لا . لا . ليس هذا من شيم الرجال ، يجب عليه أن يتمالك نفسه
ويؤوب الى رشده .

وفجأة نفض رأسه كما ينفض المرء رأسه عندما يصعد من جوف
الماء ، ثم نهض واقفا وقال فى حزم واصرار :

- لا بد أن أنصرف الآن ، لقد تذكرت أن لدى أعمالا هامة . وبدرت
من الفتاة صيحة دهش وقالت فى أسف :

- أترانى قد أزعجتك باصرارى على إبقائك ؟ انى جد آسفة !

وساء الفتى نظرة الحزن التى بدت فى عينيها ولكنه صمم على أن

يكون حازما .. وكما وجهه قناعا من الجلد والصرامة ، ومد يده اليها مودعا دون أن يحاول النظر الى عينيها ، ولكنها أصرت على أن تودعه حتى الباب الخارجى .

وسار بجوارها ، ورأى نفسه يتخلف قليلا فيتمنى له أن يرقب جسمها البديع وشعرها المسترسل على كتفيها . أنه لم يجد فى ذلك أى حرج . فما دام قد صد نفسه وكبح جماحها ، ليس له الحق فى أن يتزود منها بنظرة أخيرة ، ولو للذكرى ؟

وروقت الفتاة تودعه عند الباب الخارجى وما زالت تبدو فى وجهها علامات الأسف لرحيله السريع ، ولكنه شد على يدها وغادرها كأنه هارب من خطر داهم .

ولم يطلق الفتى أن يمنع نفسه عن التفكير فى الفتاة . وأحس بها قد ملكت ليه وشغلت ذهنه ، وتعذر عليه أن يطرد صورتها التى استقبلت برأسه ، ولم يمتعه أن يتهم نفسه بالسخف والجنون .. وأى جنون هنالك أكثر من أن يترك نفسه تتغمس فى التفكير فى فتاة ليست له ولا يمكن أن تكون له ؟ إن هذا التفكير فى خطيئة صاحبه يعتبر ضربا من ضروب الخيانة ، ولكن ما حيلته والأمر ليس بيده ! لقد ابتعد بنفسه عن الفتاة ، وقد كان فى استطاعته أن يتمتع بلقاء أطول .. ولكنه كان أمينا على عهد صاحبه ، فولى الأنبار . أجل لقد نجح فى الفرار منها ، ولكنه الآن لا يستطيع الفرار من طيفها الذى ملك عليه نفسه .

ما أحمقه ! فيم هذا التعلق منه بالفتاة التى لم يرها الا مرة واحدة والتى كان يعلم سالفا أنها محرمة عليه وأن مجرد التطلع اليها ليس فيه شيء من اللؤواء ؟ ولكنه مع كل ذلك استمر يفكر فيها .. حتى لقد بات من كثرة تفكيره فيها زاهدا فى هاته الفتيات اللاتى كان يتحرق شوقا اليهن واللاتى كان يستحث الوقت وهو فى طريقه الى القاهرة لكى يتمتع بلقائهن .

وفى اليوم التالى وجد الفتى نفسه وقد أخذ يتلمس الأسباب والأعذار

لكى يزور الفتاة مرة أخرى .. وبدأ النضال بينه وبين نفسه .. يذهب أم لا يذهب ! لقد كان عقله يمنعه من الذهاب وضميره يحذره من أن يحيد عن جادة الصواب .. وكان قلبه يتحرق شوقاً ، ويدفع به الى بيت الفتاة دفعا ، ولكن وجد نفسه أخيرا وقد وقف أمام باب الدار يضغط على الجرس !

وكان يحس باضطراب شديد .. حتى لقد حمد الله حينما خرج اليه الخادم فأنبأه أن أهل الدار قد خرجوا .. وعاد أدراجه وهو لا يكاد يصدق .. كيف ساقه جنونه الى أن يحاول العودة الى الفتاة .. وماذا تراه كان قائلا لها لو وجدها ؟

وأخيرا انتهت الأيام الخمسة ، دون أن يحس الفتى بتلك المتع التي كان يتوقعها .

فقد أقض مضجعه طيف الفتاة .. وسلبه تفكيره اليانس فيها كل راحة ومتعة .

وفى اليوم السادس عاد الى الواحات البحرية ، وفى ذهنه شرود وغروب بال ، وتلقاه رفاقه مهللين ، وسألوه فى لهفة أن يقص عليهم ما حمل من أنباء وأقاصيص ، ولكنه لم يقص عليهم شيئا ، فقد كان به ميل الى الصمت وزهد فى الكلام .

كان صاحبه قد أبل من مرضه .. وأقبل عليه يسأله عن خطيبته وكيف وجدها ، وماذا قالت له ، وكيف استقبلته .. فأجابه فى اقضاب أنها بخير وأن مرضه قد أحزنها ولكنه طمأنها قدر المستطاع .

ومرت الأيام فإذا بالفتى لا يسعد شئ كالجلوس الى صاحبه لسمع حديثه عن خطيبته ، فقد كان يحس بمتعته فى سماع تلك الأحاديث .. حتى انتهى الأمر به الى أن يعرف عنها كل شئ .. وحتى بات يشعر بأنه

يعرفها معرفة وثيقة ، بل أنه ليعرفها كما يعرف أقرب الناس إليه ، أو كما يعرف نفسه .

وفى ذات أصيل جلس الفتى يرقب قرص الشمس الأحمر بختفى
ببطء خلف كتمان الرمال .. ولم يكن هناك أحب إليه من ذلك المنظر ،
ولكنه فى تلك الساعة لم يحس بذلك الوقع الجميل الذى تعود أن يحس به ،
فقد حجبته عنه ستار كثيف من الحزن الذى شمل قلبه وغمر قواده .. ولم
يشعر . الا وهو يسأل نفسه : ترى أية روية سيؤدى اليها ذلك الطريق
العجيب الذى يسير فيه ؟ وماذا يمكن أن تكون نهاية ذلك للحب اليائس
الشبيه بحب الخيالات وعشق الأشباح . لقد بات أشد من صاحبه لهفة الى
رسائل البريد .. لا لأنه ينتظر خطابا لنفسه بل لأنه ينتظر خطابا من خطيبة
صاحبه لصاحبه .

لقد كانت فى نفسه لهفة الى ذلك الخطاب ، فقد توقع أن الفتاة ستذكره
فيه على الأقل لتخبر صاحبها أنها قابلته . ولم يكن بالطبع قد بلغ به الجنون
حدا يتوقع أن تسوق الفتاة الى صاحبها كلمات الإعجاب به .. ولكنه
توقع أنها ربما عرضت له فيه بكلمة مدح أو بكلمتين .. على أية حال ،
وحتى لو لم تذكره البتة ، لقد كانت به لهفة الى أن يقرأ منها ويستمتع اليها
حتى ولو كان كتابها وحديثها موجه الى غيره .

وتلقت الفتى حوله فاذا بصاحبه يقبل عليه فجأة وقد تهال وجهه
بشرا ، وكانت مشيته من قرط فرحته تكون رقصا . وقد أمسك فى يده
رسالة كأنها تصريح بالدخول الى الجنة .

لقد كانت رسالة من خطيبته ، ما فى ذلك ريب ولا شك وفقر الفتى
من مكانه وعدا الى صاحبه .

ونظر اليه صاحبه وقد تجسم للهناء فى قمصانه ، وبدرت منه
ضحكة .. ثم مد يده بالرسالة الى الفتى .

وأقبل الفتى على الرسالة يقرأها بشغف وشوق ، ونمادت أساريره
فى الانبساط ، وبدأ عليه من دلائل المساعدة أكثر كثيرا مما كان يبدو على
صاحبه . ولم يكد ينتهى من قراءتها حتى اندفع الى صاحبه يحنضنه ويقبله
كان به مما من جنون . وكان الفتى معذورا . فقد وجد فى الرسالة أكثر
مما كان يتوقع !

لم توجه اليه الفتاة شيئا كلمات حب ، حتى ولا اعجاب ، بل لم تذكر
عنه شيئا أبته . ومع ذلك فقد وجد الفتى فى الرسالة أكثر مما كان يحلم
به ! أجل لقد كان فيه شيء عجيب !

ان الفتاة لم تذكر عنه شيئا ، لا لشيء الا لأنها لم تره .. أجل ..
لقد قالت الفتاة أنها كانت خارج الدار ، وأن التى قابلته هى أختها
الصغرى ! .

وكان هذا أكثر مما ينتظره الفتى .. فقد أحس بأن سحب الرأس قد
تبددت من حوله .. وأنه كان على شفا حفرة من الموت فأنقذ منها .

وبات الفتى ليله ساهرا .. فقد كانت مساعدته أكثر مما يحتمل . وفى
الصباح هدد الفتى من حوله ، أنه ان لم يسمحوا له بالذهاب الى القاهرة
فورا لكى يخطب الفتاة .. فإنه سيذهب سيرا على الأقدام .

وعلم من حوله أن جنون الحب قد أصابه ، وأنه قد يفعلها . فسمحوا
له بالذهاب .

وعاد الفتى بعد أن خطب الفتاة ، وفى ذلت صباح ، بعد أسبوع من
عودته .. كان موظف البريد يفتح مكتبه فإذا به يبصر الفتى وقد حمل
حجرا آخر وضعه أمام المكتب بجوار حجر صاحبه . فعلم أن مجانين
البومنة ، أو مجانين الهوى قد زادوا واحدا .

★ ★ ★

الرسالة

آه من هذه الظلمة التي شملتني ! .. وآه من
هذه الوحدة المضنية .. لم لا تترفق بنا
الحياة فتكرر حوائثها مرتين ؟ .. فقد
تعلمت الآن كيف أقول : نعم ، نون أن
أعطي دروسا في الحياة .

الى قارئى فى كركوك .. القارىء الذى طلب الى أن أكتب اليه قصة
بعنوان : أمل .. ، اهدى هذه القصة ، لاننى لا أستطيع أن أرد لولاحد من
أهل العراق طلبا ، فانهم جميعا أعزاء على نفسى ، أحباء الى قلبي .

كان أول ما فضضته من الرسائل التي حملها الى البريد فى الصباح
رسالة مليئة مكتظة وجدت بها خطابا طويلا قد شغل ما يقرب من خمس
صفحات ، فولسكاب ، وأسرعت بقراءة التوقيع ، فوجدت المرسل
صديقة لى لم تتعود قط أن ترسلنى ، اذ ليس بيننا سوى صداقة عابرة لا
تستدعى أن يكتب أحدهنا الى الآخر .

ونظرت الى صاحبي الذى جلس على مقعد أمام مكتبى وقضت اليه

بمجلة لئيمسلى بقراءتها حتى انتهى من قراءة الرسالة ، أو ، العرضحالة ، .

ثم بدأت القراءة ..

عزيزى :

لا أدري ما الذى دفعنى الى الكتابة اليك .. أنت بالذات دون سواك !
بل لا أدري ما الذى دفعنى الى الكتابة أصلا .. ؟ وأنا الذى لا أكره شيئا
مثل كتابة الرسائل ، ولا أستطيع أن أخط سطرين متتاليين الا بعد مشقة
وعناء .

واكنى أحس الآن كأن نفسى قد شملتها ظلمة حالكة ، فأحاول ..
بالكتابة اليك - أن أتلص فى تلك الظلمة من يؤنس وحدتى ، ويخفف عنى
ومطأة هذه الوحشة المضنية ، أجل .. أنى أحس فى الفؤاد جمرة متأججة ..
لو طويت صدرى عليها وحسبتها فى أضلعى ، لتركنتى رمادا أو هشيمًا .

هذا ما جعلنى أمسك بالقلم وأحاول الكتابة .. أما لماذا اخترتك أنت ،
فلأننى فى حاجة الى من يستطيع فهمى ، وإلى من يستطيع فهم تلك
العوامل النفسية التى تصطبغ فى نفسى وإلى من يكون لديه الصبر الذى
يمكنه من قراءة رسالتى حتى النهاية فلا يصيبه الملل بعد قراءة أسطر منها
فيفلقى بها فى ضيق وتبرم ، ولا يكون نصيبى منه الا بضع كلمات ساخرة
فائرة .

أنا أعلم أنك لم تملك شيئا لى ، فلا عزاء لى عندك سوى الكلمات ،
ومتى كانت الكلمات تجدينا ؟ اننى كنت حمقاء ، فتركت الفرصة تغلت من
يدى أو على الأصح ركلتها بقدمى ولا أظنها مستعود بعد ، فأمسوا ما فى
الحياة أن الحوادث فيها لا تتكرر مرتين دائما ، فيتعط الانسان فى المرة
الثانية بما ارتكب فى المرة الأولى ، فان الفرصة لا تكاد تمر بنا وتغلت
من أيدينا حتى يصيبنا الفرع ونصبح بها أن تعود ، لأنها تعلمنا كيف

نعتنصها ، وكيف لا نجعلها ثقلت مرة أخرى .. ولكن هيهات .. انها لا تعود .

أنت لا شك تعرف الدكتور (...) بل انى لأذكر انك كنت أول من عرفنى به ، عندما التقينا فى الصيف الماضى فى سيدى بشر ، وأنبأتنى ضاحكا بأنه طبيب أسنان و ، نصاب ، ا وطلبت الى الا أفكر أبدا فى الالتجاء اليه اذا ما أصبت ، بوجع الضرس ، ، لأنه سيشفينى من ، وجع الضرس ، ويضئنى ، بوجع القلب ، ا

ولست أدري ما الذى يجعلنى أكرر قولك الآن .. وتحذيرك اياى على ما كان به من هزل ومجنون ، وبالرغم من أنه لم يعلق بذهنى وقتذاك الا كما تعلق نكتة عابرة تافهة . أجل . أنه - على الرغم من هذا كله - يخيل الى أن الأيام قد حققت نبوءاتك ، فأصبت منها بلوعة فى الفؤاد وحسرة فى القلب .

لقد بدأ الأمر بيننا بأن أصبت أنا فعلا ، بوجع الضرس ، ، ولم أكن أفكر قط فى الذهاب اليه ، لا لشيء الا لأننى قد نسيت ، ولكن المصادفة وحدها هى التى ساقتنى اليه ، فقد قرأت اسمه ذات مرة على لافتة فى إحدى الدور ، ولم أر ما يمنع من الدخول . فقد كان هو وغيره لدى سواء .

وعندما رأتى عرفنى للوهلة الأولى وأقبل على باسمي مرحبا ، كأن بيننا قديم ود وسابق تعارف ، وتكررت بعد ذلك زيارتى له ، وبدأت أحس نحوه بالثقة والأطمئنان ، فقد أعجبتنى فيه براءة مظهره ولطف معشره .

وذات يوم أنبأتنى أن معه تذكرتين للأويرا وأنه تسعده مرافقتى اياه ، وصمت منبهة قبل أن أجيبه ، لقد كان الذهاب يصرنى ، ولكنى لم أعود قط أنى أخرج فى صحبة رجل غريب منذ وفاة زوجى ، أى مايقرب من ثلاث أعوام ، ووجدت هاتفا فى نفسى يكاد يقول نعم ، ولكنى وجدت فى القبول نوعا من الخيانة ، خيانة عهد قديم ، وحب ما زالت جذوره مغروسة

فى قلبى بالرضم من أن أوداقه قد جفت وتساقطت .
وأجبت بهدوء أنه لا يمكننى مرافقته الى أى مكان ، هو أو سواء
من الرجال ، وبدا فى وجهه شىء من الخذلان وخيبة الامل ، ولكنه
سرعان ما عاد الى سابق فكاهته والى أحاديثه المرححة الضاحكة .

وفى تلك الليلة أصابتى أرق شديد ، فقد تيقظت فى نفسى تذكيرات
هاجعة راقدة ، وعصف بى الحنين والشوق الى حبيب راحل نأى به الموت
وأبعدته الأيام ، ووجدت القلب يناديه ويستعيد ليلته .

لقد تنكرت زوجى العزيز الذى كان يفيض بالأمل والحياة ، وتكرت
أمانيه الحلوة التى ذرتها ريح الزمن وتركها الموت هباء فى هباء .

تذكرت كيف احتوانى بين ذراعيه القويين ليلة الزواج ، وكيف
سمعت همساته كأنها تغريد وترنيم ، ، أنت زوجتى .. وسأحبك حتى آخر
العمر . آخر العمر ؟ . لقد كان يبدو حينذاك بعيدا نائيا ، لا تكاد تبصره
العين أو تحس به النفس ، ولكنه مع ذلك كان قريبا منا ، أقرب مما
نتصور ، فما مرت ثلاث سنين ، حتى أبصرناه على قيد خطوات ، أو قيد
لحظات ، وأخيرا انتهى الأمر ، وأحسست بأن موته - وأنا فى السادسة
والعشرين - كان بمثابة موت لى ، وكان لنا معا ، آخر العمر .. .

ومرت الأيام وأنا لا أجد فى الحياة ما يستحق البقاء .. اللهم الا تلك
التكريات الحلوة الهالجة فى النفس ، والتى لولاها لكنت والموتى سواء ،
واستطاعت الأيام بعد ذلك أن تبرىء جراح القلب وتخفف من لوعته
وأسائه ، ولكنها لم تستطع أن تقلع جذور الحب المتفرعة فيه ، ولم تستطع
أن تحو الحنين الهادىء الصامت الذى كان يجيش به .

ووجدتنى أستمريء الوحدة ، وأستطيب العزلة ، وحدة القلب
وعزله ، وإن كان من التجنى أن أصف ما كنت فيه بالوحدة والعزلة ،
اذ ما غادرنى طيفه لحظة واحدة ، وما كنت وحيدة بعد موته أبدا .

ولكن ما الذى أثار كوامن شجنى فى تلك الليلة ؟ وما الذى جعلنى أرق لا يغمض لى جفن ؟ أفعل بى ذلك مجرد دعوة وجهت الى فأشعرتنى أننى وحيدة ؟ أم بدأت نفسى الساكنة تتمرد وتتور ؟ .

ومرت بضعة أيام بعد ذلك ، ثم ذهبت لزيارة الطبيب فأقبل على فى لهفة وشوق ، وألح فى هذه المرة أن أقبل دعوته الى المينما ، وأنبأنى أنه لا يستطيع أن يفهم سببا لرفضى ، الا اذا كنت أرفض صداقته ، وأرفض الثقة به .

ولست أدري حينذاك هل أصابنى ضعف أمامه فقبلت دعوته ، أم اننى قبلت دعوته لانى اقنعت نفسى بأن المسألة أتفه من أن أتهم نفسى بالضعف لقبولها ؟ وأن اخلاصى لزوجى الراحل لا يمكن أن يتأثر بأمثال تلك العلاقات البسيطة التافهة .. على أية حال ، وسواء أكان هذا السبب أو ذاك فقد قبلت الدعوة .

وسحبته الى الدار بعد انتهاء المينما ، وجلست بجواره فى العرية جنباً الى جنب ، وخيل الى أننى أحسن بالكثير من السعادة ، وبالكثير من الرضا .. السعادة والرضا المشوبين بشيء من الخجل ، وبشيء من الندم ، وتأليب الضمير .

وفى هذه الليلة لم أنق النوم الا لماما ، ولم يضايقنى ذلك فقد كنت أحسن بيقظة ممتعة ، وعندما كانت عيناى تغفلان كنت أرى أحلاما انيقة ألتقى فيها بزوجى ، كما كنا نلتقى فى سابق عهدنا ، ولكنى كنت أرى فى بعض الأحيان أن وجه زوجى قد أخذ يتبدل شيئاً فشيئاً حتى يصير شديد الشبه بوجه صاحبه الجديد .

واستيقظت فى الصباح وقد عقدت النية على ألا أذهب لزيارته مرة أخرى .

لقد كان من الحق أن أترك نفسى تندفع فى طريق مغلق . اننى

أصررت على ألا أتزوج مرة أخرى ، فمن العبث أن أحاول إنشاء علاقة معه لا معنى لها ، ولا يعلم إلا الله مداها ، ومن العبث أيضا أن أحاول خداع نفسي لأتركها عن بعد تتلمس المعازير التي أعلم الناس ببطلانها .

وخيل إلى أنني استطعت أن أضيق حدا للمسألة ، ولكن لم تكد تمضي بضعة أيام حتى التقينا مرة أخرى ، ولكنه في هذه المرة كان هو الذي أقبل على في البيت ، وقد كست وجهه سيماء الخطورة ، وحمل حقيته في يده ، مدعيا أنه خشي أن يكون قد ألم به ما منعتني من الحضور ، وهو يعلم أن أي تهاون في مسألة الضرس قد يؤدي بي إلى التهلكة ، وكنت أعلم جيدا أن كلامه لا يعدو أن يكون كذبا في كذب لأن ضرسى لم يعد به أي شيء .

وقبل أن ينصرف أنبأني بأن هناك رواية « هائلة » في الأوبرا ، وأن مشاهدتها مفيدة جدا « لوجع الضرس » .

وذهبت معه إلى الأوبرا في ذلك المساء ، وبعد انتهاء الرواية جلست إلى جواره في عربته ليوصلني إلى البيت .

وفي الطريق توقف على شاطئ النيل هنيئة وأخذنا نتحدث ، وليس هناك شك في أنه محدث بارع ، فقد استطاع أن ينسيني بسرعة رغبتى في العودة ، وشيئا فشيئا زاد اقترابه منى ، ثم أمسك بيدي ، وبدأ حديثه يتحول إلى همسات .

وهنا خيل لى أنى لن أستطيع أن أصف بالضبط تلك المرحلة الدقيقة التي مررت بها وقتذاك ، مرحلة الصراع النفساني العنيف ، والتأرجح بين الماضي والحاضر ، وبين الذكريات والحقائق .. أجل .. يخيل إلى أنى لن أستطيع أن أجعلك تفهمنى لأنى أنا نفسى لم أكن أفهم نفسى .

أترانى حقا أحب ذلك الذى أجلس إلى جواره وأدع يدي في يده ؟ ترى أن الشجاعة فقط التي تنقضى لتكون متعنى بحبه كاملة غير

منقوصة ؟ أترى لو استطعت أن أسدل الستار بينى وبين الماضى ، هل يذهب من نفسى ذلك الشعور بالقلق ؟

أم .. أم ترى العكس هو الصحيح ؟ وأنى لو أسدلت على الماضى ستارا لما أحسست قط بمتعة أو غبطة ، لأن ذلك للشخص الذى أسمع همساته الآن ليس الا مرآة تنعكس فيها صورة زوجى العزيز الذى أحببته بكل ما تملك المرأة أن تحب ، وأن تلك النشوة التى أحس بها الآن هى ملكى أنا .. هى كائنة فى نفسى ، وكامنة فى قلبى ، وأن كل ما فعله ذلك الشخص الجديد هو أنه حركها ، فجاش بها القلب ، واصطخب الفؤاد .

وأحسست به يرفع يدي فيضعها على فمه ، ثم يسألنى أن اكون زوجته .

وأحسست برجفة تسرى فى بدنى .. أنا ! . أنا أتزوج مرة أخرى ؟ ! أهذا هو الوفاء لزوجى الحبيب الراحل ؟ أمكن أن استبدل بحبه حبا آخر ؟

ونظرت اليه ونزعت يدي من يده ، كأننى أترجع من على حافة هاوية ، ثم هزرت رأسى ببطء ، وأجبته هاسمة :

« اننى قد أحببت مرة واحدة ، ووهبت قلبى ، فلا أستطيع أن أهبه مرة أخرى . أجل . لن أتزوج حتى آخر العمر . انى أحس بعزاء فى وحدتى » .

وأجابنى فى رقة وعطف : « ان من الجنون أن أفنى زهرة عمرى فى هذه الوحدة المضنية ، وأن القلب قد يحب مرة ، ولكنه يستطيع أن يحب مرة أخرى ، وأنه قد يذبل فترة ثم يعود الى الازدهار ، فحرام أن أقتل قلبى بيدي ، وأترك العمر يذهب سدى » .

وقلت له نبرات حالمة وكأننى أحدث نفسى :

- ان القلب لا يموت ما دام الاخلاص يغذوه ، وماذا يضيرنى أن يذهب العمر سدى ، ما دمت موقنة انه فى يوم ما عندما ينتهى العمر ، سألتقى بزوجى مرة أخرى ، وأضع يدى فى يده .. انى أحب الوحده لأنها لن تنسينى اياه .

ولم أسمع ينبس بكلمة بعد ذلك ، فقد غمرته موجة من الحزن والخيبة ، فأدار العربة وأعادنى الى البيت فى سكون واطراق .

ولا أدري ما الذى أصابنى مجرد أن افترقنا ، ولا أستطيع أن أفهم قط سر ذلك التبدل الذى داخل نفسى .. لقد جلست فى حجرتى وقد فاض بنفسى الحزن ، وتملكتنى لوعة شديدة ، فقد أحسست من حولى بفراغ ووحشة ، وخيل لى أنى فقدت شيئاً عزيزاً ، وتذكرت قول الرجل : ان القلب قد يذبل فترة ثم يعود الى الازدهار ، .. أجل . ان قلبى قد بدا يزدهر مرة أخرى ، لقد كنت أحب الرجل ، لا شك فى ذلك .

ولم أحس وقتئذ بغضاضة عندما اعترفت لنفسى بأنى أحب مرة أخرى ، ولم أجد فى ذلك أى نوع من أنواع الخيانة ، فما كان حبى لزوجى الراحل ليحول دون حبى الجديد . وما كانت الذكريات الجميلة المقسمة فى نفسى لتحرمنى متعة من متع الحياة التى يتمتع بها كل كائن حى . أجل ، ان للموتى حبا ، والأحياء حبا آخر .

وهكذا انقلب ذلك الشعور بالقلق الذى كنت أحسه بجواره ، الى شعور بالحزن عندما فارقت ، وعندما بت أخشى أن أكون قد فقدته الى الأبد .

ولكن لا .. الى قطعا لم أفقده ، فلا شك فى أنه سيعود ، ولا شك فى أنه سيطلب الزواج منى مرة أخرى ، وحينئذ سيجد منى مخلوقة أخرى ، وسأزول من نفسه مرارة الخيبة التى سببتها له فى المرة الاولى . لكن الأيام مضت ، وهو لا يعود ، حتى بت أحس بقلق شديد ،

وحتى أقنعت نفسي في النهاية بأنه من الخير لي أن أنهب أنا لأزِيل من نفسه ذلك اليأس الذي سببته له ولأهليه له فرصة أخرى .

وذهبت اليه فعلا ، بحجة أن ، ضرمسي ، قد عاد يؤامني .

والتقينا مرة ثانية ، ولينا ما التقينا ، فقد وجدته شخصا آخر ، لقد أقبل على في برود ، وجمود ، كأن لم يكن بيننا شيء ، وظننته يحاول معاقبتى ، فقلت لنفسى : لا بأس ، فانى أستحق العقاب . ولكنه استمر معنا في فتوره العجيب حتى لم أجد بدا من أن أحاول أنا من جانبي أن أقول شيئا أجدد به أمله في أننى تغيرت ، وبدأت فعلا أتحدث عن مقابلتنا الأخيرة ، ولكننى رأيته يرفع لى رأسه ويقول في صوت خافت :

- انى أشكر لك ذلك الدرس الذى علمتنيه ، لقد أريتنى مثلا في الاخلاص ، وكنت في حاجة الى ذلك ، فقد أعدت الى رأسى ذكرى صاحبتى الأولى التى ظننت أن القلب يمكن أن يستعوض بك عنها ، وأنه يمكننى أن أغنوه بك بدلا من أن أتركه يذوى ويموت ، ولكنك قلت أن القلب الذى يخدوه الاخلاص لا يمكن أن يموت ، وأن عزاءك في الحياة هو أنه سيأتى يوم تلتقين فيه بصاحبك مرة أخرى ، فقلت لنفسى : لم لا يكون عزائى أنا الآخر هو أننى سألتقى بصاحبتى مرة ثانية ؟ أجل .. لقد أضحت الوحدة خيرا لى كما هى خير لك .

وأحسست ببرودة تسرى في دمي ، وبقلى يهوى بين ضلوعى .. اذا فقد كان يحاول أن يتعزى بى عن صاحبتة ! لقد كانت خيبة الأمل شديدة على نفسى !

وتمالكت ، وحاولت أن أدع ابتسامة ترتسم على شفتى ، ثم ودعته واقتربنا . لقد كان الخطأ خطئى ، أنا التى دفعت الى رأسه ذكرى صاحبتة ، لقد أعطيته درسا ما كان أقصاه على نفسى .

آه من هذه الظلمة التي شملتني بعد ذلك ، وآه من هذه الوحدة المضيئة .. لم لا تتفرق بنا الحياة فتكرر حوادثها مرتين ؟ لم لا تتيح لنا الفرصة مرة أخرى ؟ فقد تعلمت الآن كيف لا أدعها تفلت .. لقد عرفت الآن كيف أقول : نعم ، دون أن أعطي دروسا في الحياة .

أترى الفرصة تعود ؟ لا أظن .. ولكن مع ذلك أعال النفس بالأمل ، والا لما استطعت البقاء في قيد الحياة لحظة ، ما أضيق العيش لو لا فسحة الأمل .

★ ★ ★

وأطبقت الرسالة ونظرت الى صاحبي بدهش شديد ، فقد كان هو نفسه الدكتور (...) يطل هذه الرسالة ... وصحبت به متسائلا :

- ولكنني لم أسمع قط أن لك صاحبة قد توفيت .

ونظر هو الى بدهش أشد ، بعد أن ألقى المجلة من يده ، وهز رأسه مبسوطا ، ثم سألني :

- صاحبة توفيت ؟ لي .. لنا ؟

ودفعت اليه بالخطاب ، فأقبل على قراءته بلهفة شديدة ، ولم يكده ينتهي منه حتى رأيته قد عصفت به نوبة شديدة من الضحك .. ثم قال لي وهو يقفز من مكانه :

- لقد انطلت ، عليها .. لم يكن هناك بد من هذه الكذبة ، حتى أراد لها ذلك الدرس الذي حاولت أن تعطيني اياه ، وحتى أخرجها من تلك الوحدة التي كانت تحاول أن تطوى فيها نفسها ، لقد كانت كذبتني خير علاج لها ، ودواني بالتي كانت هي الداء . لقد كنت أعرف أنها تحبني ولكن لم تكن لديها الشجاعة الكافية لأن تعترف بالحقائق ، وأن تسدل على الماضي ستارا ، فلم أجد خيرا من أدعى ان لي أنا الآخر صاحبة راحلة ،

ونكريات عزيزة ، فعصفت بنفسها الخيرة من صاحبة ومن النكريات ،
وعرفت أن القلب يمكن أن يحب مرة ، وثانية ، وثالثة ، بل انه لا يكف
عن الحب حتى يكف عن نبضه .

ورأيت صاحبى يعدو خارج الحجرة مسرعا ، فسألته الى أين ؟
فأجاب :

- أعيد لها الحوادث ، وأعطيها الفرصة مرة أخرى ، وأحقق لى
ولها ، أملا ، يجيش فى نفسنا .

★ ★ ★

ترغيبه

كنت أعرف أنك هنا وكنت أقدر
وأحترمك . ولو تركولى لجئت اليك امرأة
شريرة وأصبحت زوجتك أما وقد أصروا
على آرائهم وسخروا منى . فتعال . تعال .
وهكذا قدم له القدر الاعتذار والترضية .

انطلقت منه ضحكة خافتة مليئة بالمرارة والسخرية ..

من كان يظن هذا ؟

من كان يظن له على بال أن القدر سيعن فى هزله وسخريته الى
هذا الحد ؟ .

وعاد بقلب صفحات الصحيفة حتى استقر بصره مرة ثانية على
الصفحة التى شغلته بصورها وأنبائها وقد تربع اسمها بالخط العريض على
صدر الصفحة .

لقد كانت أمه فى يوم ما ، أملا قريبا سهل المنال ميسور التحقيق ..
أما الآن .. !

وعادت الضحكة الساخرة المريرة تنساب من شفتيه .

أما الآن !

الآن ... الآن !

لقد ما خذله الزمن في هذا الآن .. وخيب فيه آماله ، وبدد أحلامه .
كيف كان يبدو الآن ، عندما كان ينظر إليه من بعيد ، من سنوات
خلت ، وقد وقف في مطلع الصبا ومشرق العمر يتطلع إليه بذهنه الحالم
ونفسه اللهفي ، ويتصور ما وراء الغيب مليئا بالورود والأغاريد .

كان شديد الثقة بنفسه وبالزمن .. ثقة قد بلغت حد الغرور واليقين .
وكان يجزم لنفسه أنه سيضحى رجلا ذا شأن ، ولم يكن يفتح في
آماله بالمطلب المعقول ، بل لم يكن يتصور نفسه مجرد طبيب مشهور ،
أو مجرد محام ناجح .. بل كان واقفا أنه سيصبح شخصية بارزة .. زعيما
أو قائدا أو فيلسوفا يشار إليه بالبنان .

كانت الآمال تداعب نفسه كما تداعب نفس كل انسان ، وكان
يستقبلها في استسلام ودعة وحبور ومتعة .

كان يتخذ من أمانيه وسيلة لفترات رغد ، ولحظات هناء .
حتى لقيها . فإذا بالمعنى تلح على نفسه ، وتصر على أن تصبح -
من أجلها - حقيقة واقعة .

رآها أول مرة عند عودته من المدرسة وقد وقفت مع لداتها بالمرابيل
السود أمام باب المدرسة الإيطالية القريبة من دارهم تهم بركوب السيارة
المدرسية .. وتوقف برغمه في مكانه ووجد بصره يتبعها حتى تستقر في
مقعدها ، واستدار رأسه مشيعا السيارة حتى اختفت في أول منعطف .

كانت وقتذاك نسيج وحدها .. لقد جذبها وجهها بين عشرات الوجوه
المتشابهة ، فلم يبصر سواه أو يذكر غيره .

وجلس للاستنكار ، فوجد وجهها يرتسم على كل صفحة وأمسك
بالقلم يحاول أن يرسمها من الذاكرة .. وهل كانت الذاكرة تعي حينذاك
مواها ؟

رسم أنفها الدقيق ذا الطرف الأشم المرفوع ، ورسم شفثيها
القرمزيين المطبقتين في ضيق وامتلاء ، ورسم شعرها الذهبي ذا الجداول
العتامية على أكتافها .. رسم كل هذا على الورق عشرات المرات ،
ورغم مهارته في الرسم فما استطاع مرة واحدة أن ينجح في نقل تلك
الصورة المطبوعة في ذهنه إذ عجز أن ينقل بريق العينين وهالة الضوء
المحيطة به .

كان وقتذاك طالبا بمدرسة شبرا الثانوية ، وكان يقطن في بيت يطل
على حديقة طوسون . وكان يتخذ طريقه دائما الى المدرسة عبر الحقول
الملينة بالقصب والخضروات في ذلك الممر الضيق المسمى : دهليز
طوسون ، ولكنه منذ أن رآها بدا يغير طريقه ويضيف اليه لفة واسعة
حول المدرسة الايطالية ويضبط مواعيده بحيث لا يخطيء قط رؤيتها وهي
تصعد الى السيارة أو تهبط منها . أما في أيام الجمع فقد كان يجول حول
المدرسة على يلمحها من بين فتحات السور تلهو مع أترابها في حديقة
المدرسة .

وهكذا بدأ يضيفها الى قائمة أمنائه ويضعها ضمن المنى التي يعيش
بها ، زمنا رغدا ، والتي كان يجتر منها متعه اذا ما خلا الى نفسه في
جلسته المحببة في سكون الليل والأهل نيام ، وقد انكأ برأسه الى حافة
المقعد ومد ساقيه على سرور الشرفة وأخذ يقلب البصر بين السماء
والحقول ، وينصب الى خفيف الريح تعبت بأطراف أعود القصب وتسرى
بينها كموج هادىء ، ومن آن لآخر يتعالى صوت نقيق الضفادع ، أو
هبرط قط تتساق السور المغطى بأوراق اللوف .

ورويدا رويدا أخذت تتمدد فى ذهنه وتتضخم فى قلبه حتى احتلت كل تفكيره ، وتضاعلت بجوارها كل أمانيه .

لقد علمه الزمن بعد ذلك الكثير عن النساء ، ولقى منهن شتى أنواع المنع ، ولكنه لا يذكر أن مخلوقة واحدة استطاعت أن تهبه ذلك النوع المسكر المنشئ ، الذى كان يحيطه بجو عاطر مزدهر .

كان لا يقارنها الا بزهر الخوخ البمبى المعقود بأطراف الأغصان الجرداء ، وكانت تبدو له جزءا من الطبيعة لا صلة لها بالبشر ، اذا حملت اليه أريج زهر البرتقال ، فهو عبيرها ، واذا ما وصل الى معامعه هديل الحمام ، فهو همس شفقتها .

وظل حبها كامنا فى نفسه مطويا بين جوانحه ، وهو قانع بمجرد مراقبتها من بعيد ، موثق بأنها لا تحس له وجودا ، حتى أبصرها ذات يوم عقب خروجه من إحدى دور السينما ، وقد جلست فى عربة تقف فى شارع فؤاد أمام شيكوريل ، فوقف يحملق فيها مشدوها ، وكانت هى مشغولة عنه بمراقبة الطريق والمارة ، ولكن أختها الصغيرة كانت تجلس بجوارها فدفعتها بمرفقها تنبيهها الى ذلك المشدوه الذى يحملق فيها ، وأدارت اليه رأسها فارتسمت على شفقتها ابتسامة خفيفة ، وعلا وجهها احمرار شديد .. وسرعان ما حولت عنه بصرها مرة ثانية .

لقد عرفته ! ان بسمتها واحمرار الخجل .. يجزمان بأنه يعنى شيئا لديها .. وأنها قد أخذت بمرآه كما أخذ بمرآها .

وهكذا أخرجته ذلك اللقاء العابر من انطوائه .. وجعل حبه يتخذ دورا ايجابيا .. ومنحه ما كان يفقده من المشجاعة والثقة .

وبدأ بعد ذلك دور التجارب بالنظرات والتفاهم بالعيون وطال به ذلك الدور وهو مغرق فى نشوته ، يود لو أعلن لكل من لقيه أنها قد أصبحت

و ذات يوم حدثت المعجزة التي لم يكن يتصور وقوعها ، ورسم له
القدر طريق الوصول اليها .

وكان ذلك في إحدى الزيارات العائلية .. فقد ذهب وأسرت له لقضاء
أحد أيام العطلة في منزل خالته بمصر الجديدة وعقب الغداء أخذت ابنة
خالته تعرض عليه ، ألبوما ، مليئا بصورها هي ورفيقاتها في المدرسة ..
وفي وسط الوجوه المحتشدة أبصر بوجهها يضيء على الورق .

وأمعن النظر في الصورة برهة .. ثم تمالك نفسه وسألها عن صاحبة
الصورة .

فأجابت وهي تقلب الألبوم :

- انها منى حسين ابنة زكى بك حسين مدير مصلحة (...) لقد
كنا معا في ، ألبون باستير .

- فتاة لطيفة .

- أتعرفها ؟

تعرفه وأنها سميت له ، وأضحى ككل عاشق يتوهم أن نظرتها اليه تعتبر
حدثا في تاريخ البشر .

ولم يكن يستطيع أن يتصور ماذا يمكن أن يحدث بينهما بعد ذلك ،
ولا كان يخطر على باله أنه يمكن أن يحدثها في يوم من الأيام .. وهو
الانسان الخجول الكئوم ، القليل الخبرة بأحوال الحب .

كيف يصل اليها وهو لا يراها الا خارجة من المدرسة أو راكبة
السيارة ؟ وكيف يأمل في لقائها وهي .. فيما يبدو ، من نوع ارمستراطي
لا يكاد يخرج الا في عربة .. ؟ ان الأمر يحتاج الى معجزة وهو لا يعتقد
أنه يعيش في عصر المعجزات .

- رأيتها بضع مرات فى المدرسة الايطالية التى تجاور بيتنا .
- أتعجبك ؟
- جدا .
- وتضاحك الأثنان .. وقالت الفتاة :
- لقد تعلمت الشقاوة .
- هذه تهمة ظالمة . انى لم أرها الا من بعيد .
- ثم صمت برهة وأرشف متسائلا :
- أما زلت تعرفينها ؟
- لقد قابلتها منذ يومين .. ودعتنى لزيارتها ، وعانيتنى على عدم السؤال عنها .
- ولم لا تسألين عنها ؟
- 'لأنى لم أكن أعلم أنك مغرم بها .
- والآن ؟
- والآن أسأل كل يوم .
- وتزورينها ؟
- وماذا يهمك من زيارتى لها ؟
- لكى ترد الزيارة .
- آه .. فهمت .. وسيصادف وجودك بالطبع ساعة زيارتها ؟
- اذا كنت تتكرمين .
- أيتها الخبيث .. ماذا تريد منها ؟
- رؤيتها والحديث معها .

- فقط ؟

- فقط ، وأنفع نصف عمرى .

- لا داعى لنصف عمرك .. أحتفظ به لمرّة ثانية ، سأريك أياها
مجانا لوجه الله .

- متى ؟

- احضر الى يوم الأحد القادم .

- أولئكة أنت من احضارها ؟

- سأبذل جهدى .

وفى اليوم الخالد ذهب ممسكا قلبه من فرط الالهة والخشية .

انه يذكرها يوم ذاك ، جميلة ناعمة هادئة ، قد جلست تنتظر اليه فى
دهش وخجل ، وقد أخذت ابنة خالته تقوم بواجب التعريف بين الاثنين .
ولم تمض برهة على لقائهما حتى كان كلاهما يقبل على صاحبه
وكان بينهما ودا قديما .

وتكرر اللقاء بينهما بعد ذلك فى بيت خالته ، ثم تحايلا على اللقاء
وحديدين .

كان وقتذاك فى الثامنة عشرة ، وكانت هى فى الرابعة عشرة ، ومع
ذلك فقد كانا فى حبهما أبعد ما يكونان عن الطيش والنزق واللهو ، كان
كل منهما أعقل وأكبر من سنه ، وكانا فى تفكيرهما جادين كل الجد ،
سامعين كل المسموع .

كان أمامه سنة فى المدارس الثانوية ، وكان من رأيه أن يدخل المملك
العسكرى حتى يبرز فى التخرج لكى يقرب موعد زواجهما ، ولكنها كانت
ترى أن يدخل الهندسة ، فقد كانت تريده مهندسا بارعا عظيم الشأن ، ولم

تكن ترى هناك ما يدعو للعجلة ، ما دام كل منهما يرى صاحبه وينعم ببقائه .

واقنع برأيها ، وبدأت آمانيه التي لم تكن تعدو مجرد أمانى يسلى بها نفسه ، تتحول الى هدف لا بد من تحقيقه ، فقد كان يحس أن أباهما أرفع من أبيه شأنًا ، وأن أسرتها من الطبقة الارستقراطية ، ولهذا فقد ود أن يكون أهلا لها حتى يسهل على أسرتها قبوله ، وحتى يكون ندا لها .

لقد كان واثقا منها ، ولكنه رغب فى أن يجنبها معارضة الأهل .. وهو لا ينكر أنه اندفع فى عمل كما اندفع وقتذاك فى الامتدكار والتحصيل والسهر .. لقد صمم على أن يكون انسانا ذا شأن ، وأن يكون أرفع من أبيها الذى أصبح وقتذاك وكيل وزارة .

ولم لا ؟

انه يستطيع أن يكون جراحا نابغة ، أو مهندسا بارعا ، أو محاميا شهيرا ، ويستطيع أن يصيب من الثراء ما يهيب به لها حياة أكثر رغدا من حياة أبيها .

أجل ! أنها تستحق كل خير ، ولا بد أن يهبها ما تستحق .

تلك كانت آمانيات الصبا ، ورغبات التلمذة .

ماذا فعل بها الزمن ؟

لقد نراها بنفخة واحدة .. لقد ضيعها بددا .

لقد رزقه بالمصائب من حيث لا يحتسب .

فى ذات يوم ، صنعت مع ملايين الأرواح الصاعدة الى السماء روح أبيه .

لقد مات أبوه فى يوم الامتحان ، ومع ذلك فقد اجتازه ونجح الى

المسنة الخامسة ، ولكن الاستمرار في الدراسة كان أمرا متعذرا .. فقد مات أبوه دون أن يخلف لأسرته سوى مكافأة ضئيلة .. وكان عليه أن يعمل لكي يكسب قوته وقوت أسرته .

ونجح بعض الأقارب في الحاقه بوظيفة كتابية .. ولكن كان عليهم أن ينتقلوا من بيتهم الى بيت أقل أجرا .. وأن يضغطوا مصروفاتهم بما يتناسب ويدخلهم اليميط المحدود .

وهكذا غادروا الحي .. فقد عز عليهم أن يبدوا أمام المعارف بمظهر الأذلاء المحتاجين .

وهو ينكر لقاءها بعد وفاة أبيه .. وينكر عزاءها له وتشجيعها إياه .. وينكر شحذها لعزيمته واستنهاضها لهمة .. وقولها له أنها ستنتظره حتى يحقق آماله .

يحقق آماله ؟ كيف ؟ وبم ؟

لا . لا . لقد كان من الجنون أن يحاول التمسك بآمال حطمتها الزمن .. ان عليه أولا وقبل كل شيء ان يطعم أسرته ويكسوها .. أما غير ذلك فيجب أن يطرح من الذهن .

ومرت الأيام وهو في مهمته الجديدة مرهق مكدود .. لقد كان أجبر من وظيفته تافها بالنسبة الى المطالب التي يجب عليه أن يؤديها لأسرته .

وفي ذات يوم منحت له فرصة هبات له مخرجا من تلك الحاجة والعوز .. ولكنها لم تكن فرصة خالصة .. بل كانت تحوطها بعض المساوئ التي تحتاج الى موازنة وتفكير .

لقد كانت وظيفته ساق في أحد الفنادق الكبرى .

أجل .. ليس ساقيا ، أو رئيس سقاء ، أو يسمونه ما شاموا ولكنه لا يزيد على « جرمون » .

يا للمخزية ! .

أهذا هو المركز العظيم الممتاز الذى كان يتوقعه لنفسه ؟ لا .. لا ..
انه لن يقبل .

ولكن الأجر كبير ، وأسرتة فى أشد الحاجة اليه وهو عمل شريف
لا غبار عليه .

لا . لا . يجب أن يقبل . ان رفضه اياه هو الأتانية بعينها .

وماذا يخشى على نفسه منه ؟ وممن يخشى ؟

يخشى من مخلوقة واحدة !

هى ..

ماذا تقول اذا علمت أنه قد أصبح ، جرسونا ، ؟

ولكنه لن يخبرها .

لقد لقطع عن رؤيتها ، ووطن للعزم على نسيانها ، فقد كان من
الخبيل أن يأمل فيها .

وهكذا قبل العمل الجديد .

ومرت به الأيام الأولى فى عمله وهو مرتبك خجل ، ولكنه بدأ
يتعود شيئا فشيئا ، حتى إطمأن إليه ، ولم يعد يرى فيه ما يهدر كرامته ،
ما دامت هى على الأقل لا تعرف .

وهكذا مر به الزمن ، وهو لا يحاول السؤال عنها أو معرفة
أخبارها ، حتى فوجيء اليوم برؤية صورها فى الصحف وبقراءة أنباء
زواجها من أحد أرباب الثروات والمراكز فى مصر .

وهكذا أصبحت علما من الأعلام تكتب فى صدور الصحف أنباء

ذهابها وإيابها ، وتوصف حركاتها ومكناتها وترسم في كل حال لها وترحال .

ولم يشعر من زواجها بحزن .. فقد كان يشعر أنه قد فقدها من زمن ، وأن من المسخف أن يحاول التطلع إليها أو الحزن على فقدانها .. لقد تراكمت ثلوج اليأس على قلبه . فما عاد يهفو لفرحه أو يرجف لحزن . وناداه ذات صباح رئيس الفندق وأخبره أنه يثق في نوقه ومقدرته ، وأنه لذلك سيعهد إليه بخدمة نزيل عظيم سيحل بالفندق لقضاء شهر عسل هو وزوجه .

وأحس بقلبه يدمى ، فقد رأى أن سخرية القدر قد بلغت أشدها ، وحاول أن يعتذر ، ولكن صاحب الفندق أبدى دهشة وأصر على أن يتولى هو خدمتهما .

ولم يكن أمامه سوى الرضوخ والرضاء بالأمر الواقع ، والتعزى بالمثل ، ماذا يضير الشاة من سلخها بعد ذبحها ؟ .

ولم يعد له سوى أمل ضئيل يتعزى به ، وهو أن تكون قد نسيت . وهكذا وقف ينتظر مقدمتهما ، ووقفت العربدة الفخمة أمام الباب ، وهرع الخدم يفتحون الباب ، ونزلت هي وزوجها تتهادى في عظمة . واشتدت ضربات قلبه ، وأطرق إلى الأرض .

يا للقلب الذي لا ينسى ! . انه يتخبط في صدره .. لقد تخلص من ثلوج اليأس وعاد يهفو ويصفق .

لها هي .. هي .. بطوطوفة أنفها وشفتيها القرمزيتين وشعرها الذهبي .

وهذا هو زوجها ، بوجهه المنتفخ ، ولغده المتدلى على صدره ، وبطنه المتدلى على ساقيه ، ورأسه اللامع البراق .

لعن الله المال .

ان هذا الخنزير الأبيض لو قدر بغير ماله ، لما وازى ثمنه أكثر من خمسة وعشرين جنيها هي ثمن ملابسه .

ويحه ! انها لا شك قد نسيت ، أو أنها تعتمد انكاره وتجاهله .

وماذا كان ينتظر سوى هذا ؟

هل كان يتوقع أن تهجم عليه فتوسمه أحضاننا وتقبيلا ؟

كيف يمكن أن تعامل مليونيره مثلها ساقيا مثله ؟

ولحسن بالذلة والمسكنة . انها لا شك معذورة في تصرفها ولكن أما كان يجب أن تمنحه نظرة معرفة لا يحسبها سواء ! أكثر عليه أن تمنحه مجرد نظرة تعارف ؟

ومضى اليوم وهو قائم بالخدمة ، وهي لا تكاد تحص له وجودا ، ولا ترى فيه الا واحدا من الخدم .

لقد كان عليه أن يحتمل شهرا من الاذلال .

وفي المساء هبط الخنزير الأبيض وحده الى قاعة العشاء ، ثم انتقل بعد ذلك الى حجرة الورق وانهمك في اللعب .

وبعد هنيئة أنباء أحد الخدم أن السيدة تريد العشاء في حجرتها ، وأنها تطلب أن يحمله هو اليها .

هو بنفسه ! أجل .. انه امعان في الاذلال .. لم ؟ وماذا فعل ؟

ولكن لا بأس عليه .. أنه سيصمد أمام عاصفة الاذلال . ماذا يضيره أن يحمل اليها العشاء ؟ أليس خادما ؟

وهكذا حمل الطعام ، ووقف بطرق باب حجرتها فصاحت به :

- أدخل - أدخل .

وفى الحجرة وجدها واقفة تنتظر ، ووضع الطعام على المائدة وهو مطأطئ الرأس دون أن ينظر اليها ، ثم استدار وهم بالخروج ، ولكنها قالت هامة :

- تعالى .

وواجهها رافعا رأسه ، فعادت تهمس :

- اقرب .

واقرب منها حتى تلاصقا ، وأمسكت بيده فضغطت عليها فى حرارة وأردفت هامة :

- دعنا نسخر منهم جميعا .. دعنا نسخر من القدر الساخر .. ماذا كنا نريد أكثر من شهر عمل فى مثل هذا الفندق ؟

وتردد برهة .. فقد سلبته المفاجأة صوابه ، ولكنه سرعان ما مد ذراعيه يضمها اليه وأطبق على شفثيها .

ثم رفع شفثيه برهة وأخذ يتمتع فى ذهول :

- ظننتك نسيبتى .

- أنا أنساك ! لقد صممت على انتظارك فسخروا منى . وعندما تقدم هذا الشوال ، من الذهب لخطبتى كانوا يجنون من الفرح ، واعتبروها فرصة العمر .. وكان من الجنون أن أحاول مقاومتهم .. فاستسلمت .

لقد ضحوا بى فى سبيل أغراضهم ، لقد تزوجوا هم صاحب الملايين ، أما أنا فقد كنت طعما لصيدهم ، كانوا كلهم مغرضين غير شرفاء ، فلماذا تكون نحن وحدنا شرفاء ! لقد سخر منا القدر عندما حاولنا

أن يسلك كل منا الى الآخر مبيلا شريفا ، وصمم على أن يضع بيننا هذه القنطرة من المال ، فلم نعبرها ؟ كنت أعرف أنك هنا وكنت أفدرك وأحترمك ولو تركوني لجئت اليك امرأة شريفة ، وأصبحت زوجتك . أما وقد أصروا على آرائهم ، وسخروا مني .. فتعال .. تعال .

أخذها مرة أخرى بين ذراعيه .

وهكذا قدم له القدر الاعتذار والترضية ، وهياً له شهر عسل على غير انتظار .

★ ★ ★

للمؤلف

(١٩٤٧)	قصص قصيرة	اطيساف . . .
(١٩٤٧)	رواية	نائب عزرائيل . .
(١٩٤٨)	قصص قصيرة	اثنتا عشرة امرأة .
(١٩٤٨)	قصص قصيرة	خبايا الصدور . .
(١٩٤٨)	قصص قصيرة	يا امة ضحككت .
(١٩٤٩)	قصص قصيرة	اثنا عشر رجلا .
(١٩٤٩)	رواية	ارض الذئاق . .
(١٩٤٩)	قصص قصيرة	في موكب المهوى .
(١٩٤٩)	قصص قصيرة	من العالم المجهول .
(١٩٥٠)	قصص قصيرة	هذه القفوس . .
(١٩٥٠)	رواية	اني راحلة . .
(١٩٥٠)	قصص قصيرة	مبكي المشاي . .
		بين ابو الريش وجنيمة
(١٩٥٠)	قصص قصيرة	ناهيسش . . .
(١٩٥١)	قصص قصيرة	افنيات . . .
(١٩٥١)	مسرحية	ام رتيبة . . .
(١٩٥١)	قصص قصيرة	هذا هو الحب . .
(١٩٥١)	قصص قصيرة	صور طبق الاصل .
(١٩٥٢)	رواية	بين الاطلسل . .
(١٩٥٢)	رواية	السقا مات . .
(١٩٥٢)	قصص قصيرة	سماز الليالى . .
(١٩٥٢)	قصص قصيرة	الشيخ زعرب . .
(١٩٥٢)	قصص قصيرة	نفحة من الايمان .
(١٩٥٢)	مسرحية	وراء الستار . .
(١٩٥٣)	قصص قصيرة	ست نساء وستة رجال
(١٩٥٣)	قصص قصيرة	هذه الحياة . .

(١٩٥٢)	رواية	البحث عن جنة .
(١٩٥٢)	مسرحية	جمعية قتل الزوجات .
(١٩٥٢)	رواية	غديتك يا ليلي .
(١٩٥٢)	التمثيل قصير	لياسة خمير .
(١٩٥٢)	التمثيل قصير	همسة عابرة .
(١٩٥٤)	رواية في جزأين	رد قلبي .
(١٩٥٥)	التمثيل قصير	ليسال ودهوع .
(١٩٥٦)	رواية	طريق العودة .
(١٩٥٧)	مقالات	أيام تدسر .
(١٩٥٨)	مقالات	من حياتي .
(١٩٥٩)	مقالات	لطمات ولثبات .
(١٩٦٠)	رواية في جزأين	ناديسة .
(١٩٦١)	رواية في جزأين	جفت الدهوخ .
(١٩٦١)	مقالات	أيام مشرقة .
(١٩٦١)	مقالات	أيام وتكريات .
(١٩٦٢)	مقالات	أيام دن عمري .
(١٩٦٤)	رواية في جزأين	ليل له أخسر .
(١٩٦٦)	مسرحية	أقوى من الزين .
(١٩٦٦)	رواية في جزأين	نحن لا نزرع الشوك .
(١٩٧٠)	رواية	لست وحدك .
(١٩٧٠)	مقالات	من وراء الغيم .
(١٩٧١)	مقالات	أيام عبد الناصر .
(١٩٧١)	رواية	ابتسامة على شفثيه .
(١٩٧١)	رحلات	طائر بين المحيطين .
(١٩٧٢)	قصة	العمر لحظة .

مكتبة مصير
٣ شارع كائنل صدق - البغداد



الثمان ٧٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
تعد حرفة السحار وشركة

To: www.al-mostafa.com